إهداء من
المؤلف مع التحية
جابر قميحة
١٩/١١/١٩٩٦

الشاعر الفلسطيني الشهيد

عبد الرحيم محمود

أو

ملحمة الكلمة والدم

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

بقلم
الدكتور جابر قميحة
كلية الألسن - جامعة عين شمس
بالقاهرة

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

إهداء

الى فلـــذات كبـــدى :

لميـــاء وياسر وحنـــان وعبـــير وســـامح

محبـــة ودعـــاء ٠

-

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

تقدیم

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

بسم الله الرحمن الرحيم

عرفته شعرا قبل أن أعرفه شاعرا ، عرفته قـولا قبل ان أعرفه رجلا وانسانا ... ففى أواخر الأربعينيات ــ ونحن تلاميذ فى السنة النهائية من المرحلة الابتدائية ــ كنا نتغنى بتلك الكلمات الرنانة القارعة :

سـأحمل روحى على راحتى وألقى بهـا فى مهاوى الردى

وكنا نردد هـذه الكلمات دون أن تنسب الى قائلها ، ولو نسبت فلن يغنى ذلك شيئا ، فما كان منا أحـد ــ فى هـذه السن ــ يعرف من هـو عبد الرحيم محمود ، وما كان أساتذتنا يقفون طويلا أو قصيرا الا عند الأسماء المتوهجة من أمثال أحمد شوقى وحافظ ابراهيم ٠

كانت مأساة فلسطين فى تلك الأيام فى بداية نضجها المنكود ، وولدت اسرائيل بعـد مخـاض اشترك فيه الاسـتعمار والصهيونية والصليبية العالمية والتقاعس العربى ، وظلت أبيات عبد الرحيم محمود رنينا فى أذنى ذا عبق خاص ونكهة غريبة تختلف عما أجـده فى شعر الحماسة والوطنية الذى كنا نحفظه فى هـذه المرحلة(١) . ولكن أسر البيت الأول كان أقـوى

---

(١) كانت المرحلة الابتدائية أربع سنوات تليها المرحلة الثانوية خمس سنوات ويحصل الطالب فى نهـاية المرحلة الأولى على الشـهادة الابتدائية ، وفى السنة الرابعة من المرحلة الثانوية يحصل على « شهادة الثقافة العامة » ، وفى السنة الأخيرة يحصل على « الشـهادة التوجيهية » ، التى تؤهله للالتحاق بالجامعة ٠

من تأثير البيت الثانى فى نفسى ... كنت أتحدث الى نفسى قائلا : حياة تسر الصديق ... نعم . ولكن « مات » يغيظ العدا !!! كيف ؟؟ !! .. كيف والأعداء يسرهم أن يموت كل مواطن مناضل وكل مكافح شريف ؟

ثم تمر الأيام واكتشف المعنى الكبير الخالد فى مثل هذا المات الذى يغيظ الأعداء ويسوءهم ، بل ويزلزل أركانهم ويقوض بنيانهم ، انه الموت « الخالق البناء » الموت المشيد المعلى .. الموت الباعث الناشر ، هو الموت الذى كثف شوقى مفهومه الضخم فى وقله :

ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ولا يحق
ففى القتلى لأجيال حياة وفى الأسرى فدى لهم وعتق(٢)

انه مفهوم علوى يسبح فى آفاق قوله تعالى « **يخرج الحى من الميت** » .. نعم .. لابد من موت شريف عظيم لتولد حياة شريفة عظيمة ... حياة تنبض بالقوة والحق والثبات ، ولو مات مثل هذا « الموت » « لماتت » مثل هذه الحياة ، وبذلك استطعت أن اسبح فى هذا الأفق بوجدانى قبل أن اعيشه بعقلى ، ثم اهتدى للتفسير الذى كفانى وشفانى لذلك « الموت الذى يغيظ العدا » ، وعرفت كيف تنتصر « الحياة » بمثل هذا « الموت » . وعرفت أن الحقيقة التاريخية التى لا تنطمس تتلخص فى ان الانتصارات الكبرى تعتمد على هؤلاء الذين تقدموا الصفوف ، وقادوا الرجال ، وجادوا بالنفوس ، ومضوا فى التاريخ شعلات وقدوات وأسوات ... تتفجر منها حيوات خالدات ... تبنى وتعلى ولا تموت .

كان هذا هو اللقاء الأول بعبد الرحيم محمود ... فى بيت أو بيتين أو أبيات من الشعر الذى كنا ننشده ، وكأنه مجهول القائل . ولكن كان هناك فى ضمير الغيب قدر للقاء ثان على نحو اعمق وأوفى .

* * *

(٢) الشوقيات ٢/٧٧ .

كان هـــذا اللقاء الثانى بعـــد ذلك بقرابة ربع قرن ، وعلى سبيـــل التحـــديد فى الهزيع الأخير من سنة ١٩٧٣ . كنت أعمـــل فى الكويت آنذاك معارا من الحكومة المصرية ، وفى كتاب الأدب والنصوص المقرر على الصف الرابع الثانوى(٣) قرأت بحثا من قرابة ثلاثين صفحة عن « أدب المقـــاومة الفلسطينية » كان الموضوع يقرر لأول مرة ، وشعرت بينى وبين نفسى بالارتياح : لأن تقرير مثل هـــذا البحث يعـــد « كسرا » لطابع التقليدى الذى ظـــل يسيطر على موضوعات الأدب فى الكتاب المدرسى طيلة الأعـــوام السابقة . كما أن تقـــديم بحث طويل فى موضوع واحـــد كان فى ذاته شيئا جـــديدا يحرر الطلاب ، ويخرج بهم من أسر الملخصات التى افسدت أذواقهم ، وبلدت أحاسيسهم . وقرأت البحث ليتحول ارتياحى له وسعادتى به الى شعور حاد بالأسى والفجيعة ... ان كاتب هـــذا البحث سقط ضحية حامسته الجارفـــة لموضـــوعه ، فجرفته هـــذه الحماسة بعيدا جـــدا عن « الوقار العلمى » ، فقـــد حرص الكاتب من أول سطر أن يغرس فى نفس قارئه انطباعين غريبين .

الأول : أن ادب المقارمة ـــ واعلى نماذجه فى رأيه شعر الثلاثى محمود درويش وسميح القاسم وتوفيـــق زياد ـــ ادب منبت الصـــلة عن الآداب السابقة ، وكأنه انخلق من العـــدم ، وولد بلا نسب .

والثانى : أنه أدب يعـــلو ولا يعلى ، أدب فائق لا نقص فيـــه ، ولا مأخـــذ عليه ، أدب متفوق على كل الآداب السابقة واللاحقة .

وبلغت هـــذه الحماسة حـــد التزوير والتزييف والتلاعب بمادة البحث حرصا من الكاتب على دفع الحرج عن نفسه ، وعن شعر المقاومة ، وأجتزىء بمثال وأحـــد :

أورد بحث الكتاب المدرسى جزءا من قصيدة سميح القاسم (أتحدى) على النحـــو التـــالى :

(٣) المرحلة الثانوية فى الكويت أربع سنوات .

واقتلونى اتحدى

اقتل الموت

وآتيكم حياة تتحدى

مع أن هذا الجزء من هذه القصيدة جاء فى ديوان سميح القاسم « قرآن الموت والياسمين » جاء على النحو الآتى :

واقتلونى اتحدى

اقتل الموت

وآتيكم الها يتحدى

ومن فضول القول أن أقرر أن استبدال كلمة « حياة » بكلمة « الها » — بصرف النظر عن هدف الكاتب — يعد تمردا على أبسط قواعد المنهج العلمى ، مع تسليمنا بأن استعمال الشاعر لكلمة « الها » فى هذا المقام ، وبهذه الصورة لا يتفق مع أدب الحديث عن الله(٤) .

* * *

وغير هذا وذاك كان فى البحث سقطات موضوعية فادحة ، منها — على سبيل التمثيل : الفصل النوعى الحاد بين أدب التحرير العربى (السابق على أدب المقاومة) وأدب المقاومة الفلسطينى ، مع أن هذا الفصل النوعى الحاد الذى شاءه المؤلف يصطدم بواقعين :

الأول : واقع تاريخى خلاصته أن فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربى . والصهيونية انما نمت وربت فى ظل الاستعمار العالمى ، وتغذت بلبان الاستعمار الانجليزى الذى كان ذا وجود فعلى فى أوطان عربية أخرى ، وان اختلفت درجة المعاناة من وطن عربى الى آخر . والاستعمار

(٤) انظر : جابر قميحة : لكى لا تحرثوا فى البحر : مقال بمجلة الرائد الكويتية ١٣ من ديسمبر ١٩٧٣ .

فى شتى أسمائه يمثل جـوهرا واحـدا ، وان تكيفت صوره وأسـاليبه اتساقا مع درجة القابلية ، وانطلاقا من الفرص المتاحة والثغرات المفتوحة .

وقـد كان التخطيط الاستعمارى دقيقا بارعا حتى تجمعت كل الشرائط والعوامل المطلوبة لانضاج المـأساة الفلسطينية فكان ذلك المسخ غير الشرعى اسرائيـل .

هـذا هـو الواقع التاريخى أما الثانى فواقـع فنى وموضـوعى ، فالدراسة الواعية المحايدة لشعر المقاومة تخلص بنا فى النهاية الى أنه يتفق مع شعر التحرير فى « المنبع الملهم » وفى كثير من المضامين الثورية والانسانية ، وان اتخـذ شعر المقاومة فى كثير من قصائده وجهة ماركسية والحادية حـادة .

* * *

ومن هـذه السقطات كذلك ما ذهب اليه الكتاب المدرسى من أن رفض الهزيمة وتحـديها كان سمة تميز أدب المقاومة ، أما بعض شعراء التحرير فقـد « ركبهم اليأس ، واستحوذ عليهم تشاؤم أسود قاتم ، فسمعنا رنة اليأس ، وأنين الانسحاق »(٥) .

والمفروض أن يكون التفريق على أساس الظواهر الموضوعية والفنية الغالبة لا السمات القليلة أو النادرة . والواقع أن الروح الآملة ، والتطلعات التى تستشرف النصر لم تكن سمة انفرد بها شعر المقاومة ، بل كانت هـذه الروح متغلغلة ـ فى قوة ووضوح ـ فى شعر التحرير السابق على النكسـة والمزامن لها سواء أكان ذلك داخل فلسطين أو خارجها .

وكان على الكاتب أن يفرق بين رنة الحزن وأنين الانسحاق ، فليس من الضرورى أن يتلازما ، فقـد يبدو الشاعر حزينا ، ولكنه غير انهزامى وغير

---

(٥) كتاب الأدب والنصوص ٢٧١ .

منسحق ، ورنة الحزن — لا أنين الانسحاق — كانت قاسما مشتركا بين الجميع : شعراء التحرير وشعراء المقاومة ، وهـذا الاتجاه كان نتيجة طبيعية تمخضت عنها أحـداث النكبة بكل فصولها . وقـد تبدو رنة الحزن قريبة من الندب المستسلم المنهار فى بعض قصائد شعراء المقاومة ، كقصيدة « خائف يا قمر » لتوفيق زياد(٦) .

* * *

ويذكر الكتاب المدرسى — وهى سقطة من سقطاته أيضا — أن أدب التحرير لم يستدرج الى معركة فرضت عليه فرضا ... ولم يخض المعركة ، ولم يكتو بنارها ، واكتفى بأن صورها من الخارج ، وشتان ما بين هـذا التصوير الداخلى للمعركة الذى يبرز بروزا واضحا فى شعر المقاومة حيث الشاعر جندى فى ساحة القتال .... »(٧) .

وواضح أنه تفريق لا يقوم على أساس سليم ، فالأدب الذى يستدرج ، أو يدفع به لا يسمى ادبا ، كما أن معيار التفضيل بين الأدبين على أسـاس التصوير من الخارج أو الداخل معيار غير دقيق لأن مرجـع التفضيل هـو الأصالة الفنية ، والصدق الشعورى ، وبراعة الأداء بغض النظر عن مكان الشاعر فى الأرض التى ينطلق منها ..

والشاعر الموهـوب قـد يتمثل التجربة بالتصور الخـلاق والخيال البارع ، وينفعل بها ولها أكثر من شاعر مارس التجربة واكتوى بنارها فى واقع الحياة ولكنه كان ضعيف الأداة ، محـدود الشاعرية ، ضيق المدى .

وتصوير شاعر المقاومة مناضلا يرفع السلاح فى ساحة القتال فيه مبالغة بل مخالفة للواقع ، فلم نسمع بواحـد منهم خاض معركة حقيقية

---

(٦) أنظر ديوان توفيـق زياد ٩٣ . وأنظر جابر قميحة : « بحث مشوه » مقال فى مجلة الرائد الكويتية (ص ١١ – ١٦) العـدد ١٥٧ – السنة الرابعة ١٩٧٣/١١/٢٩ .

(٧) الكتاب المدرسى ٢٧٤ .

كعبد الرحيم محمود مثلا . ومن شعراء التحرير المقاتلين من اكتوى بنار الصراع والكفاح ضد المستعمر أكثر مما لاقي ثلاثى شعر المقاومة . وما عاناه شاعر من شعراء التحرير كالبارودى فى منفاه كان أضعاف أضعاف ما لاقاه سميح القاسم فى معتقله بالأرض المحتلة سنة ١٩٦٩ .

على أن من الشعراء الفلسطينيين فى المهجر من استطاع أن يصور المأساة ، ويعبر عن روح الاصرار والتحدى الصارم . من الخارج بعطاء شعرى يفوق كثيرا ما قدمه ثلاثى المقاومة « من الداخل » ، واذكر فى هذا المقام باعتزاز الشاعر هارون هاشم رشيد الذى تحولت كلماته الى أغان جماهيرية تلهب المشاعر ، وتفجر الوجدان .

* * *

وفى سبيل الانتصار لشعر المقاومة ــ وخصوصا شعر الثلاثى درويش والقاسم وزياد ــ يحاول الكاتب ان يعمل معوله فى « اشعار الآخرين » حتى ينفرد شعر المقاومة باليد الطولى والقدح المعلى : فالشعراء الفلسطينيون فى المهاجر اصابهم « التشرذم العقائدى » مما جعل لهم « أصواتا متعددة » أما شعراء المقاومة « فلا نسمع لهم الا صوتا واحدا هو صوت المقاومة »(٨) .

وهو حكم مجانب للواقع ، فالذى يقرأ ما نظمه شعراء المقاومة يطرق سمعه أصوات متعددة : فقد غنوا للأرض والحرية ، وتغنوا بالحب والمرأة ، كما تغنوا بالماركسية والالحاد . بل ان ديوان محمود درويش « عصافير بلا أجنحة » لم يخل من التفجر الشهوانى المغرق فى الحماة الجنسية ، ومن ذلك قصيدة « هى واشعارى » ص ٧٠ ، و « رسالة أنثوية » ص ٧٧ . و « حكاية » ص ٨٥ ، وفيها يقول على لسان عشيقته تحكى لأختها :

---

(٨) الكتاب المدرسى ٢٨٦ .

اختـــاه غيبنى ولم أدر

كيف ارتميت على يديه وذاب فى صدرى

لم يكفه يا أخت لم يكف

بل راح فى لهـــف

ليطفىء رعشة النهد الذى بالنار يلتحف

والنار يا اختاه تعترف

وغـــدا ينقط من مزيج النار بالحلب(٩)

فالقول اذن بأن ثلاثى المقاومة لم يكن لهم الا صوت واحـــد قول لا يعبر عن رؤية حقيقية لواقع هـــذا الشعر .

* * *

ويتهم الكتاب الشعر الفلسطينى فى المهاجر بأنه وقف موقفا ســـلبيا من القضية الفلسطينية فاكتفى بالبكاء ووصف شـــقاء اللاجئين والانفصال الوجـــدانى بينه وبين أبناء فلسطين داخل الأسوار ، ومن ثم فشل فى تكوين الوجـــدان المقاوم بعكس شعر المقاومة الذى نجح نجاحا باهرا لاتخـــاذه موقفا ايجابيا فاعلا(١٠) .

وتلك اغلوطة اخرى من أغاليط الكتاب ، لأن شعر المقاومة ـــ فى نماذجه العليا ـــ ليس بدعا فى نوعه ومضامينه الوطنية والانسانية ، فمن السهل علينا ن نجـــد جـــذوره فى شعر السابقين من أمثال أبى سلمى وطـــوقان والعبـــوشى .

ولم يقف شعراء فلسطين فى المهاجر موقفـــا سلبيا من القضية ، ولم ينفصلوا بوجـــدانهم عن اخـــوانهم ، ولم يكتفـــوا بالبـــكاء على الأرض

---

(٩) أنظر جاتر قميحه (بحث مشوه) الرائد ١٩٧٣/١١/٢٩ .

(١٠) الكتاب الحرسى ٢٨٦ .

السليبة واهلها المشردين . ونظرة عجلى الى وأحـد من هؤلاء وهـو هارون هاشم رشيد فى ديوانه « مع الغرباء » يؤكد ذلك ، ففى الديوان قرابة اربعين قصيدة تتفجر بالحزن والألم والانفعال الصـادق ، كما تتدفـق بالاصرار الايجابى ، والعزم الوثاب والأمل الباسم فى عودة ظافرة على طريق العرق والدم والكفـاح .

ودواوين أبى سلمى التى نظمها فى المهاجر مثل « أغنيات بلادى » و « من فلسطين ريشتى » يسرى فى اعطافها روح الحب والاصرار والأمل الواثق ، وتبلغ به رؤيته الشعرية غاية الابداع حين يستقطر من الألم املا ، ويستخلص من غيوم الدموع ابتسامات تفاؤل مشرقات . يقول أبو سلمى فى قصـيدته « درب الهـوى »(١١) .

سنلتقى فى الشعر لـولاه لم تشبع عينـاك ولم تشـفقى
وفى النسـيمات التى شردت من ربوات القـدس والجرمق(١٢)
سنلتقى ما فوق أرض الحمى ننشر من أنفاسـنا ما بقى
فى الكرمل المحزون بعد النوى على رمـال الشاطىء الأزرق

* * *

ويطول بنا المسار لو رحنا نفند كل ما جاء فى بحث « ادب المقاومة » فقد تكفلنا بذلك فى ثلاث مقالات طويلات(١٣) . ولكن السؤال الذى يطرح نفسه ـ وله الحق ـ هـو : وما علاقة ذلك بعبد الرحيم ؟ وما علاقة ذلك ببحث يكتب عنـه ؟ وخلاصة الجواب أن كل أولئك قادنى الى اللقاء الثانى بالشاعر الشهيد بعد قطيعة ربع قرن من اللقاء الأول .

---

(١١) من ديوان أغنيات بلادى (الأعمال الكاملة) ١٨٥ .

(١٢) الجرمق : جبل فى شمال فلسطين .

(١٣) نشرت بمجـلة الرائد الكـويتية (١٩٧٣/١١/٢٩) ، (١٩٧٣/١٢/١٣) ، (١٩٧٤/٢/٧) .

كان اللقاء الأول بين « تلميذ معجب » وشاعر لم أتعرف عليه ، وان رن فى أذنى صوته وفى قلبى صـــداه . أما هـــذه المرة فكان لقـــائى به لقـــاء دارس منصف رأى ركاما هائلا يهال عليه وعلى رفاقه من أمثال أبى سلمى وابراهيم طوقان ليبنى على قبورهم قصر يهنأ بالعيش فيه شعراء المقاومة . ورأيت من الانصاف العلمى فى ابان ذلك أن أسجل كلمة الحـــق عن هـــذا الشاعر فكان المقال الثالث بعنوان « قمة لا تنحنى ولا تحيد »(١٤) . وكان هـــذا الهزيع الأخير من سنة ١٩٧٣ هـــو بداية قراءات جادة فى الأدب الفلسطينى بعامة والشعر الفلسطينى بخاصة ، وداعبت خاطرى فكرة تاليف كتاب عن الشاعر ، وللأسف حالت حـــوائل ، ووقفت عقبات لا يتسع المقام لشرحها ، ولكن الفكرة ما غابت الا لتظهر ، وما هـــدأت الا لتتردد وتثور ، الى أن ذلل الله الصعب ، وهيأ السبيل ، فكان هـــذا اللقاء الثالث فى هـــذا الكتاب المتواضع : « الشاعر الفلسطينى الشهيد : عبد الرحيم محمود أو ملحمة الكلمة والدم » .

وقـــد يبدو العنوان طويلا ، ولكنى مقتنع بأنه برىء من الغـــلو والاسراف : فتاريخ الشاعر صنعته نقطتان : نقطة حبر خط بها « الكلمة » ، ونقطة دم سجل بها التضحية والفـــداء ، ومن تعانق النقطتين وتلاحمهمـــا الصادق كانت « الملحمة » الحية النابضة « ملحمة الكلمة والدم » التى اسمها فى سجل فلسطين : عبد الرحيم محمود .

* * *

وفى طريقى الى هـــذه الدراسة كان لقائى :

بالديوان فى طبعته الأولى التى رأت النور سنة ١٩٥٨ .

وبالديوان فى طبعته الثانية التى صـــدرت سنة ١٩٧٤ ، وكان القائم على أمرها الدكتور كامل السوافيرى ، وقـــد صـــدرها بدراسة عن الشاعر .

---

(١٤) الرائد : ١٩٧٤/٢/٧ .

وبكتاب : الشاعر عبد الرحيم محمود ، وهو أطروحة جامعية كتبها الأستاذ نافع عبد الله ، وصـــدرت فى دبى سنة ١٩٧٩ .

وبكتاب : شاعران من جبل النار للأستاذ وليد صادق جرار . وقـــد صـــدر فى عمان فى ابريل ١٩٨٥ .

وكتاب : الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة . وقـــــد صـــدر فى بغـــداد فى مايو ١٩٨٥ للأستاذ رشيد جبر الأسعد .

عـــدا عشرات من المراجع سجلتها فى آخر الكتاب .

* * *

وقبل أن ابدى رايا لابد منه فى هـــذا الكتاب اقرر اننى أعـــدت كتابة هـــذا البحث أو اغلبه بعـــد أن انتهيت تقريبا من كتابته فى مدينة اسلام آباد معتمدا على المراجع التى حملتها من القاهرة ، ومراجع أخرى أمدتنى بهـــــا منظمة التحرير فى اسلام آباد . أما شعر الشاعر فكان مصدرى الرئيسى وعمدتى فيه ديوان عبـــد الرحيم فى طبعتـــه الثانيـــة التى قـــدمها الدكتور السوافيرى ، وهو يزيد على الطبعة الأولى بعشرات من الأبيات .

وقبل عـــودتى الى القاهرة فى اواخر مايو سنة ١٩٨٦ لقضـــاء عطلة الصيف وصل الى عن طريق البريد من أحـــد أصـــدقائى فى العراق كتـــاب رشيد الأســـعد ، ولكنى لم اجـــد فيه ما هـــو حرى بالتقـــدير غير بيتين من الشعر لعبـــد الرحيم محمـــود . لم اجـــدهما الا فى هـــــذا الكتـــاب ، وعبد الرحيم يخاطب فيهما المراة العربية قائلا :

يا ابنة العرب حطمى الأغـــلالا ارفعى الصوت واطلبى استقلالا
وافتحى مقلتيك للنـــور وامشى فى طريق الجهاد فالليل طالا(١٥)

---

(١٥) رشيد الأسـعد ٠ بطـل معركة الشجرة ٧٢ ٠

وبعد عودتى الى القاهرة علمت صدفة أن الطيب عبد الرحيم الابن الأكبر للشاعر الشهيد هو المثل الدائم لمنظمة التحرير الفلسطينية بالقاهرة ، وقدم الرجل الى من المراجع العزيزة ما جعلنى أغير رايى فى كثير من الوقائع ، وأرجع عن كثير من الأحكام التى كنت قد اوردتها كانها بديهيات مسلم بها ، وأخص بالذكر مرجعين بهما من شعر عبد الرحيم مئات من الأبيات لم ترد فى الطبعتين السابقتين للديوان وهما كتابا الأستاذين : نافع عبد الله ووليد صادق جرار .

واعترف بأن اكتفائى بما جاء فى طبعة الدكتور السوافيرى من شعر قادنى الى كثير من الأحكام التى اكتشفت غلطها بعد رجوعى الى الكتابين السابقين :

— فليس فى الديوان بيت وأحد يمثل رؤية خاصة للشاعر فى الأوضاع الاجتماعية أو السياسية فى العراق .

— وليس فيه بيت وأحد عن المرأة العربية مناضلة مكافحة .

— وليس فيه بيت وأحد يدل على تفاعل الشاعر مع الوطن العربى وكفاحه وآلامه وآماله .

— وليس فيه بيت وأحد فى واحدة من المناسبات الاسلامية مثل الهجرة ومولد النبى عليه السلام .

— وليس فيه بيت وأحد يتغنى فيه بأية قيمة من القيم الاسلامية وهو الذى عايش كبارا متدينين وعلماء افاضل كالشيخ عز الدين القسام وعبد الرحيم الحاج محمد والشيخ محمود حنون .

— وليس فى الديوان ما يدل على تفاعل الشاعر مع طلابه ، أو المهنة التى عاش يعشقها ويحبها ويتمنى الشهادة فى ساحها او ساح القتال .

وكل ذلك ـــ لو اخـــذناه بظاهره ـــ لقادنا الى أحكام خطيرة مؤداها ان الشاعر ـــ وان كان له شعر فلسطيني وطني ـــ عاش بمعزل عن مجريات الأمور في الوطن العربي ، وعاش وبينه وبين الواقع الديني في صوره المثلى وأيامه العظمى حوائل وفواصل وجفاء . وعاش دون أن يتعمق الرســـالة التربوية التي نهض لأدائها معلما ، وعاش متقوقعا في الوطنية المحلية ، أو بتعبير آخر : عاش « شاعرا فلسطينيا » أكثر منه « شاعرا عربيا » .

هـــذا اذا اكتفينا بالتعامل مع « البضاعة القليلة » التي قـــدمها الدكتور السوافيري من شعر الشاعر ، وهـــو الديوان في طبعته الثانية . واكرر الاعتراف بانني هـــويت الى بعض هـــذه الأحكام قبل أن أعـــدل عنها بعد أن انكشف لي وجـــه الحقيقة سافرا باطـــلاعي على شعر جـــديد للشاعر جاء في كتابي نافـــع وجرار وغيرهما .

ولن أتعرض هنا للأخطاء التاريخية التي وقع فيها الدكتور السوافيري في دراسته عن الشاعر فيما يتعلق بمدة دراسته في كلية النجاح ، ومدة بقائه في العراق فقـــد تكفل نافع عبد الله بتصحيح هـــذه الأخطاء[١٦] .

* * *

اما الدراسة التي قـــدمها نافع عبد الله فمن أهم ملامحها ومزاياها :

١ ـــ أن الباحث لم يكتف بالمراجع المكتوبة ، بل لجأ في ترجمته للشاعر الى « المصادر الحية » ... الى آله وتلاميذه وأصدقائه ، واستقى منهم كثيرا من أخباره وبعض أشعاره .

٢ ـــ لم يعـــدم الكاتب روح الصبر والاســـتقصاء في تحقيق بعض جوانب حياة الشاعر وبخاصة مرحلة التلمذة .

٣ ـــ الحق بالدراســـة ديوانا للشـــاعر ، وهـــو يزيد على ما جمعـــه السوافيري بمئات الأبيات كما سنفصل في الفصل الثالث .

---

(١٦) انظر : الشاعر عبد الرحيم محمود لنافع عبد الله ٨٥ .

٤ ـ نشر ـ ربما لأول مرة ـ نثرا لعبد الرحيم محمود يتمثل فى رسالة موجهة منه الى أستاذه وصديقه ابراهيم طوقان ، ومقالا نقديا طويلا فقدت بعض صفحاته .

ولكن يعيب هذه الدراسة امور منها :

١ ـ الافراط فى التحمس للشخصية المدروسة ، والوقوف بجانبها دائما مما يفقده الحياد العلمى احيانا .

٢ ـ اغفال الصورة النفسية أو الداخلية للشاعر : فالترجمة ـ فى أغلبها ـ كانت استعراضا افقيا سطحيا لوقائع حياته ، وان تعمق الباحث بعضها كما ذكرت .

٣ ـ على أن الدراسة الفنية للشاعر لم تظفر بحقها من الاهتمام ، فكانت فى حاجة الى نفس اطول ، ووقفات أكثر تأنيا . وخصوصا أن الباحث كان بين يديه من بضاعة الشاعر اكثر مما توفر للسوافيرى .

* * *

ونسجل على وليد صادق جرار فى كتابه الذى خص ثلثه تقريبا الشاعر عبد الرحيم محمود المآخذ نفسها التى سجلناها على نافع ، لكن وليد جرار يتفوق عليه بما أورده فى دراسته من قصائد جديدة لم ترد فى الديوان الذى ألحقه نافع بدراسته . وبعضها مطولات تنم على طول نفس الشاعر وقدرته على استيفاء المعنى .

* * *

وبعد هذه الدراسة بشهر أو بعض شهر صدر فى بغداد كتاب من قرابة ثمانين صفحة لرشيد جبر الأسعد بعنوان : الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة » . وهو دراسة افقية سطحية نجة للشاعر : حياته وشخصيته ـ ولا مكان فيها لفن الشاعر . كما انها غاصة بمئات

الاخطاء النحوية واللغـــوية والمطبعية . وليس لهـــذا الكتـــاب من فضـــيلة الا ايراد البيتين اللذين عرضناهما ، وترجع قيمتهما الى أن فيهما مضمونا فكريا جـــديدا لا وجـــود لمثله فيما بين أيدينا من شعر عبد الرحيم وهـــو انفتاحه على المرأة العربية واحتفاله بها ، وايمانه بقـــدرتها على مشاركة الرجل فى معركة الحرية . هـــذا على ما فيهما من بساطة المعنى وقرب الخيال وعفوية التصوير .

* * *

وقـــد عرضنا لهـــذه الكتب حتى يتبين للقارىء مناحيها ومناهجها فى البحث ومكانها فى مسيرة الأدب والنقـــد ، وحتى يفيد الباحثـــون درســـا خرجت به فى تعاملى مع هـــذه المراجع ـــ وقـــد توفر لى بعضها فى أوقات مختلفة ، وبعضها بعـــد أن انتهيت من كتابة بحثى ـــ وأعنى بهـــذا الدرس أن الباحث يجب ألا يفرط فى الاعتزاز بما كتب مهما كان الجهد الذى بذله فيه فيغفل ما قـــد يهدم بعض ما خلص اليه من أحكام ونتائج اذا ما تبين لـــه وجه الحق واليقين ، فالحق أحق أن يتبع .

* * *

وربما كانت دراستى هـــذه أول دراسة « مصرية » فى كتـــاب كامل عن الشاعر الشهيد ، وقـــد استهللتها بفصل عن قضية العصر ... قضية فلسطين التى عاش الشاعر لها ، وقضى من أجلها فى ميدان الشرف والفداء ، وبينت موقف الشعر ومدى تفاعله مع هـــذه القضية .

وعرض البحث مسيرة حياة الشاعر وصورته بأبعـــــادها النفسية والعقليـــة والروحيـــة .

وتحـــدث البحث عن « قصة الديوان المظلوم » ديوان الشاعر والمراحل التى مر بها وملامح الديوان فى كل مرحلة من المراحل وكل طبعة من الطبعات . وعلى الرغم من قلة « المـــادة النثرية » للشاعر بين أيدينا فقـــد حاولت

بقـــدر المستطاع أن استخلص من هـــذه المـــادة وجهة عبد الرحيم وملامحه الفكرية والفنية فى هـــذا الباب .

وكان اهتمامنا الأكبر موجها للدراسة الفنية التى غطت جوانب ثلاثة هى :

١ ــ آفاقه الشعرية ، والمجالات التى انطلق فيها بشعره ، وحظـــه من التقليد والابداع فى هـــذه المجالات .

٢ ــ أبعاده وسماته الفنية وخصائص أسلوبه فى الفاظه وصـــوره وعاطفته وموسيقاه .

٣ ــ ثم كانت موازنة ــ آمل ان تكون وافية ــ بينه وبين أســـــتاذه وصـــديقه ابراهيم طـــوقان .

وخلال كل أولئك ناقشنا كثيرا من الآراء والوجهات التى أبداها الكتاب والنقاد عن الشاعر وشعره . وآمل أن أكون ــ بهـــذا البحث ــ قـــد وفيت بما أردت ، أو باغلب ما أردت ، وفوق كل ذى علم عليم(١٧) .

د. جابر قميحه

القاهرة ــ الجيزة ــ الدقى ٣٣ شارع هارون

---

(١٧) أنبه القارىء الى أن الاحالات الى « الديوان » تعنى الديوان الملحق بدراسة الأستاذ نافع عبد الله فى دراسته عن الشاعر لأنها أوفى من الطبعتين السابقتين . وغير ذلك من الاحالات ينص عليه .

هى قضية العصر لا مراء ... وهى جريمة القرن العشرين التى لم يكن لهـا مثيل أو شبيه ـ لا أقـول فى تاريخ العصر بل أقول ـ فى تاريخ البشرية كلهـا .

لقـد ابتليت الأرض الفلسطينية بنوع من الاستعمار جـديد غير مسبوق بشبيه ، فالمعروف ـ من الاستقراء التاريخى ـ أن الاستعمار يعتمد على احتلال قـوة عسكرية أجنبية لقطعة من أرض وطن لأهـداف عسكرية أو اقتصادية ، ويكون ذلك لأمد قصير أو طويل ، ينتهى بخروج هـذه القـوة العسكرية من الأرض المحتلة لإستنفاد أغراض الاستعمار ، أو تحت ضغوط قـوى المقاومة المحلية ، أو تحت ضغوط عوامل عالمية ترتبط بسياسات الدول الكبرى فى نطاق الأحلاف أو التكتلات السياسية والعسكرية مما يخرج تفصيله من مجال دراستنا .

أما الاستعمار الصهيونى فهو استعمار استيطانى أو سـكانى ، هـو استعمار لا يأخـذ شكل جيش يقهر الأمة المتخلفة ويحتلها ليستغل امكاناتها الاقتصادية والبشرية لصالح البلـد الأوروبى الغازى ؛ وانما يأخـذ شـكل نقل مستوطنين أوروبيين من بلادهم الى البلد الجديد ليعيشوا فيه ، وليتخذوه وطنـا جـديدا لهم .

وسمة ثانية للاستعمار الصهيونى هى أنه لم يقم ولم يستمر استعمارا له « كيانه وشخصيته المستقله » كالاستعمار الانجليزى لمصر ، او الاستعمار الفرنسى للجزائر ، ولكنه كان استعمارا عميلا ، فالصهيونية حينما ظهرت لم يكن لهـــا جيش أو شعب ، وانما كان عندها « برنامج » فحسب لتوطين اليهود فى فلسطين ... برنامـــج تبنته الامبرياليـــة ، وســـاعدت الحركة الصهيونية فى فرضه على اليهود ، ثم على فلسطين والفلسطينيين ، وبعـــد انشاء الدولة الصهيونية رعت الامبريالية هـــذه الدولة بدرجة لا نظير لها(١) .

ثم هـــو استعمار يرتكز ابتداء على عقيدة دينية ترى فى فلسطين « ارض الميعاد » التى لا تكتمل عقيدة اليهود الا بالعودة اليها ، فاليهود يزعمون « أن لهم صلة تاريخية قـــديمة وثيقة بفلسطين تجيز لهم احياء اسرائيل التى قبرت منذ آلاف السنين ، والعودة الى أورشليم »(٢) .

وهـــو زعم باطل ، لأن بنى اسرائيل حين خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام ـــ واجتازوا البحر الأحمر الى ســـيناء دعاهم موسى الى حرب الفلسطينيين فرفضوا ، ثم تاهوا فى سيناء . وبعـــد موت موسى ، وحـــوالى سنة ١١٨٦ ق.م استطاع اليهود اخضاع بعض المدن بعـــد قتال عنيف ومذابح هائلة انزلوها بسكان البلاد الأصليين(٣) ، وقـــد بقيت أغلب هـــذه البلاد فى أيدى هؤلاء السكان .

---

(١) انظر : د. عبد الوهاب محمد المسيرى : الأيديولوجية الصهيونية : القسم الأول ص ١٦٠ .

وقـد أثبتت صحة هـذه المقولة الجرائم المتعـددة التى دأبت اسرائيل على ارتكابها فى بيروت ولبنان بتأييد من الولايات المتحدة ، وآخر هـذه الجرائم الوحشية ضرب مراكز منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس ، وتمضى الأحـداث وتأتى تترى لتؤكد أن اسرائيل لا تقف وحدها فى كل ما ترتكبه من جرائم .

(٢) د. كامل السوافيرى : الشعر العربى الحـديث فى مأساة فلسطين ٥٥ .

(٣) جاء فى العهد القـديم :

« حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح ، فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وان دفعها الرب الهك الى يدك فأضرب جميع ذكورها بحـد السيف ، وأما

وانقسم بنو اسرائيل على أنفسهم ، وصاروا شيعا وأحزابا متصارعة متقاتلة بعـــد موت يوشع بن نون ، ثم تم لهم انشاء مملكة تولى حكمهـــا شاءول ثم داود ثم سليمان . ثم انقسمت المملكة بعـــده الى مملكتين : مملكة اسرائيل ، ومملكة يهوذا اللتين ظـــل القتـــــال دائرا بينهما ، الى أن قضى الأشوريون على مملكة اسرائيل سنة ٧٢١ ق.م ، وأحلوا مكان ســـكانها السامريين من العراق ، كما قضى « بنوخـــذ نصر » البابلى سنة ٥٨٦ ق.م على ممكة يهوذا ، وهـــدم الهيكل ، وساق معظم اليهود الى بابل . وخضعت فلسطين بعـــد ذلك للفرس فاليونان فالرومان الذين تم فى عهدهم القضـــاء على اليهود سنة ٧٠ م قضاء مبرما ، وحرق قائدهم « طيطس » الهيكل ، وهـــدم مدينة القـــدس ، وبذلك خلت فلسطين من اليهود الى أن كان الفتح الاسلامى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه(٤) .

ومما سبق نستطيع أن نستخلص الحقائق الآتية :

١ ــ أن فلسطين عربية من فجر تاريخها ، سكنتها القبائل العربية مثل الكنعانيين سنة ٢٥٠٠ ق.م ، وسميت فلسطين بأرض كنعان نسبة اليهم ، ومن هـــذه القبائل العربية أيضا الانباط الذين ضمت مملكتهم شرقى الاردن وجنـــــوب فلســـطين ، وكانت عاصمتهم « بطـــرا » التى يسميها العرب « ســـــلع »(٥) .

٢ ــ أن الوجود الاسرائيلى فى فلسطين قبل الميلاد كان وجودا عدوانيا اعتمد على القتل والحرق والقمع ، كما انه كان وجودا طارئا على منطقـــة عربية باعتبار الأصل .

٣ ــ أن الوجود الاسرائيلى فى فلسطين قـــديما لم يكن وجودا مستقرا ،

النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتاكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب الك » . سفر التثنية ٢٠ (١٠ ــ ١٥) .

(٤) أنظر : السوافيرى السابق ٥٥ ــ ٥٦ .

(٥) أنظر : د. ناصر الدين الأسد : الاتجاهات الأدبية فى فلسطين والاردن ٨ .

بل خضع للهزاهز والقلاقل والحروب الداخلية بين الاسرائيليين انفسهم الى أن تمت تصفيتهم النهائية على أيدى الرومان كما ذكرنا .

٤ ــ أن الفتح العربى الاسلامى لفلسطين يعتبر امتدادا أو بعثا لحقيقة تاريخية هى « عروبة فلسطين » ، وهى حقيقة طمست أو اختفت الى حين على أيدى بنى اسرائيل والفرس والرومان .

* * *

وقــد يستند اليهود فى أحقيتهم « لأرض الميعاد » الى نصوص لاهوتية فى العهد القــديم ، وفى سفر التكوين بصفة خاصة ، وهى نصوص يقــال انه أوحى بها الى ابراهيم وهو فى أرض فلسطين . ومنها النصوص الآتية :

ــ وظهر الرب لابرام ، وقال لنسلك أعطى هــذه الأرض(٦) .

ــ وقال الرب لابرام بعــد اعتزال لوط عنه : ارفع عينيك ، وانظر الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

ــ لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد .

ــ وأجعل نسلك كتراب الأرض ، حتى اذا استطاع أحــد أن يعــد تراب الأرض فنسلك أيضا يعــد(٧) .

ولسنا فى مجال المناقشة التفصيلية لادعاء اليهود وتاويلهم الفاســد لمــا جاء فى العهد القــديم ، فمن البديهى ــ كما يقول الفرد جلوم ALFRE GUILLAUME أن المنحــدرين من اســماعيل أيضــا لهم الحــق فى أن يدعوا من نسل ابراهيم ، وأن يطلقوا هــذه التسمية على انفسهم(٨) .

---

(٦) سفر التكوين : الاصحاح الثانى عشر ، آية ٧ .

(٧) سفر التكوين : الاصحاح الثالث عشر . آيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

(٨) عن : الحصاد المر .. لسامى هــداوى ٣٦ . وانظر كذلك د. حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين : ٣٦ وما بعــدها .

وقد حسم العهد القـــديم(٩) هـــذه المسألة مبينا أن المقصود بنسل ابراهيم اسحق واسماعيل ومن يخرج من صلبهما ، كما يظهر من هـــذه الآيات الخمس :

ـــ ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لابراهيم يمزح .

ـــ فقالت لابراهيم اطرد هـــذه الجارية وابنها لأن ابن هـــذه الجارية لا يرث مـــع ابنى اســـحق .

ـــ فقبح الكلام جـــدا فى عينى ابراهيم ابنه .

ـــ فقال الله لابراهيم : لا يقبح فى عينك من أجل الغلام ، ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه باسحق يدعى لك نسل .

ـــ وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك .

والواقع التاريخى ـــ فى المـــاضى والحاضر يقطع بأن الوعـــد الـــذى تحمله الآية ١ من الاصحاح ١٣ من سفر التكوين بجعل نسل ابراهيم كالتراب كثرة لا يمكن أن يصـــدق على اليهود الذين ما زالوا يمثلون فى وقتنا الحاضر أقـــل نسبة عـــددية بالنظـــر الى معتنقى الدينين السماويين الآخـــرين : المسيحية والاســـلام .

* * *

وآخر سمات الاستعمار الصهيونى ـــ وربما كان هـــذا من العـــوامل الأساسية لنجاحه نجاحا لم يكتب لغيره من الألوان الاستعمارية الأخرى ـــ انه « استعمار مبرمج » ان صح هـــذا التعبير ، أو بتعبير آخر : كان وراءه عقليات خططت له تخطيطا علميا دقيقا يعتمد على الأناة وتعمق الواقـــع ،

---

(٩) سفر التكوين ٩ ـ ١٢ .

واستثمار الأحـــداث الى أبعـــد مدى فى سبيل الاستيطان الدائم وانشاء الدولة الاسرائيلية فى أرض الميعاد(١٠) .

ولم تكن المسألة مجرد تخطيطات نظرية بل صحبتها جهود دائبة لا تنقطع على مستوى العالم كله ، منها الظاهر ، ومنها الخفى . وكان أبرز من تولى كبر تنفيذ هـــذه المخططات « تيودور هرتزل » الذى « يعتبر المؤسس الحقيقى للصهيونية السياسية الحـــديثة ، واليه يعود الفضل فى انشاء المنظمـــــة الصهيونية العالمية ، لقـــد كرس العقـــد الأخير من عمره داعيا الى تنظيم المجتمعات اليهودية ، والتنسيق فيما بينها تحت راية هـــذه المنظمة ، كما قام بدور رئيسى فى ابراز الصهيونية على مسرح السياسة العالمية ، حيث أخـــذت الدول الكبرى تبحث فى امكانية التعامل معها كحليف يمكنها استخدامه فى دعم مصالحها الاستعمارية »(١١) .

---

(١٠) انظر « بروتوكولات شيوخ صهيون (ترجمة محمد خليفة التونسى . وقـد ترجم الكتاب الى أغلب لغـات العالم) وهـو يبرز كيف أن الأطماع الصهيونية لا تقف عند حـد ، وقـد وضعوا المخططات المرحلية لتحقيق هـذه الأهـداف ولـو أدى ذلك الى تدمير العـــالم والقيم الانسانية والدينية ، وقـد بذل الصهيونيون مجهودات طائلة لعـدم نشر الكتـــــاب وانتشاره ، ولكن مجهوداتهم باءت كلها بالاخفاق ، وانتشر الكتاب فى كل أنحاء العالم ، وترجم الى عـدة لغات منها العربية كما المحت آنفا .

(١١) د. أمين عبد الله محمود : مشاريع الاستيطان اليهودى ١٤٣ .

وللحق كان هناك من رءوس اليهود من يعارض بشدة الفكرة الصهيونية ، وفكرة انشاء وطن قـومى لليهود فى فلسطين ، ومن هؤلاء الحاخام الأكبر « هيرمن أدلر » رئيس حاخامى انجلترا ، وقـد عبر عن معارضته بقوله « لقـد انتهى وجـودنا القـومى بعـد سقوط فلسطين فى أيدى الرومان ، وأصبحنا مواطنى البلاد التى نعيش فيها ، فنحن ننتمى الى القـــــومية البريطانية أو الفرنسية أو الألمـانية رغم تبعيتنا للدين اليهودى ... وان سئلت ما هـــو المحتوى السياسى لليهودية لأجبت بأن اليهودية هى مجرد دين ، وليس لهـــــا أى محتوى ســـياسى ... » .

[أنظر : أبو مازن : الصهيونية بداية ونهاية ٤٨] . كما كان هناك كتاب ومفكرون يهود منصفون مثل الكاتب الأمريكى اليهودى الشهير : موشى مينوهين الذى كتب يقول « كيف أتعاون مع زعماء صهيونيين والحقيقة المرة تواجهنى باستمرار ولمـاذا نرغم العرب على دفـع ثمن جرائم أوروبا من بلادهم وشعوبهم ؟ نحن نمجـد أعمالنا البربرية بدلا من أن نزيل الشر الذى ارتكبناه ... » أنظر : أحمد عباس : القـدس ١٤٨ .

وكانت أول خطوة عملية جادة هى عقـد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل بسويسرا بين ٢٩ ــ ٣١ من أغسطس عام ١٨٩٧ . وقـد حضره ٢٠٤ مندوبين من مختلف الهيئات والمنظمات والجمعيات الصـهيونية العـالمية(١٢) .

وجاء تحـديد المؤتمر لهـدف الصهيونية الذى كانت تسعى لتحقيقه على النحو التالى « ان غاية الصهيونية هى انشاء وطن قـومى لليهود فى فلسطين يحظى باعتراف دول العالم ، ويضمنه القانون الدولى »(١٣) .

ولانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين اقر المؤتمر الصهيونى بنـود برنامج بازل على النحو التالى :

١ ــ تطوير أرض فلسطين ، وتشجيع استيطان العمـال انزراعيين والصناعيين والحرفيين والمهنيين اليهود .

٢ ــ تنظيم اليهودية العالمية وتجميعها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة فى كل بلد .

٣ ــ تقوية الشعور القومى اليهودى ، والهوية القومية اليهودية .

٤ ــ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة الحكومات حيث يكون ذلك ضروريا لتحقيق هـدف الصهيونية(١٤) .

وبدأت جهود هرتزل دائبة مكثفة فى سبيل انشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وتركزت جهوده هـذه فى الاتصال برؤساء الدول وقياداتهـا السياسية لاقناعهم بالمساعدة الجادة لليهود فى تحقيق أهـدافهم وانشاء وطنهم القومى فى فلسطين ، ومن هؤلاء المستشار الألمـانى « بسمارك » ، كما قابل القيصر الألمـانى فى الاستانة عام ١٨٩٨ واقتنع القيصر بما عرضه

(١٢) د. أمين عبد الله محمود : مشاريع الاستيطان اليهودى ١٥٤ .
(١٣) السابق : نفس الصفحة .
(١٤) السـابق ١٥٥ .

عليه هرتزل ، وحاول القيصر اقناع السلطان عبد الحميد الثانى فى لقائه معه بتوطين اليهود فى فلسطين ، ولكنه رفض ذلك رفضا قاطعا .

كما التقى هرتزل بالسلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٩٠١ ، وداوم الاتصال بعد ذلك ببعض المسئولين العثمانيين ، ولكنه لم يجد من كل هؤلاء ما يوحى بالاستجابة لمطالبه أو لبعضها ، فلجأ الى وسيلة خبيثة وهى اثارة أهمية الدور الذى ادعى أن بامكان المستوطنين اليهود فى فلسطين القيام به لحماية الدولة العثمانية من « خطر » الحركة العربية التى كانت تهدد باعلان الثورة والانفصال عن جسم هذه الدولة(١٥) .

وكذلك رفض عبد الحميد عروض هرتزل باستعداد اليهود لتسديد ديون الدولة العلية ، فأبلغه السلطان أكثر من مرة « ... انى لا أستطيع التخلى عن شبر واحد من فلسطين حتى مقابل الملايين »(١٦) .

ومضى هرتزل يتصل بالمسئولين فى بريطانيا وروسيا القيصرية « وعلى الرغم من أن المساعى الرامية لتحقيق استيطان يهودى فى فلسطين فى عهد هرتزل لم تكلل بالنجاح الا أن نشاطه المتواصل فى المجال الدبلوماسى انتزع للمنظمة الصهيونية « اعترافا ضمنيا » من أكثر حكومات العالم ، بالاضافة الى أنه خلق من « المسألة اليهودية » قضية عالمية أصبحت مثار اهتمام كثير من الحكومات والدول »(١٧) .

وكانت جهوده بذلك خطوات عملية تمهيدية لتحقيق الهدف الذى كافح من أجله ، ولم يكتب له النجاح فى حياته ، وتبقى أصول المبادىء والتقاليد الصهيونية مدينة فى وجودها لفكر هارتزل الاستعمارى العنصرى(١٨) .

---

(١٥) أنظر السابق ١٧١ . وانظر كذلك الدكتور ضياء الدين الريس مقالا بعنوان « كارثة فلسطين » مجلة المسلمون العدد ٣ السنة الثالثة .

(١٦) د. أمين عبد الله : السابق ١٧٣ .

(١٧) السابق ١٨٠ .

ZIONISM, IMPERIALISM and RACISM p. 20

وتمضى الأحـــداث لاهثة ، وتتوالى الهزائم على ألمـــانيا وحليفتها تركيا فى الحرب العالمية الأولى ، ويعقد اتفاق « سيكس ــ بيكو » المشهور بين بريطانيا وفرنسا فى مايو ١٩١٦ ، وهـــو الاتفاق الذى قسمت فيه دول الوطن العربى بين فرنسا وانجلترا ، وكانت فلسطين من نصيب الأخيرة .

ثم تظفر الصهيونية بوعـــد بلفـــور فى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ ، وهـــو الوعـــد الذى ينص على أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل تحقيق هـــذه الغاية(١٩) .

واحتلت بريطانيا القـــدس بقيادة اللنبى فى ٩ من ديسمبر سنة ١٩١٧ ، وجعلت منها مقرا للحاكم العسكرى البريطانى .

* * *

وكان وعـــد بلفور لطمة عاتية للشعب الفلسطينى وأمانيه القومية ، لذلك هب شعراء فلسطين يندون بهـــذا الوعـــد الغاشم الذى أبان فى وضوح عن النوايا السيئة للانجليز . يقول الشاعر محيى الدين الحاج :

كم كان وعـــدك يا بلفـــور مشامة ... اعوذ بالله من شـــؤم المواعيد
دون البلاد وتهـــويد البـــلاد كما ... يرون عزم أباة غـــير مردود
وأمة وثبت تحمى حقيقتهـــــا ... فى ذا الوجود ولا ترضى بموعـــود
فالله يشـــهد والتاريخ مرتقب ... فيه الصحائف من بيض ومن سود(٢٠)

ويقول ابراهيم طوقان فى هـــذه المناسبة مخاطبـــا حكومة الانتـــداب بشعر يقطر سخرية مرة :

---

(١٩) أحمد عطية الله : القاموس السياسى ١٠٩٢ ، وانظر كذلك مشاريع الاســـتيطان اليهـــودى ٢٧٠ .

(٢٠) عن د. ناصر الدين الأسد : الاتجاهات الأدبية فى فلسطين والاردن ١٠١ .

قـد شهدنا لعهدكم بالعـدالة ... وختمنا لجنـدكم بالبسـاله
وعرفنا بكم صـديقا وفيـا ... كيف ننسى انتدابه واحتـلاله
وخجلنا من لطفكم يوم قلتم ... وعـد بلفور نافـذ لا محاله
كل افضـالكم على الرأس والعـين وليست فى حاجـة لدلالـه
ولئن ساء حالنـا فانفـانا ... انكم عنـدنا بأحسن حاله
غير أن الطريق طالت علينـا ... وعليكم فما لنـا والاطالـه
أجـلاء عن البـلاد تريدو ... ن فنجلـو أم محقنا والازالة(٢١)

وتلح هـذه الذكرى بكآبتها على وجـدان الشعب الفلسطينى ، وبعد عشرين عاما من هـذا اليوم الكالح المنكود يقول الشاعر مطلق عبد الخالق (١٩١٠ ــ ١٩٣٧) :

عشرون عاما قد مضين ولم تكن ... يا يوم الا ريبـة المرتاب
او لست ذا وجهين وجـه باسم ... لهم ووجـه بارز الأنيـاب
دخلـوا بلادك فاتحـين فصنتهم ... وأنقتنا يا يوم مر عـذاب
ما انشام الدنيا وذكرك حافـل ... بفواجـع الأثلاء والأسلاب(٢٢)

* * *

وفى ٣ من فبراير سنة ١٩١٩ تقـدم وفـد صهيونى الى مؤتمر الصلح بباريس بمطالب تضمنت الاعتراف بالحـق التاريخى لليهود فى فلسطين ، واقامة وطن لهم فيها ، وتقرير حـدود معينة لفلسطين تشمل جنوب لبنان والاردن والعقبة مع وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى .

وفى ٢٥ من أبريل سنة ١٩٢٠ قرر مجلس الحلفاء الأعلى وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وبدأ التنفيذ العملى له فى ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٢٣ . وجاء فى المـادة الثانية من صك الانتداب :

---

(٢١) ديوان ابراهيم طـوقان ٨٢ ، وانظر قصيدة طـويلة بعنوان « وعـد بلفور » لعبد الرحيم محمود فى ديوانه ١٣٦ . وانظر شعرا فى نفس المناسبة للشاعر ابراهيم الدباغ أورده السوافيرى ص ٢٠٤ من كتابه عن الشعر الحـديث فى ماساة فلسطين .

(٢٢) عن ناصر الدين الأسـد : السابق ١٧٠ .

« تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البـــلاد فى أحـــوال سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القـــومى اليهـــودى ، كما تضمن الاعتراف بقيام وكالة يهودية تكون بمثابة حكومة يهودية داخـــل حكومة الانتـــداب » .

وكانت أول حكومة للانتداب برياسة الوزير « هربرت صمويل » ، وقد حرصت حكومته على تنفيذ المخطط الصهيونى الذى تضمن اعتبار العبرية لغة رسمية ثالثة ، وتيسير نقل ملكية الأرض الى اليهود ، وتسهيل الهجرة اليهودية فى ظـــل القانون(٢٣) .

وكان صمويل يرى أن النفوذ الانجليزى يجب عليه أن يقوم بدور مهم فى تأسيس الدولة اليهودية لان وضع فلسطين الجغرافى وقربها من مصر يجعل صداقتها لانجلترا امرا له أهميته للامبراطورية البريطانية ، فضم فلسطين الى الامبراطورية البريطانية مع تشجيع الاستعمار اليهودى والتقدم الثقافى عمليا هـــو أحسن حل(٢٤) .

والذى يقرأ صك الانتداب الذى أقرته عصبة الأمم المتحدة ببنوده الثمانية والعشرين يخرج بانطباع قوى مؤداه أن حكومة الانتداب ما احتلت فلسطين الا لتحقيق مهمة أساسية هى اقامة الدولة الصهيونية ، وكان من أهم البنود ـــ زيادة على ما ذكرناه ـــ النص على أن تسهل حكومة الانتداب هجرة اليهود فى احوال ملائمة ، وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية حشد اليهود فى الأراضى الأميرية والأراضى الموات غير المطلوبة للمقاصـــد العمومية . كما نص على تسهيل اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهـــود الذين يتخـــذون فلسطين مقاما دائما لهم(٢٥) .

* * *

(٢٣) انظر عطية الله : السابق ١٠٩١ ـ ١٠٩٢ .

(٢٤) انظر : الوثائق الرسمية فى قضية فلسطين ٧٤ (الجامعة العربية . القاهرة ١٩٥٧) .

(٢٥) انظر : عطية الله : السابق ١٠٩٤ .

وبدأت موجات عاتية من الهجرة اليهودية ، وكان واضحا أن الهـدف من تهجير اليهود الى فلسطين بأعـداد كبيرة خلق تفـوق عـددى على عدد الفلسطينيين العرب ، فاذا ما دعم بالمـال والسلاح والعلم ووسائل العمل تحقق معه تفـوق كيفى ، وكل أولئك لانشاء دولة اسرائيل التى خطط لانشائها من عشرات السنين ، والتى سعى هرتزل والقوى الامبريالية العالمية لخلقها . ولغة الأرقام تقول : فى عام ١٩١٤ كان مجموع سكان فلسطين ٦٨٩ ألفـا بينهم ٨٤ الفـ يهودى ، وفى عام ١٩٢٥ بلغ مجموع السكان ٧٦٢ ألفا بينهم ١٥٧ الفـ يهودى . وفى نهاية عام ١٩٣١ بلغ مجموع لايهود ١٧٥ ألف يهودى . وهـذا العـدد يمثل ١٧٪ من عـدد السكان .

وظلت الهجرة اليهودية بطرقها المشروعة وغير المشروعة تغرق فلسطين حتى اصبح عـدد اليهود المسجل رسميا فى فلسطين حتى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ نحـو ٦٥٠ الفـ مهاجر ، وبذلك تضاعف عـددهم ١٣ ضـعفا ، وارتفعت نسبتهم الى مجموع سكان البلاد من ٦٪سنة١٩١٨ الى ٣٣٪سنة١٩٤٨(٢٦) .

* * *

ويرفع الشاعر ابراهيم طوقان صوته فاضحا هـذه الهجرة الآثمة التى تهدد فلسطين بالضياع فى قصيدة له بعنوان (١٠٠٠) يقول فيها :

---

(٢٦) Zionism, & Arabism p.76 . وعطيه الله : القاموس السياسى ١٠٩١ ، والسوافيرى : الشعر العربى فى مأساة فلسطين ١٠٢ . وانظر احصائية مفصلة لعـدد اليهود فى فلسطين من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩٢٢ ، فقـد ارتفع على مدى اربعين عاما من ٢٤ الفا الى ٨٣ الفا فقط ، وهـو رقم متواضع اذا قيس بالأرقام التى تلت هـذا العـام بعـد الهجرات المطردة اذ بلغ عـدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ٩٩٨٠٦ خلال عشر سنين (من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٩) ، وفى خلال عشر سنوات أخرى (١٩٣٧ ـ ١٩٤٦) بلغ عـدد المهـاجرين اليهـود ١٢٢٧٩٦ .

[أنظر وثائق الخارجية البريطانية الوثيقة رقم ٥٣٧١/٦١٩٣١ F عن مجلة العالم العـدد ٧٨ ـ ١٠ اغسطس ١٩٨٥ . والعـدد ٨١ ـ ٣١ اغسطس ١٩٨٥] واقرأ احصائية أكثر تفصيلا لعـدد المسلمين واليهود والمسيحيين والديانات الأخرى فى فلسطين من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٤٤ . ص ٤٤ ، ٤٥ من The Palestine Diary vol. Two.

يهـــاجر ألف ثم ألف مهربا ... ويدخل ألف سائحا غير آيب
وألف جـــواز ثم ألف وســـيلة ... لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفى البحر آلاف كأن عبـــابه ... وامواجه مشحونة فى المراكب(٢٧)

ويرى أن الانجليز هم أصل النكبة ، وأن حكومة الانتداب وراء هـــذه الهجرات العاتية فيخاطبهم بقوله :

منذ احتللتم وشؤم العيش يرهقنا ... فقرا وجـــورا واتعاسا وافسادا
بفضلكم قد طغى طوفان هجرتهم ... وكان « وعـــــدا » تلقيناه ايعادا
واليوم من شؤمكم نبلى بكارثة ... هذا هو الطين والماء الذى زادا(٢٨)

ومع استقرار اليهود بهـــذه الأعـــداد الهائلة فى فلسطين أخـــذوا يبتاعون الأرض على نطاق واسع ، ففى عام ١٩١٨ مثلا لم يكن اليهـــود يملكون الا اثنين فى المـــائة من مجموع مساحة الأرض . ثم ابتاعوا خـــلال السنوات الثلاثين التالية اراض أخرى ، فارتفعت هـــذه النسبة الى ٦٧ر٥٪ من مجموع أراضى فلسطين . ويظهر أن هـــذه النسبة أكثر تواضعا من الواقع ، لان حكومة الانتداب قـــدرت عام ١٩٤٦ انه كان لدى اليهود ١٥٪ من أراضى فلسطين الصالحة للزراعة(٢٩) .

ووقف الشعر يندد بهؤلاء الذين يفرطون فى أرضهم بالبيع ، ويضم سماسرة بيع الأراضى بالخيانة ، ومن الشعراء الذين الحـــوا على هـــذا المعنى وأطالوا القول فيه « ابراهيم طوقان » ـــ رحمـــه الله ـــ الذى كان « يحس أن وطنه يباع ، فيصب نقمته على عصبة السماسرة الذين كانوا يغرون الناس ببيع أرضهم ، وعلى البائعين مذكرا اياهم بأبنائهم الذين

---

(٢٧) ديوان ابراهيم طوقان ٨٥ .
(٢٨) ديوان ابراهيم طوقان ٩١ .
وقد نظم الشاعر القصيدة التى منها هذه الأبيات سنة ١٩٣٥ بمناسبة الطوفان الذى طغى على مدينة طرابلس وضواحيها .
(٢٩) أنظر بتفصيل أكثر الصفحات ٧٨ ـ ٨١ من كتاب « الحصاد المر » .

سوف يتحولون الى اجراء بعد أن كانوا ملاكا ، ناصحا اياهم أن يبقوا باعا من أرضهم لقبورهم »(٣٠) يقول ابراهيم طوقان :

باعوا البلاد الى أعدائهم طمعا ... بالمال لكنما أوطانهم باعوا
قد يعذرون لو ان الجوع أرغمهم ... والله ما عطشوا يوما ولا جاعوا
أعداؤنا منذ أن كانوا صيارفة ... ونحن منذ هبطنا الأرض زراع
لم تعكسوا آية الخلاق بل رجعت ... الى اليهود بكم قربى واطباع
يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة ... ولا تعلمت أن الخصم خداع
لقد جنيت على الأحفاد والهفى ... وهم عبيد وخدام وأتباع
وغرك الذهب اللماع تحرزه ... ان السراب كما تدريه لماع
فكر بموتك فى ارض نشأت بها ... واترك لقبرك ارضا طولها باع(٣١)

لقد كان الاحساس شديدا وفادحا بالجناية التى يجنيها على الوطن باعة الأرض لليهود والسماسرة الذين تجردوا من شرف الدين والوطنية حتى أن عبد الكريم الكرمى يرى أن جناية هؤلاء لا تقل بشاعة عن جناية الأعداء من الانجليز والصهاينة ، فيخاطب وطنه بصوت مفجوع ، وقلب محطوم :

وطنى انت بقايا أمل ... خضبته عبرات من فؤادى
ما الذى جرح جنبيك أجب ... كيد ابنائك أم كيد الأعادى(٣٢)

بل انه ليرى أن جريمة المفرطين المنتسبين الى الوطن أشد وانكى من جريمة الأعداء الصرحاء ، ويحملهم مسئولية ضياع الوطن ، فيقول مخاطبا فلسطين :

---

(٣٠) د. ماهر حسن فهمى : الحنين والغربة فى الشعر العربى الحديث ٧٧ .

(٣١) ديوان ابراهيم طوقان ٥٤ . وانظر قصيدة « السماسرة » ٨٤ ، وقصيدة « لمن الربيع » ٨٧ . وقصيدة « نعمة » ٩٢ .

(٣٢) أبو سلمى : ديوان ابى سلمى (الأعمال الكاملة) ٣٦ .

لا تســـألى المســـــتعمرين بل أسألى أهل الديار(٣٣)

وهو نفس المعنى الذى ألح عليه عبد الرحيم محمود ، نيقول :

انا بأيدينـــا جرحنـــا قلبنـــا وبنا الينا جـــاءت الآلام(٣٤)

* * *

ومع وقوف حكومة الانتداب ضـــد عرب فلسطين وتحيزها الواضح لليهود بدأ اليهود يسلحون أنفسهم على نطاق واسع ، وينظمون صفوفهم ، وتمخض عن ذلك تكوين ثلاث عصابات ارتكبت من الجرائم ما يندى لـــه التاريخ ، وهـــذه العصابات هي : الهاجاناه والأرجـــون تسفاى ليومى وشتيرن . وتعتبر الهاجاناة المنظمة الأم التى انشقت عنها الأرجـــون فى عـــام ١٩٣٥ ، كما انشقت عصابة شتيرن بدورها عن الأرجـــون عـــام ١٩٣٩(٣٥) .

وكما استغلت الصهيونية الحـــديثة الناحيـــة العقائدية لدى اليهود ، استغلت أيضا الاضطهاد الدينى والاجتماعى والعنصرى الذى تعرض له اليهود فى المجتمعات الأوروبية ، فكانت دعوتها الى انشاء دولة يهودية تقوم أساسا على ضرورة تخليص اليهود من الاضطهاد(٣٦) . فاستطاع اليهود ببراعة فائقة أن يستثمروا ـــ على مستوى عالمى واسع المدى ـــ السياسة النـــازية الحمقاء بعـــد أن تولى هتلر رياسة الحكومة الألمـــانية فى ٣٠ من يناير سنة ١٩٣٣ ، واتخـــذ النازيون اجراءات تعسفية ، وأصـــدروا قوانين عنصرية مجحفة منها ما عرف « بقوانين نيرنبرغ » التى كانت عبارة عن قانونين : أولهما قانون الجنسية الذى أسقط باختصار جنسية الرايخ عن المواطنين اليهود الألمـــان ، أما القانون الثانى ـــ وهـــو قانون المحافظة على الـــدم

---

(٣٣) السـابق ٤٨ .

(٣٤) ديوان عبد الرحيم محمود ١٤٢ .

(٣٥) انظر « الحصاد المر » من ص ٩١ الى ص ١٠٣ .

(٣٦) د. الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ١٩ .

الالمـــانى والشرف الألمـــانى ـــ فقـــد نص على منع اليهود من الزواج من غير اليهود ، أو رفع العلم الألمـــانى ، أو استخدام خادمات المـــانيات يقل عمرهن عن ٤٥ سنة ... ثم نشرت نحو ١٣ مجموعة من الأنظمة المختلفة منع بموجبها اليهود من العمل فى اية مهنة أو منصب رسمى تقريبا ، كذلك طبع حرف J للدلالة على كونهم يهودا فى بطاقات هويتهم ، ثم أجبروا على وضع نجمة داود السداسية بلون أصفر على أماكن عملهم ومؤسساتهم وحـــــوانيتهم(٣٧) .

واتجه صهاينة فلسطين الى الافادة من هـــذه الاجراءات واستغلالها لتكون بركة للصهيونية ، وهذا ما تم فعلا ، فلم يكتف الصهيونيون بالانضمام الى حملات الاحتجاج والاستنكار التى نظمها اليهود فى أماكن مختلفة من العالم ضـــد الممارسات النازية وذلك بعقد اجتماعات احتجاج خاصة بهم فى تل ابيب أو التبرع لمساعدة يهود المـــانيا ، بل راحوا يعـــدون العـــدة ايضا لاستيعاب أولئك اليهود فى فلسطين ، ففى ٢٦ نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٣ قرر المجلس المـــلى اليهودى العمل على وضع مشروع استيطانى كبير لاستيعاب يهـــود ألمـــانيا فى فلسطين(٣٨) .

* * *

وهكذا قامت اسرائيل على أيديولوجية تعتمد على المغالطات ، وانكار الحقائق التاريخية الثابتة ، وهكذا نشأت اسرائيل متبعة أساليب الخـــداع والنهب والارهاب ، وكان هـــذا هـــو « الجانب الجانى أو العـــدوانى » من القضية ... قضية فلسطين ... أو قضية العصر التى ما زالت تمثل جرحا غائرا نازفا لا فى جسم الأمة العربية فحسب ، بل فى كيـــان المبادىء والقيم الانســـــانية .

* * *

(٣٧) مجلة شئون فلسطينية : مارس ـ ابريل ١٩٨٥ العددان ١٤٤ ـ ١٤٥ ص ٨٠ من مقال لصبرى جريس بعنوان : السنوات الخمس السمان فى تاريخ الوطن القومى اليهودى فى فلسطين (١٩٣١ ـ ١٩٣٦) .

(٣٨) أنظر السابق ٨١ .

ومن حقنا بعـــد هـــذه المسيرة التى طالت بعض الشىء أن نقف وقفة متأنية أمام وضع « أصحاب القضية » ... أصحاب الأرض والحق والتاريخ . وهم « الجانب الضحية أو المجنى عليه » ، لنرى مواقفهم فى مواجهة المعتدين الغـــاصبين .

وحتى نستطيع أن نقيم هـــذه المواقف والوقائع تقييمها الصحيح يجب أن يكون نصب عيوننا دائما أن أهـــل فلسطين لم يكونوا يواجهون عـــدوا واحـــدا مباشرا يتمثـــل فى اليهـــود الذين استقروا فى فلسطين وعصاباتهم المسلحة ، بل كانوا يواجهون كذلك حكومة الانتداب الانجليزى .. وفى ذلك يقول ابراهيم طـــوقان :

لنا خصمان : ذو حـــول وطـــول وآخر ذو احتيال واقتنـــــاص
تواصـــــوا بينهم فأتى وبالا واذلالا لنـــا ذاك التـــــواصى
مناهـــج للابادة واضـــــحات وبالحسنى تنفذ والرصاص(٣٩)

ووراء هـــذين الخصمين كانت الامبريالية والصهيونية العالمية بامكاناتها الهائلة . كما كان من العوامل التى أضرت بالقضـــية الفلسطينية سلـــبيات الحكومات العربية والاسلامية ، فقـــد تعاملت مع هـــذه القضية تعـــــامل المتفرج ، فلما أرادت هـــذه الحكومات أن تكسر جدار السلبية وقعت فى أخطاء فادحة أودت بالأرض الفلسطينية ، وشردت أهلها ، ومكنت اليهود من أن يكونوا القـــوة الضاربة العاتية فى الشرق الأوسط .

وتحت وطـــأة ظروف قاسية .. بالغة القسوة أخذ الكفاح الفلسطينى صورا متعـــددة يمكن أن نوجزها فيما يأتى :

- المؤتمرات والاجتماعات العامة ، أو ما يمكن أن نسميه بالنشاط السياسى .
- الكفاح المسلح : وكان له صورتان : الأولى هى الكفاح المسلح العفـــوى أو العام ، والثانية هى الكفاح المسلح التنظيمى .

---

(٣٩) ديوان ابراهيم طوقان ٩٣ .

● النضال بالكلمة الشاعرة متفاعلة مع الأحداث ، معبرة عن آلام الشعب ، نابضـــة بأمانيه .

وكل أولئك يحتاج الى شيء من التفصيل :

كانت الاجتماعات والمؤتمرات العامة هى باكورة الكفاح ، أو بتعبير أدق « الخطوة العملية للاعـــداد للكفاح » . وأهم هـــذه المؤتمرات الباكرة :

١ — مؤتمر القدس فى مارس سنة ١٩١٩ .
٢ — مؤتمر حيفا فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ .
٣ — مؤتمر القدس فى يونيه سنة ١٩٢١ .
٤ — مؤتمر نابلس فى أغسطس سنة ١٩٢٢ .
٥ — مؤتمر يافا فى يونيه سنة ١٩٢٣ .
٦ — مؤتمر القدس فى يونيه سنة ١٩٢٨ .
٧ — المؤتمر الاسلامى العالمى فى القدس فى ديسمبر سنة ١٩٣١ .
٨ — مؤتمر يافا فى مارس سنة ١٩٣٣(٤٠) .

وكان عقد هـــذه المؤتمرات يرتبط — فى الغالب — بأحـــداث ووقائع تنال من حقوق الشعب الفلسطينى يرتكبها اليهود وحكومة الانتداب. وتمخضت هـــذه المؤتمرات عن قرارات مختلفة ، كان من اهمها :

١ — رفض وعد بلفور وحكومة الانتداب والهجرة اليهودية .
٢ — مطالبة حكومة الانتداب بانشاء حكومة وطنية مستقلة .
٣ — اختيار وفود فلسطينية للذهـــاب الى لنـــدن لشرح القضـــية الفلســـــطينية .

٤ — وضع ميثاق قـــــومى فلسطينى يلتزم الفلسطينيون به لتحقيق الاستقلال ، ورفض زرع وطن يهودى فى فلسطين ، وتكوين اللجنة التنفيذية العربية برياسة موسى كاظم الحسينى .

---

(٤٠) أنظر مجلة : فلسطين الثورة ص ٣٨ العـدد ٣٣٥ (١٤ من نيسان ١٩٨٠) .

وكان اهم هـــذه المؤتمرات المؤتمر الاسلامى العام الذى عقد فى القدس فى ديسمبر ١٩٣١ ، وقـــد حضره مندوبون من قرابة عشرين دولة عربيـــة واسلامية . وترجع اهمية هـــذا المؤتمر الى أنه خرج بالقضية الفلسطينية من الدائرة المحلية الى المجال العربى والاسلامى ، وكان اهم قرارات المؤتمر : تأسيس جامعة اسلامية فى القدس ، وتأسيس شركة زراعية فى فلسطين لانقاذ أرضها من أن تباع لليهود ، واستنكار الهجرة اليهودية ، ومقاطعـــــة المصنوعات الصهيونية فى البلاد الاسلامية .

وتطور النشاط السياسى الى انشاء أحزاب دائمة ، وخصوصا بعـــد أن دعت « اللجنة التنفيذية » العربية فى فلسطين فى أحـــد اجتماعاتها الى « تأليف أحزاب وطنية متجانسة » فظهر على الساحة الفلسطينية الأحزاب التاليـــــة :

١ ــ حزب الاستقلال وأسس فى أغسطس سنة ١٩٣٢ .
٢ ــ حزب الدفاع الوطنى أو حزب المعارضين فى ديسمبر سنة ١٩٣٤ .
٣ ــ الحزب العربى الفلسطينى فى ابريل سنة ١٩٣٥ .
٤ ــ حزب مؤتمر الشباب فى مايو سنة ١٩٣٥ .
٥ ــ حزب الاصـــلاح فى يونيه سنة ١٩٣٥ .
٦ ــ حزب الكتلة الوطنية فى أكتوبر سنة ١٩٣٥(٤١) .

ويكاد يكون جـــوهر برامج هـــذه الأحزاب هـــو التعبير عن أمانى الشعب الفلسطينى ، والكفاح من اجـــل استقلاله ، والتصدى للصهيونية وحكومة الانتداب .

ولنجتزىء بعرض المبادىء الرئيسية لواحـــد من هـــذه الأحزاب وهو « الحزب العربى » وكان هـــو وحزب الدفاع يمثلان أكبر الأحزاب الفلسطينية وأظهرها . كان قسم أعضاء الحزب « الحرية حقى ، والاستقلال غايتى ، والعربية مبدئى ، فلسطين وطنى ، وليس لغير العربية فيها مقام .... » .

---

(٤١) الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ٥٧٩ .

وكانت للحزب غايات استقلالية وقومية فى مواجهة الانتداب والصهيونية، وقد حدد القانون الداخلى للحزب هذه الغايات فيما يلى :

(أ)استقلال فلسطين ورفع الانتداب .
(ب) المحافظة على عروبة فلسطين ، ومقاومة تأسيس وطن قومى لليهود .
(جـ) ارتباط فلسطين بالأقطار العربية فى وحدة قومية سياسية مستقلة استقلالا تاما(٤٢) .

وواضح أن عدد هذه الأحزاب يعد كبيرا بالنسبة لعدد السكان . كما أنها لم يكن لها من الفعالية ما كان ينتظر منها فى هذه الظروف القاسية التى تمر بفلسطين . ولكن هذه الحقيقة لا تغمط حقها فى تنبيه وعى الجماهير ، واثارة حماستها ، وتوجيهها ــ بطريقة مباشرة وغير مباشرة ــ الى الكفاح فى سبيل تخليص الأرض ، والحيلولة دون انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

ولعل السقطة الكبرى لهذه الأحزاب تتمثل فى الخلافات الطاحنة والصراعات الخفية والظاهرة بينها ، وهى خلافات غذتها صراعات أسرية عميقة(٤٣) وفى ذلك يقول ابراهيم طوقان :

بنى وطنى هل يقظة بعد رقدة وهل من شعاع بين تلك الغياهب

---

(٤٢) جمال قدورة « تأسيس الحزب العربى وبقية الأحزاب العربية فى الثلاثينات » ص ٣٨ من مجلة شئون فلسطينية : مارس ــ ابريل ١٩٨٥ .

وأنظر كذلك السوافيرى : الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين من ص ١٣٥ الى ص ١٥١ . وأنظر الخولى السابق ٥٧٨ ــ ٥٧٩ .

(٤٣) وعلى سبيل التمثيل كانت الخلافات بين حزبى العربى والدفاع تغذيها صراعات عميقة بين أسرتى الحسينى والنشاشيبى ، فقد كان الحاج أمين الحسينى هو الرئيس الروحى للحزب الأول ، وكان راغب انشاشيبى هو رئيس حزب الدفاع .

[أنظر فى ذلك مقالا عن الأحزاب الفلسطينية بقلم « جمال قدورة » من ص ٣٥ الى ص ٥٣ من مجلة : شئون فلسطينية مارس ــ ابريل ١٩٨٥ .

فو الله ما أدرى وللناس هبـــــة أنادى«أمينا»أم أهيب «براغب»(٤٤)

واذا كان شعراء فلسطين قـــد أخـــذوا ينددون بمثل هـــذه الصراعات وتلك الخلافات الحزبية العقيمة ، فقـــد نهض هـــؤلاء الشعراء مسلموهم ونصاراهم — يشيدون بتماسك العنصرين وتوحـــدهما فى مواجهة العـــدو الصهيونى ، مما نجـــد صداه فى أبيات الشاعر المسيحى اسكندر الخـــورى البيتجالى يخاطب بها القـــدس .

بلد السلام وليس فيـــك ســـلام منى اليك تحيـــــة وســـلام
أنا ان نأيت وان أقمـــــت فاننى لك مخلص ما لى سواك مقام
تفديك نصرانيتى ويقيـــــك من غـــدر الزمان وكيده الاســـلام
دينان أسهما العروبة قبلمـــا كانت قساوســـة وكان امام(٤٥)

* * *

أما اســـتخدام القـــوة : بحـــدها الأدنى الذى يتمثـــل فى الاضرابات والمظاهرات ، وحـــدها الأعلى الذى يتمثل فى استخدام السلاح فقـــد اخـــذ من ناحية الشكل صورتين :

الصورة الأولى : الكفاح العفوى أو التلقائى .
والصورة الثانية : الكفاح المسلح التنظيمى .

وأعنى بالأول تلك الحركات الجماهيرية العنيفة التى كانت صدى او رد فعل لأحـــداث ووقائع هزت مشاعر الجماهير ، وادمت أحاسيسهم ، وأشعرتهم بظلم فادح واحجاف اليم يقع بوطنهم .

ومن أمثلة ذلك ما حـــدث سنة ١٩٢١ من هجوم فلسطينيين على بعض المستعمرات اليهودية ، وخصوصا تلك التى تقع بين يافا وطولكرم ، وصرع

---

(٤٤) ديوان ابراهيم طـوقان ٨٥ .
(٤٥) الأسـد : محاضرات فى الشعر الحـديث فى فلسطين والاردن ٥٣ .

وجرح فيها قرابة مائتى يهودى ، مقابل مائة وخمسة وعشرين عربيـــا ، وكان ذلك ردا على تجمهر اليهود واتجاههم الى يافا للاعتداء على العرب .

وكان من أهم الأحـــداث التى هزت مشاعر العرب والمسلمين وفجرت ثورة الغضب فى نفوس الفلسطينيين هـــو ما يسمى « بحادث البراق » اذ حاول اليهود الاعتداء على مواقع البراق من المسجد الأقصى ، وهـــو الموقع الذى يقال ان البراق قـــد نزل به ليـــلة الاسراء ، ممـــا أثار مشاعر الفلسطينيين ، كان ذلك فى مساء ٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٢٨ ... مما دفع الفلسطينيين الى التصـــدى لليهود ، وتوالت الصدامات الدامية بين العرب واليهود ، وكان أشـــدها ما وقع فى أغسطس سنة ١٩٢٩ ، وسقط فيهـــا مئات من القتلى ، وأضعافهم من الجرحى .

وبدأت المحاكمات ونفـــذ حكم الاعـــدام صبيحة الثلاثاء ١٧ من يونيه سنة ١٩٣٠ فى ثلاثة من الفلسطينيين « فكان أولهم فؤاد حجازى ، وثانيهم محمد جمجوم ، وثالثهم عطا الزير ، وكان من الملقرر رسميا أن يكون الشهيد عطا الزير هـــوالثانى ، ولكن محمد جمجوم حطم قيده ، وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته واعـــدم قبله(٤٦) .

وقـــد صور ابراهيم طوقان هـــذا اليوم المخضب بالدماء أروع تصوير مسجلا فى شعر الوطن الخالد مصارع أولئك الشهداء فكانت قصيدة (الثلاثاء الحمراء)(٤٧) .

وقـــد بلغ ابراهيم طوقان بهـــذه القصيدة شأوا لا يبلغه الا كبـــار الشعراء وعظماؤهم لا فى حرارة الشعور وصدق الانفعال فحسب ، ولكن فى منهج المعالجة ، وبراعة التصوير : فهو لم يرث الشهداء الثلاثة رثاء مباشرا متحـــدثا عن بطولتهم وبطولة أمتهم كما يفعل الشعراء قـــديما وحـــديثا ، انما قـــدم للقصيدة بمقـــدمة طويلة نعى فيها على ظلم المستعمر وخـــداعه وعـــدوانه على القيم الانسانية وسخر من المندوب السامى سخرية مرة .

---

(٤٦) فـدوى طـوقان : أخى ابراهيم ٢٣ من تصـدير لديوان شقيقها ابراهيم طـوقان ، وانظر كذلك ناصر الدين الأسد : الشعر الحـديث فى فلسطين ١٥٥ .

(٤٧) انظر : فـدوى طـوقان . السابق ٢٤ .

ثم جعـــل كل ساعة من الساعات الثلاث تتحـــدث عن صاحبها الذى شنق فيها . فالساعة الأولى التى شنق فيها فؤاد حجازى تقول :

أنا ســـاعة النفس الأبيـــــة الفضـــــل لى بالأســـــبقية
أنا بكر ســـــــــــاعات ثلا ث كلهـــا رمـــز الحميـــة

وتقول الساعة الثانية ، وهى الساعة التى شنق فيها محمد جمجوم :

قســـما بـــروح محمـــــد تلقى الردى حلـــو الـــورود
قســـما بأمـــك عنـــد مو تك وهى تهتـــف بالنشـــيد
وترى العـــزاء عن ابنهـــا فى صـــيته الحسن البعيـــد
ما نال من خـــدم البـــلا د أجـــل من أجـــر الشـــهيد

أما ساعة عطا الزير فتقول :

قســـما بروحـــك يا عطا ء وجنـــة الملك القـــدير
وصـــفارك الأشـــباك تبـــ ـكى الليث بالدمـــع الغزير
ما انقـــذ الوطـــن المفـــدى غـــير صـــبار جســـور

وأنهى القصيدة بخاتمة جاءت طبيعية كأنها « القرار الحاسم » فى نهاية هـــذا العمل الدرامى العظيم(٤٨) .

وفى الذكرى الرابعة لهؤلاء الشعراء ينظم قصيدة « الشهيد » المشهورة التى مطلعها :

عبس الخطـــب فابتســـم وطغى الهـــول فاقتحم(٤٩)

---

(٤٨) انظر القصيدة كلها فى ديوان « ابراهيم طوقان » من ٤٢ ـ ٤٩ .
وانظر كذلك أبياتا رائعة فى رثاء الأبطال الثلاثة نظمها محيى الدين الحـــاج عيسى (ناصر الدين الأسـد . السابق ١٠٠) .
(٤٩) ديوان ابراهيم طوقان ٤٠ .

ولكن القصيدة بنصها لا تشير الى ذلك من قريب أو بعيد ... والشاعر نفسه لم يأبه لهـذا الربط فى نظمه لأبياتها ، فهـذا النمط من الشعر الذى يرتفع من الخاص الضيق الى الجـو العام الشامل ليرفرف فى عالم المثـل يذكرنا بداية المعرى المشهورة التى نظمها فى رثاء أبى حمزة الفقيه ، وتخطى فيها نطاق الفرد ليحلق فى جـو انسانى رحيب ، قوامه فكرة الوجود والعدم ، وفلسفة الحياة والموت فى الكون(٥٠) .

* * *

وقـد ظهر تحيز حكومة الانتداب ضـد الفلسطينيين ، فلم تستجب لموجة الاستعطاف للمندوب السامى من أجـل تخفيف الحكم عن هؤلاء الثلاثة من الاعـدام الى السجن ، والتى تجلت فى برقيات الاستعطاف التى انهالت على المندوب السامى من الهند والحجـاز ومصر واليمـن والعراق ، ومن الجاليات العربية والاسلامية فى امريكا وأوروبا ووراء البحار(٥١) .

هـذا فى الوقت الذى خفف حكم الاعـدام الى السجن عشر سنوات عن شرطى يهـودى كان على رأس جمـاعة اقتحمت منزل امام مسجد فى مدينة يافا ، وقتلوه مع أفراد أسرته الستة ، ومثلوا بجثثهم(٥٢) .

وكانت انتفاضة ١٩٣٣ موجهة ضـد حكومة الانتداب مباشرة بعـد أن ثبت بالدليل القاطع عـدم جـدوى سياسة التعاون التى كان ينادى بها البعض من القيادات الوطنية الفلسطينية ... فأعلن مؤتمر يافا فى مارس ١٩٣٣ سياسة اللاتعاون مع حكومة الانتداب ، وبدأت مظاهرات سلمية ، سرعان ما تحولت الى مظاهرات دامية لمحاولة حكومة الانتداب تفريقهـا بالعنف . وسرعان ما شملت المظاهرات كل المدن الفلسطينية(٥٣) .

ثم كان ما يعرف تاريخيا « بثورة فلسطين الكبرى » سنة ١٩٣٦ ، وقد

---

(٥٠) عمر الدقاق : الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر ٣٨٦ .

(٥١) د. عواطف عبد الرحمن : مصر وفلسطين ٢٤٠ .

(٥٢) أنظر السوافيرى : الشعر العربى الحـديث فى فلسطين ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٥٣) أنظر : مصر وفلسطين ٢٤٨ .

بدأت هـــذه الثورة باضراب عام شمل كل المدن الفلسطينية ومرافق البلاد ، كما امتنع المواطنون عن دفع الضرائب ، ورفع المواطنون السلاح فقتلوا كثيرا من الانجليز واليهود ، ونسفوا اعمدة البرق والهاتف والسكك الحديدية .. .. وبلغت بعض المعارك بين الفلسطينيين والانجليز حـــدا بعيدا من الضراوة والقساوة واتساع النطاق ، مما دفع الطيران الانجليزى الى الاشتراك فى بعض هـــذه المعارك ، واسقط المواطنون بعضها ، مما يدل على ارتفـــاع مستوى المقاتلين الفلسطينيين بعـــد ان كونوا فرقا من الفدائيين ، وتدفقت اعـــداد غير قليلة من الشام والاردن ومصر للاشتراك فى الثورة الفلسطينية .

واستمر العصيان المدنى والكفاح المسلح فى فلسطين على اختلاف فى الدرجة على الرغم من قانون الطوارىء الذى ســـنته حـــكومة الانتـــداب « فاصبح الاعـــدام او السجن المؤبد جزاء لمن يحمل اى نوع من الأســـلحة او بضع رصاصات .. وبلغ عـــدد الذين اعـــدموا شنقا من العرب ١٤٦ ، وعـــدد الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد ٢٠٠٠ ، وعـــدد المنازل والحوانيت التى نسفت وهـــدمت ٢٠٠٠ »(٥٤) .

أما بداية حركة المقاومة الفدائية المنظمة فترتبط تاريخيا باسم « عز الدين القســـــام »(٥٥) .

---

(٥٤) السوافيرى : السابق ١٧٠ .

(٥٥) هـــو محمد عز الدين بن عبد القادر القسام (١٨٨٢ ـ ١٩٣٥) من أسرة كريمة فى جبلة من اعمال اللاذقية ، تعلم فى الأزهر بمصر ، والتقى بالشيخ محمد عبده ، وتأثر به ، واشتغل فى بلده بالتعليم والوعظ ، فلما احتل الفرنسيون ساحل سوريا سنة ١٩١٨ ثار ضدهم فى جماعة من تلاميذه ومريديه ، وطارده الفرنسيون فقصد دمشق ، ثم غادرها سنة ١٩٢٠ بعـد استيلاء الفرنسيين عليها ، واقام فى حيفا اماما لأحـد المساجد ورئيسا لجمعية الشبان المسلمين ، وقـد اتخـذ من كل ذلك منطلقا للدعوة الى الجهاد ، وكون أول جماعة فدائية للقتال ضـد حكومة الانتداب واليهود ، وفى ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٣٥ كان القسام هـو وثمانية من رجاله فى أحـد الكهوف بجانب قرية « يعبد » غرب جنين ، وحاصر البوليس الانجليزى الكهف ، ودعا القسام ورجاله الى الاستسلام ، ولكنه رفض ، وأمر رجاله بالقتال الى النهاية ، وظل القتال ضاريا لأربع ساعات متواصلة الى أن استشهد هـو وثلاثة من رجاله ، وأسر الانجليز البـــاقى .

[أنظر الأعلام للزركلى ٢٦٨/٦ و ZIONISM and ARABISM p. 71.] .

والذى يقرأ تاريخ الرجل يخرج بانطباع صادق يكشف لنا عن مفتاح شخصيته وهو « عشق الجهاد » ، فالجهاد والتطلع اليه لا يقف عند مرحلة واحـــدة فى حياته ، بل ان الجهاد تطلعا ونزوعا وممارسة يستغرق أغلب حياته ابتداء من شبابه وهـــو يطلب العلم ، وانتهاء باستشهاده سنة ١٩٣٥ ، ففى سنة ١٩١٢ حينما هاجم الايطاليون ليبيا — وكان القسام آنذاك فى سوريا — استطاع أن يجند ٢٥٠ متطوعا ، وتجمعوا للذهاب الى ليبيـــا للاشتراك فى مقاومة الغزو الايطالى ، ولكن لم يقـــدر لهـــذه المحاولة أن تنجح لعـــدم توفر وسيلة مواصلات(٥٦) .

وقاوم الاستعمار الفرنسى هـــو وبعض تلاميذه حين نزل بسوريا سنة ١٩١٨ . وفى سنة ١٩٣٠ انشأ جماعة سرية باسم اليد السوداء كان هدفها الرئيسى « قتل اليهود » ، وزرع الرعب فى قلوبهم بوجه عام(٥٧) .

وكان مقتنعا بأن تحرير فلسطين لن يتم من خلال الأفندية — على حـــد قوله — وأن أصحاب المصلحة فى تحرير فلسطين هم أقل الطبقات ثراء أو أكثرها فقرا ، ويتكون منهم الفلاحون الذين طردوا من أراضيهم التى بيعت للصهيونيين والعمال الذين أخرجوا من أعمالهم كى يشغلها عمال اليهود . . . ولذلك توجـــه الشيخ القسام مباشرة الى هـــذه الفئات يبث فيها الوعى ، ويرسم لهـــا طريق الخلاص : كتاب الله فى يد ، والبندقية فى يد أخرى(٥٨) .

ومما سبق تستطيع أن نقرر ان المسلك الجهادى لعز الدين القســـام لم يكن كالأنماط الحزبية التقليدية التى تعطى اهتمامها الأكبر للشخصيات المشهورة اللامعة مع التركيز على الجانب القومى .

كما خالف الاتجاه الشعبى التلقائى فى الكفاح ومواجهة العدو الصهيونى والعـــدو الانجليزى . فمنهج القسام الجهادى كان ذا ملامح جـــديدة لافته للنظر ومن أهم هـــذه الملامح :

---

(٥٦) ZIONISM and ARABISM p. 59.

(٥٧) Ibid p. 63

(٥٨) د. عواطف عبد الرحمن : مصر وفلسطين ٢٥٦ .
وانظر كذلك : الخولى : سياسة الاستمار والصهيونية ٥٨٥ .

١ ــ انه أفاد من تجاربه وتجارب غيره فى النضال ، فلم يعتمد على الشعارات ، بل اتجه اتجاها عمليا يعتمد على الكتمان دون اعلان .

٢ ــ انه اتجه الى أصحاب الولاء الحقيقى للأرض ، والذين يمكن أن نسميهم « الضحايا الحقيقيين » للسياسة الانجليزية والغــدر الصهيونى .

٣ ــ أنه بايمان حقيقى عميق استطاع ان يستغل المشاعر الدينية لأصحابه ، ويربط الجهاد دائما بالله . ولا شك أن الشعور الدينى هــو أقوى البواعث والدوافع للتضحية والفــداء .

٤ ــ انه ــ وهو السورى الجنسية ــ قــدم بنفسه المثل العملى والدليل الواقعى على أن قضية فلسطين لا تخص الفلسطينيين وحــدهم ، ولكنها قضية عربية ، بل اسلامية فى المقام الأول(٥٩) .

ولو قــدر للقسام أن يعيش ، وقــدر لحركته الجهادية المحــدودة أن تتسع معتمدة على الايمان والنقاء ــ كما بدأت ــ لتغير مجرى التاريخ ، لا أقول تاريخ فلسطين فحسب ، ولكن تاريخ المنطقة كلها .

ومضى القسام مثلا أعلى للكفاح العملى الصادق الذى يسترفد قــوة الايمان والتصميم والثبات ، وكان نهجه السوى فى الكفاح ، وثباته الحازم واستشهاده البطولى منبعا لا ينفــذ ... نهل منه الشعراء ، فصاغوا شعرا يمجــد الشهادة والشهيد والبطولات الفــذة ، ويرون أن هــذا هــو النهج السديد لاحراز النصر ، وتخليص الأرض . يقول عبد الرحيم محمود مخاطبا العربى بعامة ، والفلسطينى بخاصة :

قل لا واتبعها الفعــال ولا تخف ... وانظر هنالك كيف تحنى الهام
اصهر بنارك غــل عنقك ينصهر ... فعلى الجماجم تركز الأعــلام
واقم على الأشلاء صرحك انمــا ... من فوقه تبنى العــلا وتقــام

---

(٥٩) كان الرأى العام الفلسطينى ممثلا فى أحزابه وخطبائه ورجال الدين وغيرهم يرى ضم فلسطين الى سوريا ، ويطلق عليها اسم سوريا الجنوبية ... وكان هـذا الصوت هـو أعلى الأصوات فى الساحة الفلسطينية قبل سنة ١٩٤٨ .

واغصب حقوقك قط لا تستجدها ان الأولى سلبوا الحقوق لئام
هذى طريقك للحياة فلا تحـد قد سارها من قبلك القسام(٦٠)

اما الشاعر صادق عرنوس فيعطى صورة أكثر تفصيلا للقسام وطبيعته النفسية والخلقية ومنهجه فى الحيـاة والجهاد ومعـه « عصبة بدرية » آثروا الموت العزيز على الحياة المهينة . يقول عرنوس فى قصيدته :

من شاء فلياخـذ عن القسام أنمـوذج الجندى فى الاسـلام
وليتخـذه اذا أراد تخلصـا من ذله الموروث خـير امام
ترك الكلام ورصـفه لهـواته وبضاعة الضعفاء محض كلام
ما كنت أعرفه ولم أسمع به حتى تضوع طيبه فى الشـام
لم يلهه عرض الحياة وان حـلا كلا ولم يشغف بنيل وسام
ما زال يعمل ساترا مجهـوده كالبدر مستترا وراء غمـام
حتى بدا فى عصـبة بدرية فتكشفت عن مؤثرين كـرام
قـل للشهيد وصـحبه أديتم حق الرسالة فاذهبوا بسلام(٦١)

ويمجـد « أبو سلمى » القسام فى داليته المشهورة « لهب القصيد » التى نظمها سنة ١٩٣٦ ، ويحمل فيها حملة شعواء على ملوك العرب ، ويحملهم مسئولية النكبات التى حلت آنذاك بشعب فلسطين ، ومنها قوله مخاطبا هـؤلاء المـلوك :

قـوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشهيد
قـوموا انظروا القسام يشرق نوره فوق الصرود
يوحى الى الدنيا ومن فيهـا بأسرار الخلود(٦٢)

---

(٦٠) ديوان عبد الرحيم محمود ١٤٣ .
(٦١) مجلة الفتح العدد ٤٧٤ من السنة العاشرة .
(٦٢) ديوان ابى سلمى (الأعمال الكاملة) ٢٣ .

ويرثى ابو سلمى الشهيد أبا خالـد محمد صالح الحمد الذى استشهد سنة ١٩٣٨ وكان واحـدا من رجال القسام ورفيقا له فى الكفاح المسلح فيقول عنـه :

يمت الى القسام بالنور والهدى ولمـا يزل فينا اماما وهاديا(٦٣)

وينظم أبو سلمى كذلك سنة ١٩٣٦ — أى بعـد استشهاد القسام بعام واحـد — مسرحية شعرية بعنوان « الثورة » .. وقـد بعث بهـا مخطوطة لابراهيم عبد القادر المـازنى ، فرد عليه برسالة يبدى فيهـا رأيه ، ويقول فيها « ... ان جملة ما يخرج به القارىء من المشاهد جميعا لا يعطى فكرة كافية عن الثورة ، ولا يرسم فى ذهن المرء صورة تامة ، لأنه ليس هناك الا تصوير حادثة الشيخ القسام — وهى أوفى ما فى الكتاب وأبرعه ، ثم بضـعة مشـاهد للثـورة لا تكفى ولا تغنى ، واستثنى ما يتعـلق بالقسام ... »(٦٤) .

وهـذا يعنى أن القسام كان يشغل حيزا ضخما فى ضمير الشعراء ، وأنه كان أهم ملمح من ملامح الثورة الفلسطينية . وأصبح القسام وكفاحـه موضوعا لأعمال فنية روائية(٦٥) . كما أصبح عنوانا لدواوين شعرية كاملة مثل ديوان (رياح عز الدين القسام) لمحمد القيسى الذى نظم وصـدر بعـد استشهاد القسام بقرابة أربعين سنة ، ولعل أوفى قصائد الديوان وأجملها قصيدة « عز الدين القسام : جزء من حديث ذات ليلة باردة »(٦٦) وهى قصيدة ملحمية حـوارية طويلة .

* * *

---

(٦٣) السـابق ٦٧ .

(٦٤) الأسـد : الشعر الحـديث فى فلسطين ٢١٧ .

(٦٥) مثل الرواية التاريخية التى كتبها « عاصم الجندى » بعنوان « عز الدين القسام (المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . فبراير ١٩٧٥) .

كما قامت دائرة الاعلام والثقافة السورية ودولة قطر بانتاج مسلسل تلفازى طويل عن عز الدين القسام يحكى قصة كفاحه من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٥ .

(انظر مجلة : فلسطين الثورة العـدد ٤٠٩ الاثنين ١٩٨٢/٢/٨) .

(٦٦) ديوان القيسى من ٦٣ — ٧٧ .

وبعـــد استشهاد القسام سـنة ١٩٣٥ ، واســتجابة الفلسطينيين لنداءات ملوك العرب فى انهاء الثورة وانهاء الاضراب على أمل أن تغير حكومة الانتداب سياستها شكلت الحكومة الانجليزية ما يسمى « لجنة بيل » للتحقيق فيما حـــدث ، وأوصت اللجنة بتقسيم فلسطين ، ورفع الفلسطينيون السلاح من جـــديد ، وكان هناك شبه اجماع على رفض التقسيم(٦٧) .

وكان أهم حـــدث عالمى بعـــد ذلك هـــو قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) وقد انتهز اليهود سنى هـــذه الحرب فى تدريب رجالهم ، واعـــداد أنفسهم ، متظاهرين بتأييدهم للحلفاء ، وتعاطفهم معهم ، بل الاشتراك الفعلى معهم فى القتال ضـــد الألمـــان والايطاليين ، ثم وسعوا من نطاق جهودهم السياسية على المستوى العالمى ، وخصوصا الولايات المتحدة الأمريكيـــة .

* * *

ولم يتوقف النضال الفلسطينى خلال الحرب العالمية الثانية ضـــد اليهود وضـــد حكومة الانتداب ، ولم يخف الفلسطينيون فرحتهم وشماتتهم لمـــا كان ينزل بالانجليز والحلفاء من هزائم ، وتعـــاطفهم مع الألمـــان ، وحماستهم لمـــا يحرزونه من انتصارات . ففى قصيدة تعنوان « هتلر » يقول الشاعر الفلسطينى برهان الدين العبوشى :

أذل فرنسا فى ثمان وهـــذه ... نساء فرنسا بالزعيم تحامينا

أقض منام الانجليز وقـــد غدا ... جلالته أنى استغاث فلاعونا

تهل عليه السابحات قـــذائفا ... لهـــا غنة فى الجو اما تدانينا

---

(٦٧) انظر تفصيل مشروع « لجنة بيل » وموقف الفلسطينيين والعرب منه ص ٧١٤ وما بعـدها من كتاب صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين . ومن عجب أن الملك عبد الله أمير شرق الاردن خرج على الاجماع العربى ، وأعلن عـدم اعتراضه على مشروع التقسيم الذى اقترحته لجنة بيل بحيث يتم تعيينه ملكا على الدولة العربية الجديدة . انظر السابق ٧١٥ . وانظر كتاب « الحصـــاد المـــر » ١٠٤ ــ ١٣٣ . وانظر كذلك The Palestine Diary p. 247-274.

. . . . . .

خطيئتكم فى القدس هذا جزاؤها تركتم بها عماتنا يتباكينـــا

هتكتم شعار الله فى القدس ويلكم فذوقوا عذاب الله ويلكم جونا(٦٨)

وكثرت سخرية الشعراء من الانجليز والحلفاء وقـــد نزلت عليهم الهزائم تترى ، وكان العرب يعلقون آمالا كبارا على الألمـــان اذا ما انتصروا فى الحرب(٦٩) .

* * *

وكان أهم حـــدث على المستوى العربى هـــو انشاء الجامعة العربية ، وقـــد تم التوقيع على ميثاقها فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٤٥ . وأعطت الجامعة العربية اهتماما كبيرا لمشكلة فلسطين ، وقـــد نص ميثاق انشاء الجامعة فى ملحقه الأول على حـــق فلسطين فى الاستقلال ، واختيار مجلس الجامعة « لمندوب عربى من فلسطين للاشتراك فى أعماله » .

وقـــد لهج الشعر بهـــذه المناسبة العظيمة على امل ان يكون ميلاد الجامعة العربية ميلادا لنهج عملى جـــديد لتحرير ارض فلسطين وأوطان العرب جميعا . فالشاعر محمد العـــدنانى يرى فى ميلاد الجامعة العربية عيدا للعروبة كلها لانها لمت شتات العرب ، وأحيت مواتهم بالأمل ، فيقول :

ليهنىء العرب هذا العيد مؤتلقـــا كالصبح حف به يمـــن واجـــلال

ويا رجالاتنـــــا دامت مراجـــلكم تفلى بهـــاهم شم وأعمـــال

بكم فلسطين قلب العرب قد حليت فأنتم الصحب والأنصار والآل(٧٠)

---

(٦٨) العبوشى : ديوان : جبل النار ٩٦ .

(٦٩) كشفت وثائق الخارجية البريطانية عن الاتصالات التى دارت بين الحاج أمين الحسينى والهيئة العربية التى كان يرأسها وبين دول المحور ، وهى الاتصالات التى أسفرت عن تعهد صريح منها بدعم استقلال فلسطين والدول العربية من قبل المانيا وايطاليا ، ومعارضة اقامة الدولة اليهودية [أنظر مجلة العالم العـدد ٨٧ من السنة الثانية] .

(٧٠) عن : السوافيرى : الشعر العربى الحـديث فى مأساة فلسطين ٣٤١ .

ومن أطول القصائد فى هـــذه المناسبة قصيدة الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود(٧١) التى مطلعها :

عيد بأحناء الصـــدور يقـــام من وحيه الأشعار والالهـــام

حلم لقد لابت عليه نفوسنا أجمل بأن تتحقق الأحـــلام

* * *

وتوالت المؤتمرات على المستويين العالمى والعربى بدعوى حل القضية ، ومن جـــديد أحيى مشروع التقسيم فيما سمى بمشروع « مرسون » ســـنة ١٩٤٦ ، وقـــد رفضه الفلسطينيون والعرب .

وفى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ اتخـــذت الأمم المتحدة قرار التقسيم بأغلبية ساحقة كان قطباها الدولتين الكبيرتين أمريكا وروسيا ، وكان ذلك مفجرا لثورة فلسطينية عاتية خاضها أبناء فلسطين وكثير من المتطوعين العـــرب(٧٢) .

وظهرت بطولات فـــذة أعادت الى الأذهان ذكرى بطولة عز الدين القسام ، واتسع سجل الشهداء لشخصيات جادت بنفسها عن رضا وطواعية، ونالت شرف الشهادة مثل عبد القادر الحسينى الـــذى استشهد فى معركة القسطل ، وشاعرنا عبد الرحيم محمود شهيد معركة الشجرة .

ثم كان اعلان ميلاد اسرائيل ، ودخول الجيوش العربية فلســـطين ، وبعدها توالت النكبات ، وما زالت تتوالى حتى الآن مما لا يجهله أحد(٧٣) .

وكان للشعر صولاته وجولاته فى هـــذه المناسبات ، ومنه تلك القصيدة

---

(٧١) أنظر القصيدة فى ديوان : عبد الرحيم محمود ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٧٢) أنظر : « الحصاد المر » من ص ١٠٤ الى ص ١٠٤ الى ص ١٣٣ . وأنظر كذلك :
The Palestine Diary p. 247-274.

(٧٣) أنظر فى مولد اسرائيل وصـــدامها مع الجيوش الرعبية Ibid p. 275-303.

التى نظمها الشاعر محمود الحوت فى ديسمبر سنة ١٩٤٧ بعـد صدور قرار التقسيم ، أو « متفق التقطيع » كما يسميه . وفى هـذه القصيدة يقول :

وهب شعب على صيحات صخرته — يستل من عـنبات الله ممتشقا

وراح يضرمها حربا مقـدسة — شرقية بضمير الغرب لن ثنقـا

كم حدثونا عن العدل المقيت وكم — كانت لهم حلبات الظلم مستبقا

لن نستقر ولن تهدأ مراجلنـا — والحق فى عالم الأطماع قد خنقا

سيعلمون وفى التاريخ موعظـة — كيف استمدوا من التقطيع متفقا(٧٤)

* * *

تلك هى قضية فلسطين أو قضية العصر التى ستظل شاهدا أبد الدهر على الظلم الفادح فى عالمنا المنكوس الموكوس ، والتى ستظل على مدار القرون وصمة عار تجلل جبين الانسانية وتؤرق ضمائرها : أرض انتهبت ، وشعب تشرد ، وعشرات من آلاف القتلى الأبرياء ، ودولة من الأخسـاء الآفاقين زرعت بليل فى أرض عربية دون وجه حق ...

هـذا هـو الحصاد المر الذى تمخضت عنه قضية العصر ، وما زال للحصاد بقية ، وما زال للمرارة امتدادات ... ما بقى أصحاب الأرض غرباء ... وما بقى الغاصبون ثابتى الوجود ، راسخى الأقـدام فى أرض كانت مهـد رسالات ، ومشهد نبوات .

وقـد واكب الشعر هـذه القضية بكل أبعادها ومناحيها ... واكبها صرخة ودمعة وتأبينا ، وواكبها انذارا ووعيدا ، وواكبها تحميسا وتشجيعا ، وواكبها زغرودة وتأميلا ، وواكبها تعظيما وتمجيدا ... نعم لقـد عايش هـذا الشعر الأحـداث والوقائع والناس والقادة والخنادق والنار والدم : ـ لقـد ذكر الفلسطينيين بأمجاد أمتهم ، وأصالة وجودهم حتى يكونوا حربا

(٧٤) عن ناصر الدين الأسـد : الشعر الحـديث فى فلسطين والاردن ٢٤٦ .

على الغاصب الناهب الدخيل الذى دنس سحر الوجود وعبق التاريخ .

— ورسم لأبناء الوطن طريق التحرير والخلاص ، وطريق البناء والنجاح والخلـــود .

— وتغنى بالقيم العليا ، وانتصر للمستضعفين المنهوبين فى الأرض الذين كانوا هـــدفا وطعمة للمستعمر ، ومن نهج نهجه من النفعيين وأدعياء الوطنيـــــة .

— ودعا الى وحـــدة الصفوف والأهـــداف فى مواجهة أعـــداء لا يرحمـــون ولا يقنعون .. ولا يتوقفون .

— وبكى الشهداء الذين كتبوا بدمائهم وثيقة الولاء السرمدى انذى لا يمـــوت ولا يهون ، ودعا الرجال والشباب أن يتخـــذوا منهم القـــدوة فى طريق التأسى والاحتذاء .

— وفضح المخططات والقرارات التى نسجت بليل فى المحافل الدولية ، تلك المحافل التى تسيطر عليها الصهيونية والامبريالية العالمية .

— وشد على النوام ، وذم الكسالى ، وحمل على كل غادر خوان .

وقـــد اجتزانا بأقل القليل من هـــذا الشعر على سبيل الاشارة والتمثيل للتدليل على معايشة الشعر لقضية الوطن . وكل ذلك كان يمثل عناصر من الرسالة الوطنية الانسانية التى اضطلع بها الشعر الفلسطينى لعشرات من الســـــنين .

وفى مصطخب هـــذه الغمرات كان لشاعرنا عبد الرحيم محمود جولات وصولات ، وكانت عـــدته الوافية : الشعر والبندقية ، فعاش شاعرا مقاتلا ، وكان تاريخه ملحمة خالدة مخطوطة بالكلمة والدم .

وكما عايشنا القضية تاريخا وشعرا فى الصفحات السابقة .. سنعيش فى الفصل التالى « مسيرة الحياة » لشاعرنا الذى كان واحـــدا من أنبـــل أبنائها وأكرم شـــهدائها .

الفصل الثاني

سيرة الحياة وأبعاد الشخصية

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

ايام الدراسة

فى أحـــد أيام الربيع من سنة ١٩١٣ ولد عبد الرحيم محمود فى قرية « عنبتا » من قرى « طولكرم » ، وتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة القرية (١٩٢١ ــ ١٩٢٥) ، ثم انتقل الى « طولكرم » ، ودرس بها المرحـــلة الاستعدادية (الثانوية) المتوسطة فى مدرستها لمدة اربع سنوات ، وأتم الصف الرابع الاستعدادى فيها فى العام الدراسى (١٩٢٨ ــ ١٩٢٩) . وفى نابلس اكمـــل دراسته الاستعدادية العالية فى كلية النجاح الوطنية ، حيث قضى فيهـــا عامين (١٩٢٩ ــ ١٩٣١) درس فيهما الخامس والسادس الاســـتعداديين(١) .

وكانت مدرسة النجاح التى يطلق عليها اسم كلية(٢) تختلف عن غالبيه المدارس فى فلسطين ، اذ لم يكن للحكومة ممثلة فى ادارة المعارف سلطان عليها ، ومن ثم كانت تتمتع بقـــدر كبير من الحرية فى برامجهـــا ، واختيـــار

---

(١) انظر : نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٤١ ـ ٤٢ .

(٢) بدات كلية النجاح كمدرسة ابتدائية فى عام ١٩١٨ على يد مجموعة من شباب مدينة نابلس ، واطلق عليها آنذاك اسم مدرسة النجاح الوطنية النابلسية . وفى عام ١٩٤١ أصبح اسمها « كلية النجاح الوطنية » ، وفى عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ افتتح فى الكلية معهد لاعـــداد المعلمين ، وتحولت سنة ١٩٧٦ الى « جامعة النجاح الوطنية » ، وفيها الآن اربع كليات بها ٣٥٠٠ طالب وطالبة .

[انظر : عصام شريح : جامعات الأرض المحتلة قلاع تؤرق اسرائيل : مجلة الدوحـة القطرية ، العـدد ١١٣ مايو (آيار) ١٩٨٥ .

أساتذتها ، أو كما يقول الدكتور السوافيرى « كانت تلقن طلابها الى جانب فروع المعرفة المختلفة حب العرب والعروبة ، وتشعل فى نفوسهم جذوة الوطنية ، وتضع البرامج التى تغذى فيهم الجانب القومى والاعتزاز بالأمجاد العربية »(٣) .

وربما كان اشهر من عمل فى مدرسة النجاح هو الشاعر ابراهيم طوقان خلال العام الدراسى (١٩٢٩ ــ ١٩٣٠) نزولا على رغبة أبيه على الرغم من كراهية ابراهيم لمهنة التعليم(٤) . تقول شقيقته فدوى طوقان :

« زاول ابراهيم مهنة التعليم فى مدرسة النجاح سنة واحدة ، وكان له تاثير فى بعض طلابه من الصفوف العالية ، فحبب اليهم الشعر والأدب ، ولا ازال اذكر ذلك اليوم الذى اقبل فيه يحدثنا مبتهجا بأن بعض تلاميذه النجب قد بدءوا ينظمون الشعر على يده .. »(٥) .

ولا شك انه كان من هؤلاء التلاميذ عبد الرحيم محمود الذى سنجد فيما بعد كثيرا من بصمات ابراهيم طوقان فى شعره ــ لا فى الاتجاه الوطنى فحسب ولكن فى الأسلوب والمضامين الفكرية أيضا . وكان عبد الرحيم فى ذلك العام ... عام ١٩٢٩ ــ ١٩٣٠ فى الصف الخامس الاستعدادى العالى ، هو العام الذى كان ابراهيم طوقان فيه معلما فى مدرسة النجاح .

---

(٣) ديوان عبد الرحيم محمود ٢٢ (الدراسة التى كتبها السوافيرى عن الشاعر فى صدر ديوانه .

وقد ظلت كلية النجاح هذه معقلا وطنيا ومصدر قلاقل وقلق لاسرئيل ، وخصوصا بعد أن نمت وتحولت الى جامعة تضم فى سنة ١٩٨٥ الفى طالب . وكثيرا ما لجأت الحكومة الاسرائيلية الى اغلاقها لأشهر طويلة : فقد أغلقتها من ٥ يونيو سنة ١٩٨٢ الى اول سبتمبر ١٩٨٣ لاحتجاج طلابها فى مظاهرة ضخمة بمناسبة الذكرى الأولى للغزو الصهيونى للبنان . كما أغلقت ايضا بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٩٨٤ بصعة أشهر ، وفى اوائل اغسطس سنة ١٩٨٥ اقتحمتها سلطات الاحتلال الاسرائيلى ، ومنعت جميع الطلاب من دخولها ضمن حملة مكثفة يشنها الكيان الصهيونى ضد المواطنين العرب فى الأراضى العربية المحتلة [انظر مجلة العالم العدد ٧٨ السنة الثانية : السبت ١٩٨٥/٨/١٠] .

(٤) انظر فدوى طوقان : أخى ابراهيم (فى صدر ديوان ابراهيم طوقان) ٢٣ .

(٥) السابق : نفس الصفحة .

وكان هـــذا العام عاما متوهجا لافتا فى تاريخ فلسطين اذ هبت فيه ثورة ١٩٢٩ على أثر « حادث البراق » . ثم كانت المحاكمات الظالمـــة على يد قوات الاحتلال وشنق ثلاثة المجاهدين حجازى وجمجوم والزير فى يوم الثلاثاء ١٧ من حزيران سنة ١٩٣٠ . وينظم طوقان فيهم أروع قصـــائده « الثلاثاء الحمراء » ويلقيها فى حفل مدرسة النجاح السنوية بعـــد تنفيذ حكم الاعـــدام بعشرة ايام ، ممـــا اثار حمية الناس والطلاب حتى عـــلا نشيجهم وبكاؤهم(٦) .

هـــذه الجراة ، وتلك الحماسة النابعتان من ايمان عميق بقضية الوطن وعـــدالتها فى مواجهة المستعمر الغاشم تركتا ـــ ولا شك ـــ آثارا عميقـــة فى نفس الفتى الذى كان يتلقى العلم والوطنية على يد هـــذا الأستاذ العظيم ، وخصوصا اذا كان الأستاذ ممن « يعتزون بتلاميذهم النجب الذين بدءوا ينظمون الشعر على يده » .

كان الطالب عبد الرحيم محمود ابن السابعة عشرة واحـــدا من هـــؤلاء على الراجح ... فالأحـــداث الدامية فى فلسطين آنذاك تلهب المشاعر ، وتفتق شاعرية من وهب بواكير هـــذه الملكة ، وان كان ديوان الشاعر يحدد بداياته الشعرية سنة ١٩٣٥ ، أى بعـــد تخرجه فى مدرسة النجاح بثلاث سنين ، واغلب هـــذه القصائد ـــ والوطنى منها بصفة خاصة ـــ يقطع بأنها لا يمكن ان تكون « بدايات » مثل قصيدة « نجم السعود »(٧) ففيها من النضج والشفافية وسلامة الأسلوب وبراعته ما يقطع بأنها مسبوقة بمحـــاولات وبدايات قام بها الشاعر وهـــو طالب فى مدرسة النجاح ، ولا يستبعد أن يكون ابراهيم طوقان قـــد اطلع على بعضها ، وأبدى اعجابه وتشجيعه للشاعر المبتدىء . ولم تخـــل هـــذه البدايات ـــ ولا شك ـــ من عثرات المبتدئين الذين يرودون طريقا جـــديدة لأول مرة ، وهى محاولات لم ينشرها الشاعر غالبا ، وربما عثرت اللجنة التى جمعت ديوانه على بعضها وأنكرته ، ولم تضمه لشعره الذى جمعته بين دفتى ديوان ، لأنها آثرت ـــ كما تقول

(٦) أنظر فدوى طوقان : السابق ٢٤ .

(٧) الديوان ١٢٥ . وقد أورد وليد جرار أبياتا للشاعر قبل ذلك فى كتابه : شاعران من جبل النار منها بيتان فى فاطمة رشدى ص ٣٢٧ .

فى تقريرها « أن تترك ما تجـــده ضعيف الصياغة أو المعنى سواء أكان ذلك الضعف فى قصيدة كاملة او فى أجزاء او أبيات من قصيدة »(٨) .

فى الشرطة

ويلفت نظرنا فى تاريخ الشاعر أنه بعـــد أن تخرج فى مدرسة النجاح — وكانت سنة اذ ذاك قرابة العشرين — عين شرطيا فى حكومة الانتداب(٩) ، فكيف يقبل الفتى الوطنى الذى تتلمذ على يد ابراهيم طوقان ، ورأى من وطنيته ما رأى ، وسمع من شعره الحماسى ما سمع ، وشهد من ظلم حكومة الانتداب وبطشها بالمواطنين ما شهد ... أقول : كيف يقبل الفتى هـــذه الوظيفة التى تثير الشبهة ، وتضع صاحبها مباشرة فى مواجهة المواطنين من أبناء جنسه ووطنه ؟

واجابة هـــذا السؤال تحوجنا الى التعرف على بعض جوانب الواقع التاريخى فى هـــذه الفترة : لقـــد عين عبد الرحيم فى هـــذه الوظيفة بعـــد تخرجه فى مدرسة النجاح أواخر سنة ١٩٣٢ أو بعيدها ، وهى السنة التى زاد فيها نشاط جماعة اليد السوداء التى انشأها عز الدين القســـام سنة ١٩٣٠(١٠) وقتلت عـــددا من اليهود فى ٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٣٢(١١) . ترى هل كان عبد الرحيم محمود واحـــدا من هـــذه الجماعة السرية ؟ وهل كان قبـــوله لهـــذه الوظيفة لمهمة محـــددة وهى أن يكون عينا للجمـــاعة على سلطات الانتداب من موقعه القريب هـــذا ؟

ان اعجاب الشاعر بعز الدين القسام ونهجه فى الحياة والجهاد — وهو ما صرح به فى شعره(١٢) — قـــد يرجح مثل هـــذا الافتراض . وسواء أصح

---

(٨) انظر تقرير اللجنة بالكامل ص ١٧٢ وما بعـدها من كتـــاب الشعر الحـــديث فى فلسطين والاردن لناصر الدين الأسـد .

(٩) انظر السابق ١٧١ ونافع ٤٤ .

(١٠) ZIONISM and ARABISM p. 63.

(١١) Ibid p. 65.

(١٢) انظر ديوان عبد الرحيم محمود ١٤٣ (قصيدة : طريق الحياة) .

هـــذا التقـــدير أم لم يصح فمن المقطوع به أنه لم يأت فى أثناء وظيفته هـــذه القصيرة الأمد ما يسىء الى وطنيته ، أو يلحق الأذى بواحـــد من مواطنيه ، بل على العكس من ذلك ـــ ظهرت وطنيته فى أروع صورها ، فاستقال من عمله وتركه « حين طلب منه مطاردة أحـــد المجاهدين الثوار »(١٣) .

المعـــــــلم

ثم عمل بعـــد ذلك مدرسا بكلية النجاح بعـــد استقالته من عمله السابق لمدة أربع سنوات دراسية (١٩٣٣ ـــ ١٩٣٧)(١٤) ولا شك أنه سلك سبيل أستاذه ابراهيم طوقان فى غرس القيم الوطنية ، واشعال روح الثورة فى نفوس تلاميذه ، وقـــد كتب واحـــد من هؤلاء مقالا بمناسبة الذكرى الأولى لاستشهاده يقول فيه « درس المرحوم الأدب العربى فى كلية النجاح الوطنية ، وكان يلقن تلاميذه ـــ وحسبى أن اكون أحـــدهم ـــ دروسا فى الوطنية والقومية ، وكان فى أثناء تلك المدة مثال المعلم الصادق المخلص لأمته وبلاده »(١٥) .

القســـام والثـــورة

استشـهد القسام وأربعة من رجاله فى ملحمة بطولية سنة ١٩٣٥ كما عرفنا ، وكان استشهاده وما تبعه من حماقة حكومة الانتداب هـــو الشرارة

---

(١٣) الأسـد : السابق ١٧١ . ومن المعروف أن حكومة الانتداب هى التى كانت تملك حـق تعيين الموظفين وعزلهم ، يستوى فى ذلك المناصب الصغرى والكبرى ، ويصدق ذلك على المناصب الدينية الكبرى كمنصب المفتى [أنظر الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ٥٧٨] .

(١٤) نافع السابق ٤٦ ، وقـد حقق الباحث ذلك اعتمادا على محاضر اجتماعات وجلسات المعلمين فى كلية النجاح ، وهـو بذلك أصح مما ذكره الزركلى فى الأعلام ٣٤٨/٣ من أن الشاعر ترك العمل بكلية النجاح سنة ١٩٣٦ .

(١٥) عن السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٢٥ .

التى استفحلت وتحـولت الى نار مستعرة اسمها ثـورة ١٩٣٦ أو الثـورة الفلسطينية الكبرى . لقـد وصـفت حكومة الانتـداب القسام ورجـاله (بالأشقياء) ، وكان الرجل موضع اعتزاز الناس وحبهم واحترامهم(١٦) ، مما دفع عشرات الألوف من الناس أن تشيعه الى مقره الأخير ، وتحرش البوليس الانجليزى بمشيعى الجنازة ، فدحرهم المشيعون ، وتبعوهم الى مركز البوليس الذى دمروا أبوابه ونوافـذه(١٧) .

وتفجرت ثورة ١٩٣٦ فى كـل مكان ، فـكان من الطبيعى ان يهرول عبد الرحيم محمود الى ميدان الثورة والجهاد « وانخرط فى كتائب الجهاد تحت قيادة القائد عبد الرحيم الحاج محمد ، واخذ يستهين بالمخاطر ، ويندفع نحو الموت ليظفر بنعمة الشهادة ، ولكنه لم يظفر بها فى تلك الثورة »(١٨) .

وانطلق بشعره يسعر من نار الثورة ، ويضرم عزيمة الشعب الذى « تمرس فى الصعاب فلم تنل منه الصعاب » ويسجل بطولاته فى مواجهـة العـدو الغاشم ، فيخاطبه فى قصيدته المشهورة « شعب فلسطين » ، وفيها يقـول :

حييت من شـــعب تخلـ ـد ليس يعـروه ذهـــاب
لفت الورى منـــك الزئيـ ـر مزمجرا من حـــول غاب
وأرى العـدا ما أذهـل الدنـ ـيـا وشـاب لـه الفـراب
عـرف الطـريق لحقـه .. ومشى لـه الجـدد الصـواب

---

(١٦) يدل على ذلك أن الأحزاب الفلسطينية كانت تتنازع نسبة القسام اليها فى حياته ، فادعى الحزب العربى ـ وهو اكبر الأحزاب الفلسطينية ـ انه عضو فى اللجنة التنفيذية للحزب ، وادعى نفس الادعاء أحزاب أخرى ، مع أن الرجل لم يكن حزبيا على الاطلاق ، وكان هذا التنازع ، وذاك الادعاء بهـدف كسب ود الجماهير التى كانت تعتز بالرجل وتحبه [انظر مجلة شـئون فلسطينية مارس ابريل ١٩٨٥ . ص ٣٨ .

(١٧) الخولى : السابق ٥٨٥ .

(١٨) السواقيرى : السابق ٢٥ .

الحـــق ليس براجـــع ... لـــذويه الا بالحـــراب

والصرخـــه النـــكراء تجـــ ـــدى لا التلطف والعتـــاب(١٩)

لقـــد كان الشاعر يؤمن ايمانا راسخا بأن الحق لا يرجع « لذويه الا بالحراب » ، وأن منطق القـــوة هـــو المنطق الوحيد الذى يجب أن يجابه به الأعـــداء لتخليص الأرض من الانجليز واليهود . وهـــو معنى كان يلح عليه كثيرا فى شعره كقوله :

واقم على الأشلاء صرحك انما ... من فوقه تبنى العـــلا وتقـــام

واغصب حقوقك قط لا تستجدها ... ان الألى سلبوا الحقوق لئام(٢٠)

ونظم فى هـــذه الفترة أشهر قصائده ، وهى التى كانت وما زالت نشيدا وطنيا رائعا يلهج به الكبار والصغار ، واعنى بها قصيدة « الشهيد »(٢١) التى يقول فى مطلعها :

ســـاحمل روحى على راحتى ... والقى بهـــا فى مهاوى الردى

فاما حيـــاة تسر الصـــديق ... واما ممـــات يغيظ العـــــدى

ونفس الشريف لهـــا غايتان ... ورود المنـــايا ونيـــــل المنى

ويرفض الشاعر مهادنة أعـــداء الوطن والتسليم بالحلول السلمية ، فالحق لا يؤخـــذ الا انتزاعا واغتصابا من سالبيه اللئام . وحينما تشـــكلت لجنة « اللورد بيل » التى شكلتها الحكومة البريطانية للتحقيق فى أســـباب الثورة ، ونشرت اللجنة تقريرها فى السابع من يوليو سنة ١٩٤٧ ، وكان من ضمن مقترحاتها « انشاء مجلس تشريعى فى فلسطين » ، ووجـــدت

---

(١٩) الديوان ١٢٨ .

(٢٠) الديوان ١٤٣ .

(٢١) الديوان ١٣١ .

متنزحاتها أو بعضها هـــوى فى نفوس بعض الكبار والزعماء الذين لم يكونوا على مستوى المسئولية والقيادة يفزع الشاعر الى الشعب راثيا لحاله ، فهو منكوب بأمثال هؤلاء نكبته بالاستعمار الغاشم بوجهيه الانجليزى والصهيونى. يقـــول عبد الرحيم :

يا شـــــعب يا مســـــكين لم تنكـــب بنكبتـــك الشـــــعوب

قلـــــدت أمرك مـــــن بهم لا يرجـــع الحـــق الفصـــيب

لهفـــى عليـــــك الا ترى يا شعب حولك ما يريب ؟(٢٢)

وظـــل عبد الرحيم يناضل أعـــداء الوطن تحت راية القائد المؤمن التقى عبد الرحيم الحاج محمد ، فلما استشهد فى آذار ١٩٣٩ رثاه بقصيدة طويلة بلغت ستة وثلاثين بيتا ... لم يجـــد فيها المرثى فحسب ، بل اتخـــذ منها منطلقا لتمجيد البطولة والأبطال والشهادة والشهداء ، وقـــد وصفهم وصفا رائعـــا فى قـــوله :

هم تعاويذ الحمى يقصى بهم عنه مكر السوء اوكيد الحسود

تحـــرق العـــانى أنفـــاسهم ويذيبـــون بهـــا غـــل القيود

وعلى أكتـــــافهم تحنى المنى ويشاد الصرح للعيش الحميد(٢٣)

فى العـــراق

وبعـــد أن توقفت الثورة سنة ١٩٣٩ بدأت حكومة الانتداب تصفى حساباتها مع المجاهـــدين والمواطنين الذين رفعوا سلاح الثورة والمقاومة ،

---

(٢٢) الديوان ١٢٩ .

(٢٣) الديوان ١٣٥ .

وأخـــذت الحكومة تطاردهم فى كل مكان ، فاحس شاعرنا بالخطر يحيق به ، فتسلل الى العراق ، وعاش هناك قرابة ثلاث سنوات ٠

وفى العراق لم يخلـــد الشاعر الى الراحـــة ، بل حرص على أن يستكمل ثقافته العسكرية ، فالتحق بالكلية الحربية فى بغـــداد ، وتخرج فيها ضابطا . ثم عين بعـــد ذلك مديرا لاحـــدى المدارس الابتدائية فى البصرة(٢٤) ، ولا شك أنه كان كمعهدنا به ـــ نموذجا طيبا فى عمله ، ومثالا يحتذى فى هـــذا المجال ، وأنه ـــ كما كان يفعل وهـــو معلم فى كلية النجاح ـــ كان همه الأول تربية تلاميذه على القيم الوطنية والأخـــلاق ، وكراهيـــة الاستعمار والذلة والخنوع ٠

وكشأن المجاهـــد المتوثب الروح الذى طبعت نفسه على عشق الحرية ورفض الـــذل أيا كان لونه وشـــكله ، ما أن رأى شاعرنا هبة رشيد عالى الكيلانى وثورته فى وجـــه الاستعمار الانجليزى حتى انضم الى الثورة سنة ١٩٤١(٢٥) ، فهو لم ينس أن الانجليز هم السبب الأول فى نكبة شعبه ، وأن دماء الأحرار سالت على أيديهم ، وبأيديهم ثبت اليهود أقـــدامهم فى فلسطين ، وانهم هم الذين طاردوه فترك وطنه الحبيب الى هـــذا القطر الشقيق ، فليؤد اذن ضريبة الجهاد هنا فى العراق ، وقـــد قامت الموانع ـــ وهـــو خارج وطنه ـــ أن يؤديها على أرضه الحبيبة ... فالعـــدو واحـــد ، والوطن

---

(٢٤) كذا ذكر ناصر الدين الأسـد فى كتابه ص ١٧١ ٠ وذكر الزركلى فى الأعلام ٣٤٨/٣ أنه عمل بالبصرة مدرسا ٠ ويذكر السوافيرى فى دراسته التى صـدر بها ديوان عبد الرحيم محمود ٠ أن حكومة العراق ، اختارته « لتدريس الأدب العربى فى مدارس بغـداد والبصرة ٠ وعلى أية حال يلتقى الكتاب الثلاثة على حقيقة تاريخية أساسية وهى أنه أثناء اقامته فى العراق ، وبعـد تخرجه فى الكلية الحربية ظـل مدة يؤدى مهمة تعليمية فى حقل التربية والتعليم مديرا أو مدرسا ، وربما جمع بين العملين فى مدرسة واحـدة ٠

(٢٥) كان مفتى فلسطين يومئذ لاجئا الى العراق ، ومعه عـدد من المجاهـدين وعلى رأسهم عبد القادر الحسينى (١٩٠٨ ـ ١٩٤٨) وقـد اشترك هؤلاء الفلسطينيون فى المعارك التى خاضها الجيش العراقى ضـد القوات البريطانية ٠ [أنظر السوافيرى : الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين ١٨٧ ٠ والأعلام للزركلى ٤٧/٤ ٠ والشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة : رشيد جبر الأسـعد ٤١ ٠

العربى واحـــد مهما تعـــددت الأسماء والتقسيمات ، وكا ايمانه بالعروبة ايمانا قـــويا راسخا بلا حـــدود وهو القائل :

أبغير مجـــد بنى نزار ويعرب يزهى عراقى ويفخر شامى(٢٦)

ان تســـــألوا عنى الى من أنتمى فالى رعاة النوق والأغنـــام

وهنا لابد من وقفة أمام هـــذه الفترة التى قضاها الشاعر المجاهـــد فى العراق ، لقـــد كانت هـــذه السنوات الثلاث « عامرة بالاعداد والعمل » :

ففيها التقى ببغـــداد مع رجال المعرفة والشعر والأدب فكان لـــــه مساجلات ثقافية وأدبية مع أدباء وشعراء فى بغـــداد ، مع الشاعر معروف الرصافى ، والشاعر محمد مهدى الجواهرى ، والشاعر جميل صدقى الزهاوى وأدباء من القطر الشقيق(٢٧) .

وفيها استكمل الشاعر ـــ على مستوى عال ـــ دراســـته الحربية واعـــداده العسكرى . وفيها عمل فى حقل التعليم مديرا أو معلما ، وهـــو مجال آخر يتسع للجهاد بالكلمة والتوجيه لاعـــداد الأبناء لمستقبل مناضل .

وفيها اشترك اشتراكا فعليا فى أشهر ثورة فى تاريخ العراق وهى ثورة رشيد عالى الكيلانى (١٨٩٢ ـــ ١٩٦٥)(٢٨) .

---

(٢٦) ديوان عبد الرحيم محمود ١٣٣ .

(٢٧) رشيد جبر : السابق ٤٣ .

(٢٨) عمل الكيلانى محاميا ، وشارك فى ثورة العراق سنة ١٩٢٠ ، ثم عمل وزيرا للعدل وتولى رياسة الوزارة العراقية أربع مرات أولها سنة ١٩٣٠ ، وفى سنة ١٩٤١ قام أربعة من الضباط بثورة على أوضاع الدولة بالاتفاق معه ، وأقاموه رئيسا لحكومة الدفاع الوطنى ، وحاربه الانجليز مستعينين بالجيش الاردنى بقيادة جلوب باشا ، وكانت معركة الكاظمية هى الحاسمة اذ هزم فيها الجيش العراقى وأخفقت الثورة ، وهرب رشيد الى فرنسا وبيروت ودمشق والرياض ومصر الى أن توفى فى بيروت سنة ١٩٦٥ [أنظر الأعلام للزركلى ٢٣/٣ . وراجـــع كذلك : د. زكى صالح : مقـدمة فى دراسة العراق المعاصر ١١٠ ـ ١١٥ . والسيد عبد القـادر الحسنى : تاريخ العراق السياسى لحـديث الجزء الثالث من ص ٢٢٣ الى ص ٢٢٥ .

ولا نشك أن الشاعر كان قلبه يتدفق بالحنين الى ارضـــه الحبيبة فلسطين ليواصل الجهاد المسلح مرة اخرى ، وقـد نظم قصيدة طويلة بعنوان « حنين الى انوطن »(٢٩) ختمها بقوله :

يا بلادى ارشـــفينى قطرة كل ماء غير ما فيـــك كدر

ليت من ذاك الثرى لى حفنة أتملى من شـــذا الترب العطر

وهنـــاك قصيدة أخرى كانت من وحى الغربة أيضا أملاها الشـــعور الحاد بالوحشة ، وهـــو شريد طريد ، وعنوانها « حجر فى كثبان رمل »(٣٠) : وقـــد صدرت القصيدة بالعبارة الآتية « بين تدمر والعراق مهمة (صحراء) قـــدر للشاعر أن يقطعه طريدا ، ووجـــد نفسه غريبا غربة حجر هناك ، فاسند ايه راسه ، وراح يفكر فيه ، وهـــو يؤكد أن الحجر دله أخيرا على الطريق » ، وفى مطالعها يقول مخاطبا هـــذا الحجر المتفرد فى الصحراء :

فيم انفـــــرادك لا أنيـ ـس تراه فى القفـــر المخيـــف

فى ربقـــــة الوهـــج الحـــرو ـر وغـــل عاصـــفة عصـــوف

وصـــبرت للهـــــوج اللـــوا فح فى الضحى صبر الآنوف

وطلبت وحـــــدة راهـــــب فيهـــــا وعـــزلة فيلســـوف

....

تعلـــو على نغـــــم الأنيـــــ ـن ونشـــجة القلب الكســـير

---

(٢٩) الديوان ١٤٠ ٠

(٣٠) الديوان ١٦٦ ٠ ويرى الدكتور السوافيرى ناشر ديوان عبد الرحيم محمود فى طبعته الثانية أن الشاعر ليس له فى الغربة والحنين الا قصيدة واحـدة هى التى أوردنا منها البيتين السابقين ٠ والغريب أنه لم يشر الى هـذه القصيدة ٠ قصيدة « حجر فى كثبان رمل ، مع أنها احـدى قصائد الديوان ٠

ام كنت شاهد مصرع الأ خـــــلاق فى البيت الكبير

فهـربت أنك فى الجمـــا د اذن لـذو اسمى شـــعور

لقـد اسقط الشاعر عبد الرحيم محمود غربته على حجر ، جاعلا منه رمزا للانفراد والغربة كما يحسها الشاعر(٣١) .

وكأنى بالشاعر ـ برؤية شفيفة يرمز أو يلخص ـ وهو بعيد عن أرضه فى طريقه الى مغتربه ـ مأساة الانسان الفلسطينى الذى « انفرد » يناضل . وحوله « قفر » من الضمائر الخراب ، و « عواصف » من المؤامرات ، و « لوافح » من أسنة شحذت بليل ، ومدى تقطر بالدم والويل والعـذاب ، اما الأخلاق فصريعة فى عالم منكوس منكود . وعلى الرغم من كل أولئك ، فما زال هـذا الانسان أشم شامخا ، لأنه تعالى على « نغم الأنين » وانتصر على « نشجة القلب الكسير »(٣٢) .

والمعروف أن ديوان الشعر العربى من أول نشأته وعلى امتداد عمره الطويل غاص بآلاف القصائد التى تتدفق بآهات الأشواق وزفرات الحنين الى الوطن والأرض والأهل ومرابع الصبا والطفولة والذكريات ، وهـو ما نسميه بشعر الاغتراب والحنين ، وهـو « لون واضح القسمات فى أدبنـا العربى مثل شعر الغزل ، وشعر الرثاء وشعر المديح وشعر الفخر ، بل لعله يتميز بملامح قلما تكاملت فى لون من الألوان الأخرى »(٣٣) .

---

(٣١) خالد على مصطفى : الشعر الفلسطينى الحديث ٤٥ .

(٣٢) جابر قميحة : قمة لا تنحنى ، وقدوة لا تحيد : مقال عن الشاعر عبد الرحيم محمود : مجلة الرائد الكويتية . العدد ١٦٦ السنة الخامسة ٧ ـ ٢ ـ ١٩٧٤ .

(٣٣) د. ماهر حسن فهمى : « الحنين والغربة فى الشعر العربى الحديث » .

وانظر كتاب « الحنين الى الوطن للجاحظ » ، وقد عرض فيه ضمن ما عرض ما قيل شعرا ونثرا فى حب الوطن والتشوق اليه ، كما عرض صورا عملية لهذا الحب ، ومنها على سبيل التمثيل أن العرب كانت « اذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلادها رملا وعفرا تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع .

ومن عجب أن يغيب الشاعر عن وطنه ثلاث سنوات كانت من احفل سنى حياته بالاعداد والعمل والجهاد ضد الانجليز فى صف الشعب العراقى فى ثورة الكيلانى ، ولا نقف الا على قصيدتين فقط من شعر الغربة والحنين الى الوطن . وقد حاولنا البحث عن تفسير لهذه الظاهرة التى تكاد تكون عديمة النظير أو على الأقل نادرة فى ديوان الشعر العربى(٣٤) .

ليس هذا فحسب ، بل من حقنا أن نسأل كذلك « أين العراق فى شعر الشاعر ؟ » لقد اشترك فى ثورة الكيلانى بحماسة وعن رضى واقتناع ، فأين ثورة الكيلانى فى شعره ؟ . واذا كان العراق كمهجر ومغترب لم يلهمه قصيدة واحدة أو بيتا واحدا من الشعر ، ألم تهز ثورة الكيلانى وجدانه ومشاعره لتجود قريحته بقصيدة أو قصائد ؟

وحتى لو افترضنا أن الشاعر عبد الرحيم محمود كان مقلا فى نظمه فاننا نجد من الصعب — ان لم يكن المستحيل — أن نسلم بأن أهم حدث فى تاريخ العراق فى النصف الأول من القرن العشرين — يمضى دون وقفة من الشاعر ، ودون أن ينظم فيه قصيدة واحدة .

عودة الى الوطن

على أية حال عاد الشاعر الى وطنه سنة ١٩٤١ ، لم يعد متسللا مستترا كما غادره من ثلاث سنوات ، ولكنه عاد فى وضح النهار ، بعد أن هدأت الأحوال فى فلسطين الى حد ما ، وشغلت بريطانيا بحربها الضروس ضد دول المحور ، وبدا انها أغمضت عينيها ، وخففت من وطأة ضغطها عن الشعب الفلسطينى طمعا فى تعاطفه معها فى حربها ، أو على الأقل تهدئا لثائرته . عاد الشاعر ، وهو نهب لشعورين متعارضين : شعور بالأسى والمرارة لاخفاق ثورة الكيلانى التى لو قدر لها أن تنتصر

---

(٣٤) انظر الفصل الذى عقدناه فى هذا الكتاب بعنوان « قصة الديوان المظلوم » .

لأمدت شعوب المنطقة بطاقة نفسية هائلة ، ولكان العراق ركيزة ومنطلقا لثورات أخرى فى المنطقة العربية .

ويقابل شعوره هـذا شعور بالفرح لعودته الى أهله ووطنه ، وعودته الى مهنته التعليم فى كلية النجاح التى تخرج فيها ، وعمل فيها معلما من قبل لعدة سنوات بعد تخرجه ، واستقالته من عمله شرطيا فى حكومة الانتداب .

« وفى خلال هذه الفترة (من ١٩٤١ — ١٩٤٨) نظم عبد الرحيم أكثر قصائده ، ونشر الجزء الأكبر من شعره فى صحف فلسطين »(٣٥) وعاش الشاعر يقدس عمله فى كلية النجاح ويعتبره نضالا صادقا فى سبيل أمته ، وكان ينتهز الفرص والمناسبات المختلفة فيلقى قصائده الوطنية والدينية على طلابه ومنها على سبيل التمثيل قصيدة « كتاب أضاء دياجى الظلم » التى ألقاها على خريجى كلية النجاح بنابلس ١٩٤٣/١٩٤٤(٣٦) ، وقصيدة « القرآن الكريم » التى ألقاها فى أحد مهرجانات كلية النجاح ١٩٤٤/ ١٩٤٥(٣٧) وقصيدة « روض وانى عندليبه » التى القاها على الطلاب كذلك سنة ١٩٤٥(٣٨) أما أطول قصائده (أحاجى فى ذكرى وعد بلفور — وقد ألقاها فى فندق فلسطين سنة ١٩٤٧) فقد أشرك معه واحدا من طلابه ليجيب على هذه الأحاجى)(٣٩) .

وبعد عودة الشاعر من العراق سنة ١٩٤١ تزوج ابنة خاله وكان ثمرة زواجهما ثلاثة أولاد : الطيب سنة ١٩٤٣(٤٠) ، ورقية سنة ١٩٤٥ ،

---

(٣٥) السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٣١ .

(٣٦) جرار : شاعران من جبل النار ٢٦٧ .

(٣٧) السابق ٢٧٢ .

(٣٨) السابق ٢٩٨ .

(٣٩) السابق ٢٥٧ .

(٤٠) وهو يعمل حاليا (١٩٨٦) ممثلا دائما لمنظمة التحرير الفلسطينية بالقاهرة وقد أمدنى بمراجع قيمة عن والده الشهيد .

وطـــلال سنة ١٩٤٧(٤١) .

لقـــد عاش الشاعر حياته يحمل روحـــه على راحته ـــ كما يقول ـــ ، وباحساس غيبى شفيف عاش يتغزل فى الاستشهاد ، ويتعاطف مع صوت الموت والفـــداء ، وكان المعنى الذى يلح عليه فى بعض قصائده ـــ كقصيدة الشهيد ـــ انه سائر الى النهاية ، وأنه يرى بعينيه مصرعه ، وأن الاستشهاد غاية أمثاله من المناضلين الشرفاء :

روحى عبء مثقـــــل عاتقى أبان ألقى العبء عن عاتقى(٤٢)

متى أرانى بت طـــى الثرى يسحقنى بالكلكل الساحق(٤٣)

ســـأحمل روحى على راحتى وألقى بهـــا فى مهاوى الردى(٤٤)

حملت على يدى روحى وقلبى(٤٥)

غايتى ألقى المنـــايا عاجـــــلا(٤٦)

يا ليتنى أشـــلاء فى مهمـــــه مناشة الناعب والناعـــق(٤٧)

لعمـــرك ها قـــد دنا مصرعى وانى آخـــذ أليـــه الخطى(٤٨)

لا أخال العمر الا لحظـــــــة ثم تمضى حيث تمضى هـــربا(٤٩)

---

(٤١) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٥٢ · والأســعد : عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة ٨٠ ·

(٤٢) ديوان عبد الرحيم محمود ١٦٣ ·

(٤٣) الســـابق ١٦٣ ·

(٤٤) الســـابق ١٣١ ·

(٤٥) الســـابق ١٤٧ ·

(٤٦) الســـابق ١٣٢ ·

(٤٧) الســـابق ١٦٣ ·

(٤٨) السابق · وانظر قصيدة فى مجلة الرائد المشار اليها سابقا ·

(٤٩) جرار : شاعران من جبل النار ٢٧٨ ·

وشاء القـــدر أن يكون قرار التقسيم فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ ايذانا ببداية السير نحو تحقيق الغاية المثلى التى رآها الشاعر باحساس ايمانى شفيف ، فقـــد التحق بجيش الانقاذ برتبة ملازم ، واشترك فى معارك متعـــددة كان فيها جميعا مثالا للثبات والبطولة .

وكانت آخر المعارك التى اشترك فيها الشاعر هى معركة الشجرة التى نشبت بين العرب واليهود فى ١٣ من تموز سنة ١٩٤٨ ، وأصيب الشاعر بشظية مدفع ، فحمله رفاقـــــه فى ســـيارة جيب يريدون به المستشفى فى الناصرة ، ولكن السيارة هـــوت به فى واد سحيق ، ففاضت روحه(٥٠) ، وجاءت نهاية كما تمناها وهـــو فى بواكير كفاحه ، من أجل تخليص الوطن ، وتحقيق حريته ، بل كما رآها بحاسه المؤمن من سنوات بعيدة ، وكأنه ينظر الى الغيب من ستر رقيق .

الشـــعر والخـــبر

هـــذه هى مسيرة حياة الشاعر التى استغرقت خمسة وثلاثين عاما كانت مشحونة بالكفاح والمعاناة والآمال والآلام . وقـــد تعمدنا أن نصحب الشاعر فى مسيرة حياته من الخارج ابتداء ، وان كان لنا وقفات لم تطل امام تفاعله مع الأحـــداث والواقع القومى الذى عاصره بكل ما فيه من متاعب وآلام وآمال ، ولكن كل أولئك لا يغنى عن « مسيرة استبطانية » فى أعمـــاق

---

(٥٠) الأعلام للزركلى ٣٤٨/٣ ، ولكن الأستاذ عارف العارف فى كتابه : النكبة : الجزء الثالث (٦٢١ ـ ٦٢٧) ، وقـد كتب كتابة وافية عن هـذه المرحلة الأخيرة من حيـــاة عبد الرحيم لم يشر الى هـذه الواقعة ، وذكر أنه أصيب فى هـذه المعركة برصاصة لا بشظية مدفع . واصح هـذه الروايات ما ذكره أحـد رفاق عبد الرحيم فى موقعة الشجرة وهـو الملازم عبد الرازق المـالكى من ضباط جيش الانقـاذ يقول « ... وتقـدم أبو الطيب (عبد الرحيم) بافراد سريته وادار المعركة وكسر الطوق عن العرب المحاصرين ، وقـد أصيب بقنبلة « سلبند » خلال الزحف ... وفارق الحياة بعـد أقـل من ربع ساعة ، وسحبناه على الأرض وسط رصاص المعركة الكثيف الى قرية « طرعان » القريبة ومنها نقلناه فى سيارة عسكرية الى الناصرة ... وشيع جثمانه من المستشفى الى المقبرة الاسلامية فيها [انظر نافع : الشاعر عبد الحيم ٥٠] .

الشاعر نخلص منها الى صورة نفسية اخلاقية له معتمدين على ما عرف من اخبار حياته ، ودلالات هـذه الأخبار ، ومعتمدين كذلك على شعر الشاعر الذى يعتبره العقاد اصـدق ترجمه لحياته الباطنية(٥١) ، فان أصـدق الشعراء فنا وحياة لمن تعرفه بديوانه ، وتعرفه لديوانه(٥٢) . ولكن الاعتماد فى استخلاص أبعاد شخصية الشاعر من شعره فحسب قـد يؤدى بنـا الى نتائج غالطة ، فمن الشعراء من ينظم الشعر بداعية الانفعال الصـادق الأمين ، والوجـدان المتوهج ، ومن الشعراء من ينظم الشعر تقية دون أن يؤمن بما نظم على حـد قول القائل :

دعـوا باطـلا وجلوا صارما وقالـوا صـدقنا فقلنـا نعم

ومن الشعراء من ينظم قصيده أو بعضه على سبيل « اثبات الوجود » ولشد أنظار الآخرين اليه ، بغض النظر عن الموضـوع الشعرى والقيمة الفنيـة .

وقـد كان العقاد على حـق فى نقـده لأنطـون الجميل فى كتـابه « شوقى شاعر الأمراء » حين استنبط صورة اخلاقية نفسية لشوقى من شعره الذى يطرى فيه الصفات الطيبة والقيم الوطنية والانسانية ، وهـو يتفق معه فى المنطلق الأساسى وهـو صحة الاستدلال على الشاعر من شعره ، ولكنه يخالفه فى التطبيق الخاطىء الذى أخـل بالقاعـدة الصحيحة كـل الاخلال حيث لا يلزم من الثناء على الفضائل اتصاف الشاعر بها : فالشاعر قـد يثنى عليها لاتصافه بهـا ، أو لأنه يحب ان يشتهر بالثناء عليهـا ، أو لحرصه على مجاراة العرف السائد وارضاء الجماهير »(٥٣) .

وامام هـذه المواقف والأحوال لابد أن تستند دراسة هـذا الشعر — لمعرفة أبعاد شخصية الشاعر — الى العامل أو « العوامل المساعدة » كما

---

(٥١) العقاد : ابو نواس ١٤٢ .

(٥٢) العقاد : شاعر الغزل ٧ .

(٥٣) جريدة الجهاد ١٩٣٣/١/١٧ ، واعيد نشره فى : آراء فى الآداب والفنون ٢٩ .

يقـــول التجريبيون ، والتى تتمثل فى شـــهود العصر ، والظروف الاجتماعية والسياسية وبواعث النفس وقرائن الأحـــوال ، حتى نستطيع أن نرى صورة الشاعر بكل ملامحها حية بيننا منتفضة نابضة(٥٤) .

فمن هـــذين المصدرين : الخبر وشعر الشاعر نستخلص ابعاد هـــذه الشخصية التى أرى انها لم تأخـــذ حقها فى التاريخ والتاريخ الأدبى . على أننا يجب أن نتنبه ـــ بادىء ذى بدء ـــ الى أن الاشكال الذى اثاره العقاد ، أو المـــاخـــذ الذى سجله العقاد على انطون الجميل فى منهجه الذى اعتمـــد فيه على الايمـــان المطلق بشعر الشاعر . لاستخلاص سماته الشخصية مع أن حياته فى واقعها قـــد تختلف بل تتناقض مع ما نظمه فى شعره ، أقـــول ان هذه المشكلة لا تقابلنا ونحن نحاول استبطان شخصية شاعرنا عبد الرحيم محمود ، لأننا من البداية الى النهاية لن نجـــد غالبا تعارضا فى حياته بين « الموقف » و « الشعر » .... بين « الواقع » و « الكلمة » ، اذ أن شـــعره فى مجموعة ، وخاصة الوطنى القومى كان انعكاسا لمواقف شامخة أو تعبيرا عن واقع شريف ، أو معاناة دامية . ومواقفه فى مجموعها كانت تجسيدا لقيم عليا عبر عنها فى شعره ، ومن ثم كان « الموقف » متلاحما مع الكلمة المنظومة ، وكان كذلك متسقا متناغماموافقا معها دون ما تنافر أو اختلاف . فاستخلاصنا « سمة » للشاعر من « موقف » يستوى فى القـــدرة والابانة مع استخلاصنا « سمة » للشاعر من « كلمـــة » أو « بيت » أو « قصـــيدة » ... فكلاهمـــا « تعبير مفعول » وكلاهما « موقف منطوق » ان صح هـــذان التعبيران ، وحسب الشاعر أن يكون « الموقف » مرادفا « للكلمة » فى حياته .

الشـــاعر المؤمـــن

والذى يقرأ شعر الشاعر ـــ على قلته النسبية ـــ ويتتبع اخبـــاره فى صفحات حياته ـــ على قلتها أيضا .. يخرج بانطباع قوى مؤداه انه شاعر

---

(٥٤) جابر قميحة ، منهج العقاد فى التراجم الأدبية ٤٤١ ، وانظر عرض القضـــية ومناقشتها بكل جوانبها ٤٣٢ ـ ٤٥٠ .

مؤمن صادق الايمان ، سليم التدين ، قوى العقيدة . فلا عجب أن يرى أن الايمان بمفهومه الشامل هـــو الوسيلة المثلى لتحقيق النصر ، فيقول :

غير أن الايمان بالحـــق والرو ح جـــدير بالنصر جد جـــدير(٥٥)

وفى حياة الشاعر ـــ غير استاذه ابراهيم طوقان ـــ شخصيتان تاثر بهما ، وآمن بمنهجهما فى الحياة ، وكلاهما كان على مستوى رفيع من التدين والايمان بالله ، وهما : عبد الرحيم الحاج محمد الذى جاهـــد عبد الـ حيم محمود تحت لوائه « وتذكر المصادر التى تناولته انه كان قائدا مظفرا ، تقيا ، مؤمنا بربه ، وانه ضم حوله نفرا من المثقفين كانوا له بمثابة المستشارين والأعـــوان المخلصين ، وكان الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود وأحـــدا منهم »(٥٦) . وقـــد استشهد عبد الرحيم الحاج محمد فى قرية « سانور » فى ٢٦ آذار سنة ١٩٣٩(٥٧) .

وفى عبد الرحيم الحاج نظم عبد الرحيم أطول مرثية لـــه ، وفيها يعتز بأن عبد الرحيم الحاج هـــو المثل الأعلى الذى سيظل خالدا أبد الدهر ، لأنه مات ميتة الشرفاء ، ورفض ذل العبيد وحياة الأسر . يقـــول الشاعر مخاطبا القـــائد الشهيد :

يا شهيدا قـــد تخـــذنا قبسا منه يهدينا ألى النهج السديد

مثـــل انت وما أن تنتسى لاتنى ترويك أفـــواه الوجـــود

مت فى الحرب شريفا لم تطق ربقـــــة الأسر ولا ذل العبيد(٥٨)

وقبل عبد الرحيم الحاج كان هناك عز الدين القسام رجل الدين الذى ملأ الأسماع والأبصار فى الساحة الفلسطينية ، والذى بدأ أولى خطـــوات

---

(٥٥) الديوان ١٤٥ .

(٥٦) السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود : هامش ١٢٩ .

(٥٧) السابق نفس الصفحة .

(٥٨) الديوان ١٣٥ .

الجهاد العملي سنة ١٩٣٠ بتنظيمه المسمى « باليد السوداء » ، وقد ذكرنا من قبل أننا لا نستبعد ، بل نرجح اتصال عبد الرحيم بالقسام وتعاونه معه ، وربما كان انخراطه فى سلك الشرطة بدافع وطنى وهو أن يكون عينا لتنظيم القسام وللمجاهدين على سلطات حكومة الانتداب . وكان القسام يرى أن وسيلة الخلاص ، وعدة التحرير تتلخص فى : « جعل كتاب الله فى يد ، والبندقية فى يد أخرى »(٥٩) . فمفهوم الجهاد عنده يرتكز على أساس من الدين الذى يدعو الى مقاتلة الغاصبين والمعتدين . وكما وصف عبد الرحيم محمود نهج عبد الرحيم الحاج محمد بانه « النهج السديد » وصف كذلك نهج القسام بأنه النهج الوحيد للحياة العزيزة الكريمة ... نهج القوة والكفاح واغتصاب الحقوق من سالبيها اللئام :

هذى طريقك للحياة فلا تحد قد سارها من قبلك القسام(٦٠)

وعلى هذا النهج القويم استشهد الثلاثة : عز الدين القسام سنة ١٩٣٥ ، وعبد الرحيم الحاج محمد سنة ١٩٣٩ وعبد الرحيم محمود سنة ١٩٤٨ .

وغير هؤلاء الثلاثة : طوقان والقسام وعبد الرحيم الحاج هناك شخصية رابعة كان لها تأثيرها فى حياة الشاعر وسلوكه — وان كان ذلك على نحو اقل عمقا — وهو الشيخ « محمود حنون » وهو أحد علماء نابلس وشيوخها الأفاضل ، وفيه نظم الشاعر قصيدة المدح الوحيدة فى ديوانه(٦١) .

وقد تعمق الشاعر دراسة الأدب العربى : شعره ونثره دراسة أهلته لأن يقوم بتدريس مادة الأدب العربى فى كلية النجاح وفى العراق ، كما أنه قرأ القرآن وعايشه تلاوة وحفظا ودراسة . وقارىء ديوانه يلاحظ فى وضوح كثرة الألفاظ والتراكيب القرآنية والدينية فى شعره مما سنفصله فى

---

(٥٩) د. عواطف عبد الرحمن : مصر وفلسطين ٢٥٦ .

(٦٠) للديوان ١٤٣ .

(٦١) جرار : شاعران من جبل النار ٣٠٧ .

صفحات قادمات(٦٢) ، وهـــذه الطوابع القرآنية والدينية لا تتـــأتى الا لمـــن كان يحفظ القرآن حفظا جيدا ... حفظ حب واعتزاز نابعين من عقيدة عميقة ، وسلوك دينى سليم .

وقـــد عاش الشاعر طيلة حياته سليم التدين ، يدل على ذلك سلوكه العملى الذى لم تشبه شائبة من فساد أو انحراف وتهتك . وقـــد تعجـــل أحـــد الكتاب الذين كتبوا عن مسيرة الشعر الفلسطينى(٦٣) فحكم على عبد الرحيم « بأنه كان اذا غلبه الأسى لا يجـــد مهربا منه الا الخمر » .

وهـــو ـــ ولا شك ـــ حكم جائر جانبه الصواب ، فليس فى حيـــاة الشاعر ما يدل على انه كان يشرب الخمر أو على الأقـــل ما يدل على ادمانها فالشاعر الذى رصـــد نفسه للجهاد طيلة حياته لا يسقط مثل هـــذا السقوط ، وما أرى الا أن الكـــــاتب قـــد خـــدع « بالخمرية » الوحيدة التى نظمهـــا عبد الرحيم بعنوان « جفت على شفتى الأمانى »(٦٤) والتى يقول فيها :

هات اســـقنى كأســـا لأنسى فـــوق أرضك ما كيـــــانى

هات اســـقنى حتى أحـــــا ق من سمائى فى العنـــــان

وافر من شرك الزمـــــــا ن ومن أحابيـــــل المـــكان

والنص ـــ أى نص ـــ لا يمكن أن ينفرد بتفسير شخصية الشـــاعر واستبطان أعماقه ودروبه ، بل لابد من أن يكون وراءه « توثيق » من أخبار الشاعر ووقائع حياته ، كما ذكرنا من قبل ، وخصوصا اذا كان الشاعر مقلا مثل عبد الرحيم محمود .

واعتقد أن الشاعر قـــد نظم هـــذه القصيدة على سبيل التقليد ،

---

(٦٢) انظر ديوان الشاعر الصفحات ١٢٦ ، ١٣٢، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٦٣ ، ١٨٦ .

(٦٣) خالد على مصطفى : الشعر الفلسطينى الحديث ٥٢ .

(٦٤) الديوان ١٦٨ .

وترسم خطى الأقـدمين مثل أبى نواس وغيره . عى أننـا نكتشف بعـد عـدة أبيات أن الخمر التى يحرص الشاعر عليها هى « خمر الجمال » لا « خمر الدنان » ... جمال العيون والنحور والورود والأقحوان :

هات اسـقنى واجعـل كئو س الراح أفـواه الحسـان
فاذوقهـا ممزوجـة بشذا الهـوى ولغى الحسـان
أو فاسـقنيها فى العيـو ن الموحيـات لى المعـانى
أو فى النحـور البيض تفـ رى فـوق أغصـان لـدان
أو فى كمـام الورد ريـا أو ثغـور الأقحـوان

وهـو معنى تردد مئات المرات فى الشعر العربى قـديمه وحـديثه ، وأذكر منه قصيدة خليل مطران التى قالها فى « الكسندرا دى افرينوه » ومطلعهـا :

يا عيونا تسقى العيون الرحيقـا واصلى مدمنا أبى أن يفيقـا
اسكرينى على الدوام وأفنى مهجتى أدمعـا وعزمى حريقـا
تلك خمر الحياة من لم يذقها مرة ليس بالحياة خليقـا(٦٥)

وان من يقرأ شعر عبد الرحيم ويتابع تفاصيل حياته يشعر بل يؤمن أنه لم يخلق لمثل هـذا العبث وذاك التهتك ، ويرى أن هـواه لغير ابنة العنب وأن نشوته بشىء آخر غير الكأس فهو يقول :

لغير فؤادى بابنة الكرم سـكرة وسلوى،وغيرى هام فى عطر الريق
وما سكرى الا دم الظلم مهـدرا ومن لحمه نقلى وفى الصحف ابريقى
ولم يكن الظـل الظليل بمقعـد لنفسى فنصل السيف يعلو مجاميقى(٦٦)

---

(٦٥) ديوان الخليل ٤٧/١ .

(٦٦) جرار : شاعران من جبل النار ٣٢٥ . والنقل (بضم النون) ما يؤكل على مائدة الشراب . ولعل الصحيح : الصفح (بصم الصاد) جمـع صفيحة وهى السيف العريض ، لا الصحف .

مفهـــوم الوطـــن

ويندرج تحت هـــذه السمة ـــ سمة الايمان بمفهومه العقدى والسلوكى ـــ ايمان شاعرنا بوطنه ، وقضية خلاصه من الطغاة والبغـــاة مهمـــا كانت التضحيات ، وهـــو ايمان يحكمه نقـــاء ثورى عتيد ، يتلخص فى أن يكون الوطن هـــو الأيديولوجية الأولى والأخيرة بل الوحيدة للمناضل . والوطن فى ايديولوجية عبد الرحيم محمود مفهوم له شقان :

الأول : مادى : ويعنى الأرض التى يعيش عليها أصحابها .

والثانى : معنوى : ويعنى الفكر والعقائد والتراث الانسانى الـــذى نشأ على هـــذه الأرض على مدى قرون طـــويلة نتيجة الجهـــد والجهاد والمعاناة . وهما شقان يمثلان وجهين لعملة واحـــدة ، بحيث تصبح محاولة الفصل بينهما عملا مناقضا لطبائع الأشياء ، وانسلاخا من النضال والثورية .

والعقل لا يستسيغ ، ولا يستطيع أن يؤمن « بمناضل » يدعى الايمان بالأرض ، ويكفر بما قام عليها من تراث ، وأشرق عليها من رســـالات ، وارتبط بها من قيم فكرية .

ولعـــل آفة النضال الفلسطينى فى وقتنا الحاضر هـــو ارتباط هـــذا النضال ـــ بالنسبة لبعض المنظمات والأفراد ـــ بأيديولوجيات وافدة غريبة ... غريبة على تراثنا وأرضنا ودينا ، وغريبة على مزاجنا النفسى ، وتكويننا الفكرى ، وأسوأ ما فى الأمر أن يكون لهـــذه الأيديولوجيات شعراء يرفعون أصواتهم بالدعوة لهـــا ، وبثها على كل المستويات بحيث يمتزج صوت الكفاح الفلسطينى ، وخصوصا بعـــد نكسة ١٩٦٧ بهـــذه النزعة الوافدة الغريبة . وخطورة هـــذا المزج تتضح اذا ما نظرنا الى الملامح والحقائق الآتية :

١ ـــ المزج بين المســـيرة النضاليـــة وهـــذه الأيديولوجيات ـــ وهى يسارية ماركسية فى طابعها العام ـــ يعـــد صراحة أو ضمنا انفصاما فادحا عن التراث الدينى والفكرى ، لأن ثمة نوعا من الالتزام الفكرى المناقض لهذا

التراث فى مناحيه وفروعه المختلفة ، وخصوصا اذا تلبست هذه الأيديولوجيات بطـــوابع الحـــادية .

٢ ــ أصحاب هـــذه الأصوات فى شعرهم وانتاجهم الأدبى ينسون أو يتناسون أن جريمة اليسار الشيوعى العالمى لا تقل عن جريمة المعسكر الرأسمالى فى خلق اسرائيل وتدعيمها ، فهى اذن أصوات تتسم بالغفـــــلة أو التغـــافل .

٣ ــ على أن اهم مخاطر هـــذا الاتجاه أنه يبدد جانبا من الطـــــاقة الثورية فى صورتها الفنية والنضالية ، ويسوقه فى درب غير درب القضية القـــــومية .

٤ ــ وأخيرا يفقد هـــذا المسلك القضية الفلسطينية توامها وشخصيتها وملامحها القومية الخاصة الأصيلة ، لأنه يربطها بفكرية بعيدة غريبة تمخضت عن مفاهيم ممسوخة مشوهة للعـــدل والأرض والقومية والسلام والانسان .

وتلك كانت السقطة الكبرى التى سجلت على الثلاثى : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد مما يفتح الباب لكلام كثير جـــدا فى تقييم الطبيعة الثورية لهؤلاء(٦٧) ، اذ أن شعرهم لم يكن معرضا للفكر المـــاركسى الحـــاد فحسب ، ولكنه كان كذلك معرضا للسخرية من الذات الالهية والســـخرية من النبوات(٦٨) .

كان لابد من هـــذا الاستطراد لنتبين فى وضوح حـــدود الايمان الوطنى الثورى عند عبد الرحيم محمود بعـــد أن أصبح صوت الثلاثى الفلسطينى : درويش والقاسم وزياد هـــو أرفع الأصوات وأعلاها رنينا وصـــدى فى

---

(٦٧) انظر مقالنا عن عبد الرحيم محمود فى مجلة الرائد الكويتية .

(٦٨) انظر د. عبده بدوى : « وجهة نظر فى الشعر الفلسطينى المعاصر » وهـو مقال فى مجلة الشعر . العـدد ٢٧ يوليو ١٩٨٢) .

وانظر : جابر قميحة « لكى لا تحترثوا فى البحر » مقال فى مجلة الرائد الكويتية . العـدد : ١٥٩ السنة الرابعة (١٣ من ديسمبر ١٩٧٣) .

الستينيات والسبعينيات بصفة خاصة ، وننؤكد فى يقين أن ايمان الشـــاعر بالوطن كان ايمان الثائر العربى النقى فى ثورتيه ، فالوطن ـــ فى منظوره ـــ كما ألمحت سابقا ـــ أرض وتراث وفكر ومعاناة ، وعظمتنا على مدار التاريخ ، ونبل قضيتنا وحقنا الذى ندافع عنه ينبعان بصفة أساسية من أننا أصحاب رسالة : قامت لتحق الحق ، وتبطل الباطل ، وتنشر النور ، وتنصر الضعيف ، وتجبر الكسير :

نحن لم نحمل السيوف لهدر ... بل لاحقـــاق ضائع مهـــدور
نحن لم نرفع المشاعل للحر ... ق ولكن لهـــدى والتنـــوير
نحن لم نطعن الضمير ولكن ... بقنانا احتمى طعين الضمـــير
كان فينا نصر الضعيف المعنى ... وانجبار المحطم المكســـور(٦٩)

وتأسيسا على هـــذه الرسالة الانسانية التى تضرب بجـــذورها فى أعماق التاريخ ، والتى أنقـــذت العالم من الجهل والظلام يجب أن يكون للعربى شخصيته المستقلة ، وكيانه المميز فى فكره وعمله ولغته ، فلا يتمرغ فى تراب الغرب ، ولا يلغى شخصيته بالتقليد الأعمى ، لأن هـــذا التقليـــد لطمة للأصالة ، واعتراف ضمنى بالنقص الذاتى · ومثل هـــذه الشخصية المرعوشة المنكوسة أضاعت بالتقليد الأعمى هويتها : فلا هى عربية تعتز بأصالتها ، ولا هى غربية الوجود والثقافة والكيان على نحو مميز ، انمـــا هى نسخة مهزوزة ممسوخة من مشارب متناقضة ليس بينها اتساق وانتظام ، وقـــد رسم الشاعر صورة هؤلاء منكرا على العرب هـــذا الضياع الارادى بالتقليـــد الأعمى :

أبناء عمى من نزار ويعـــرب ... ليسوا بأعراب ولا أعجـــام
يترسمون الغرب حتى يوشكوا ... أن يعبدوه عبادة الأصـــنام
ما قلدوهم مبصرين وانمـــا ... تبعوا نظامهم بغير نظام(٧٠)

---

(٦٩) ديوان عبد الرحيم محمود ١٤٦ ·

(٧٠) الديوان ١٣٣ ·

والشاعر هنا لا يتعصب للعرب والعروبة تعصبا يعميه عما فى الغرب من محاسن ومظاهر طيبة فى المجالات العلمية مثلا ، فملاحقتنا للغرب فى ذلك ، وتقليدنا اياه مطلب حيوى يجب أن نحرص عليه ، وهـــذا هو « التقليـــد المبصر » الذى لم يجـــده الشاعر عند « بنى عمومته » . انما يشدد الشاعر نكيره على التقليد الأعمى ... تقليد الغرب فى المظاهر الجوفاء ، وقشور المدنية ، ومفاسد الأخلاق ... ظنا منهم أن هذا هو جوهر المدنية والتقدم ، وهـــذه هى آفـــة الشرق التى لم يتخلص منها حتى الآن ، ومثل هـــذا التقليد الأعمى يلغى الشخصية العربية ، بفصلها عن جـــذورها الأصيلة ، لذلك كان الشاعر دائما يعتز بعروبته ، ويفخر بأجـــداده العرب ، بل يجـــد فى هـــذا النسب مفخرته الكبرى :

فأنا الفخـــور بأننى لا ينتمى ... للعجم أخـــوالى ولا أعمـــامى

ان تسألوا عنى الى من أنتمى ... فالى رعاة النـــوق والأغنـــام

أبغير مجد بنى نزار ويعرب .. ... يزهى عراقى ويفخـــر شامى(٧١)

ولا عجب فى ذلك ففجر التاريخ العربى كان فجر العزة والاباء ، وهى حقيقة تاريخية يؤكدها الشاعر فى احـــدى بواكير قصائده اذ يقول :

العرب ما خضعوا لسلطة قيصر ... يومـــا ولا هانوا أمام تجـــبر

لا يصبرون على أذى مهمـــا يكن ... والحر ان يسم الأذى لم يصبر(٧٢)

اللغـــة المظـــلومة

والعربية الفصحى هى تراث المـــاضى ومجـــد الحاضر ، بقيت على الدهر ، وسارت مع الزمن ، بحيث أضحت لغة قـــديمة وحـــديثة ، تجمع

---

(٧١) الديوان : نفس الصفحة .

(٧٢) الديوان ١٢٦ .

بين التليد والطارف وتربط الناطقين بها بأوثق رباط ، وقل أن تلتقى معها فى هـذا لغة أخرى(٧٣) فعاشت طوال القرون ركيزة قوية لوحـدة الفكـر والعقيدة ، وترسيخ الحضارة الاسلامية والقيم الأخلاقية وحفظ التراث العربى والاسلامى .

لذلك كانت العربية هـدفا للمستعمر دائما ، يحاول أن يزيحها ليحـل لغته مكانها ، ومن أهم وسائله فى ذلك الدعوة الى احياء « العامية » لأن القضاء على الفصحى لا يعنى قضاء على لغة قومية فحسب ، ولكنه يعنى خلق انفصام منكود بين العربى وبين دينه وكتابه الـذى نزل بلسان عربى مبين ، ويعنى كذلك فصل العرى عن تراثه المحفوظ بهـذه اللغة .

وكان المستعمر من الذكاء بحيث جعل اعلان الحرب على الفصحى يتم بوساطة « عرب » يتكلمون العربية ويتهمونها بالفقر والقصور وانصعوبة والتعقيد « مع أن القصور فى الواقع هـو قصور العرب لا قصور العربية ، فقـد استطاع أجـدادنا أن يؤدوا بلغتهم ثقافة استرعت الأنظار ، وكانت موضع تقـدير واعجاب فى الشرق والغرب(٧٤) ، وعاشت العربية على مدار الزمن لغة الدين والدنيا والعبادة والسياسة(٧٥) .

وفى هـذا الفلك سبحت دعوات مفكرة تدعـو الى كتابة العربيـة بالحروف اللاتينية ، وأخرى تناصر العاميات وتدعو لاحيائها واتخاذها لغـة أدب وخطابة وكتابة ، ولكن كـل هـذه الدعوات لم يكتب لهـا النجاح ، وثبت ضعفها وتهافتها واخفاقها مع الأيام .

وانطلاقا من ايمان الشاعر بوطنه وعروبته يؤكد أن العرب لـن يستردوا مجـدهم الأثيل ومكانتهم المرموقة الا اذا انتصر العرب للغتهم ؛

---

(٧٣) د. ابراهيم بيومى مدكور : فى اللغة والأدب ٥٤ .

(٧٤) السـابق ٥٦ .

(٧٥) أنظر السابق ٥٩ .

ورفعوا بناءها ، وكشفوا عن كنـــوزها الدفينة ، وانتفعوا بها فى أدبهم وحديثهم ، ففيها الغناء كل الغناء(٧٦) .

ميدان القتال وساحة العلم

الايمان بالله ، والايمان بالدين ، والجهاد فريضة فيه ، والايمان بالوطن أرضا وتراثا وانسانا وعروبة ولغة كان أيديولوجية هـذا « الثائر النقى » . ومن البدهى أن تكون مثل هـذه الشخصية متوثبة الروح ، مطبوعة على التمرد ورفض كل ما يتعارض مع هـذا الطابع الايمانى العميق بمفهومه الواسـع الشامل . أما الموت فلا يمثل فى نظرها عائقا ، ولا يوحى برهبة ، بل رأينا الشاعر يستحث الموت ، ويطلب الشهادة ، ويلح فى نشدانها ، فهو ـ كما يقول ـ غايته التى يسعى للقائها « فى مجالى العـلم أو سـاح النضـال »(٧٧) .

وحرص الشاعر على أن يلقى المنايا فى ساح النضال وميادين الوغى أمر لا يدعو للغرابة من مجاهد صادق مثله ، ولكن الذى يدعو الى الاستغراب حقا هو نشدانه الموت « فى مجالى العلم » . ولكن استغرابنا يزول اذا ما استعدنا ما ذكرناه من قبل من منهجه فى تدريس اللغة العربية والأدب العربى لطلابه ، فهو لم يكن « معلما تقليديا » من أولئك الذين يؤدون مهمتهم التعليمية فى حـدود « الدرس المقرر » و « المنهج الرسمى » ، بل كان يتخـذ من درسه منطلقا لبث روح الثورة فى نفوس طلابه ، وخصوصا فى مدرسة النجاح التى كانت تتمتع بحرية فى وضع مناهجها وبرامجها ، وكان ـ كما كتب أحـد طلابه عنه « يلقن تلاميذه دروسا فى الوطنية والقومية ، وكان فى أثناء تلك المدة مثال المعلم الصادق المخلص لأمته وبلاده »(٧٨) .

---

(٧٦) راجع قصيدة الشاعر « بين الشرق والغرب » ص ١٣٣ من الديوان .

(٧٧) الديوان ١٣٢ .

(٧٨) عن السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٢٤ .

فحقل التعليم فى نظره مجال من مجالات النضال ، والمدرسة فى نظره « معهد اعـــداد وتهيىء » للجهاد والكفاح المسلح ، وذلك بزرع بذور الوطنية والثورة فى نفوس الطلاب استعدادا لكفاح دائب ضد اليهود وحكومة الانتداب . ولا شك أن مسلك عبد الرحيم محمود ، ومنهجه الثورى فى التعليم لم يكن خافيا على حكومة الانتداب ، وربما هـــدد فى عيشه وربما هـــدد ـــ بسبب منهجه هـــذا ـــ بلسان الحال أو لسان المقال ـــ فى حياته ، فجاء قوله هـــذا ردا على واقع عاشه أو شعر به :

غايتى ألقى المنـــــايا عاجلا فى مجالى العلم أو ساح النضال

ولا عجب فى ذلك فقـــد جعل الشاعر من مدرسة النجاح « حقل علم وساحة نضال » ، فبعـــد عودته للمرة الثانية الى كلية النجاح أخـــذ يعلم طلابه فيها مادة اللغة العربية وتاريخ الحضارة العربية بالاضافة الى التربية الرياضية البدنية ، ولا غرابة فى ذلك ، فقـــد لقنت الجنـــدية والعسكرية شـــاعرنا مهارات بدنية وقـــوة رياضية أحب أن يستغلهما فى تدريب طلبته للدفاع عن أنفسهم بتربية أجسامهم بالاضافة الى عقولهم(٧٩) .

الثـــائر المتمـــرد

لقـــد كان من أعلى الأصوات وأقواها فى شعره صوت التمرد والنقـــد المر لكل ما يتعارض مع القيم الانسانية والخلقية والوطنية . فهو يقول فى مرارة ونقمة وسخرية لمن يقعد عن الجهاد ، وأداء ضريبة الدم فى ســـبيل تحرير الوطن :

أتقعد والحمى يرجـــوك عـــــونا وتجبن عن مصاولة الأعـــادى
فـــدونك خدر امك فاقتحمـــه وحسبك خسة هـــذا التهـــادى
فليس أحط من شـــعب قعيد عن الجلى وموطنه ينادى(٨٠)

---

(٧٩) جرار : شاعران من جبل النار ٢٣٣ .

(٨٠) الديوان ١٤٣ .

ويحمل حملة شعواء فى قصيدته « عبد الجامعة العربية »(٨١) وهى من أقوى قصائده على الاطلاق — على الزعماء والقواد العرب الذين تفرقوا وتخاصموا ، وتقطعت منهم الأرحام ، وملئوا الدنيا بالتهويش والايهام ، ويرى أن مسئولية الضعف والضياع تقع علينا لا على المستعمر الفازى :

انا بأيدينا جرحنا قلبنا ... وبنا الينا جاءت الآلام

فينا عن الحب المجمع جفوة ... ولنا بصحراء الخصام هيام

والخطب فرقنا قبائل جمة ... والخطب عند عداتنا لمام

يا قادة الا الذين أجلهم ... عما يذم وقد عداهم ذام

نحن الضحايا لا نريد مثوبة ... وأقلها التعريف والاعلام

أو ليس من دور نلهى به ... الا وداع حافل وسلام

وهذا النزوع الثورى التمردى لم يكن فى مواجهة المستعمر الانجليزى أو الصهيونى فحسب ، بل فى مواجهة كل ظالم أيا كان ، كما أنه لم يكن فى نطاق وطنه فلسطين فحسب ، بل كل مكان ينزل به ، ولننظر الى الأبيات التالية من قصيدة مفقودة نظمها فى العراق سنة ١٩٤١ يحمل فيها على هؤلاء الذين يستأثرون بتمور العراق على حساب الفقراء المطحونين ، ويتمنى الشاعر ثورة كثورة الزنج تقضى على هذا الاستغلال :

يقال البصرة اشتهرت بتمر ... سلوا هل يملك الفقراء تمره

هناك على جناح العز ناس ... وناس من معاوزهم بفمره

فهل أمر الزنوج له معاد ... وكم شىء كرهت حمدت أمره(٨٢)

---

(٨١) الديوان ١٤١ .

(٨٢) الديوان ١٥٣ .

ويقرر الشاعر أنه يعيش حياته وهمه الأكبر فيها ان يكون حربا على الظلم والظالمين واللصوص والمستغلين ، ولو كلفـــه الاضطلاع بهذه الرسالة حيـــــاته :

جعلت نضال الظلم همـــا وديدنا　　لأن به حلت لدى المعاضـــل

فأحببته حبى الحياة لفضـــله　　على ، ولا تنسى لدى المفاضـــل

فان عاش فى أرضى لصوص وزمرة　　فانى فدى أرضى أعود اناضل(٨٣)

وقـــد رأينا كيف كان اعتزازه بالعربية الفصحى ، وكيف كانت نظرته اليها نظرة تمجيد وتقـــديس حتى أنه يرى أن استعادة العرب قـــــوتهم وأمجادهم ومكانتهم المفقودة لن تتحقق الا باحياء الفصحى ، والحفاظ عليها ، والاعتزاز بها ، من اجل ذلك يحمل أيضا فى تهكم وسخرية على هؤلاء الذين يطعمون حـــديثهم العربى بكلمات اجنبية ، يلوون بها السنتهم ، اعتقادا منهم أن ذلك مظهر من مظاهر المدنية والتحضر ... بل تبلغ نقمة الشاعر على أمثال هؤلاء الى حـــد أنه يجردهم من انتمائهم للعرب والعروبة فيقول :

لا أعـــرف العـــربى يلوى فكه　　ان هم يومـــا فـــكه بـــكلام

ان فاه تسمع لكنـــة ممقـــوتة　　من فيه سكسونية الأنفـــــام

لفظا من الفصحى وآخر نابيا　　كالفاز ممزوجا بكأس مدام(٨٤)

حيـــاة بلا وســـطية

ومثل هـــذه الروح المتوثبة المتمردة لا تعترف فى الحيـــاة بمـــا يسمى «الوسطية» أو الحلول الوسط ، فهى دائما تنشد الكمال فى كل شىء ، وتحرص

---

(٨٣) جرار : شاعران من جبل النار ٣٢٣ ٠

(٨٤) الديوان ١٣٣ ٠

على تحقيق « الصورة المثالية » فى كل مجالات الحياة مهما كان الثمن ، ومهما كانت التضحيات . وقـد رأينا كيف كان الموت هـو « تسبيحة » الشاعر وترنيمته التى يتغنى بها ويتغياها أبدا ، لا يطلبه فى ساح النضال فحسب ، بل يا حبذا الموت أيضا فى مجالى العلم .

وطلب الموت هنا لا يمثل هروبا باليأس ، أو استسلاما لضعف أو انهيار نفسى أمام مصاعب الحياة ومصائبها ، ولكنه نشدان للكمال النفسى والروحى بالاستشهاد ، ورفض لحياة لا يرى فيها الشاعر « المثالى المنشود » ، فمفهوم السعادة عنده لا يتحقق الا بتحقق جوهرها الانسانى من الاحساس الحقيقى بقيمة الوجود ، وتحقيق أمانينا و « رغائبنا الحائرة » ، ولا يكون ذلك الا بتحقيق أهم قيمة انسانية لا يكون الآدمى انسانا الا بها ، ولا تكون الأمة امة لهـا وجود حقيقى وكيان محترم بين الشعوب الأخرى الا اذا تمتعت بهـا ... انها الحرية ... الحرية الكاملة التى يكون لها وجودها الفعلى :

اذا ما صهرنا قيـود العبيد بنار من القـوة القاهرة(٨٥)

وهـو يؤثر الموت الساحق الزؤام على حياة تختل فيها المعايير ، وتغيب فيها القيم والعـدل الاجتماعى ، وتكون السيادة فيها للصوص والفجرة والأفاقين . وتبدو روح هـذا الرفض فى قصيدته التى يقول فيها :

متى أرانى بت طـى الثرى يسحقنى بالكلكل السـاحق
وأغمض العينين عن عـالم لا يعتلى فيه سـوى الفاسـق
يحظى به الكذاب بالمشـتهى والتعس للمخلص والصـادق
الخبز والخبز غـدا حسـكرة لبعضـهم والويل للسـارق
هم أوجدوا السارق من حاجة وقيل هـذى قسمة الخـالق
يا منطقا لم يرو عن عاقـل العى خـير منـه للناطـق
قد محق العـدل فلا عـادل اما لأهـل الأرض من ماحـق(٨٦)

---

(٨٥) الديوان ١٥٩ .

(٨٦) الديوان ١٦٣ .

غـــربة نفســـية

ويرى الشاعر حمالا ميتا وبجانبه سله وحبله على قارعة الطريق فى مدينة حيفا ، والناس يمرون به فلا يابهون لمنظره(٨٧) ، فيروعه ما يرى ، ويتخـــذ من هـــذه الواقعة منفـــذا لنقـــد المجتمع كله فى قيمه المهترئة ، حيث يضيع فيه الفقير البائس ، ولا قيمة فيه الا لكل قوى ذى غلبة وسلطان :

والناس مـــــذ كانوا ذوو قسوة ... وليس للبائس فيهم نصـــيب

لو كنت فى حبـــلك شـــناقهم ... لولولوا حزنا وشـــقوا الجيوب

أو كنت من ســـــــلك رزاقهم ... لقـــام عند السل الفـــا خطيب

وتبلغ نقمة الشاعر على هـــذا الاختلال الاجتماعى حـــدا يزهـــده فى « أثواب الحرير القشيب » ويكره « الغصن الطرى الرطيب » ويضـــــيق « بالصوت الحنون الطروب » ، ويزهـــد فى هـــذا المجتمع الذى تعرى من الرحمة ، وعاش بقلب « جاف جـــديب » ، ويأتى حكمه أو قراره الحاسم فى نهاية القصيدة :

انى من النـــــــاس ولكننى ... فى رقتى عنهم بعيـــد جنيب

انه الشعور الحاد بالغربة النفسية التى عبر عنها ابن الرومى بقوله :

أعاذك انس المجد من كل وحشة ... فانك فى هـــــذا الأنام غريب(٨٨)

والاغتراب هنا ليس اغترابا عن طريق الرحيل وانما هـــو اغتراب روحى يتمثل اكثر ما يتمثل فى عـــدم التكيف الاجتماعى والنفسى(٨٩) أى أن الاغتراب

---

(٨٧) انظر القصيدة ص ١٦١ من الديوان ٠

(٨٨) ديوان ابن الرومى ١٥٨/١ ٠

(٨٩) ماهر حسن فهمى : الحنين والغربة فى الشعر الحـديث ١١٠ ٠

هنا « شعور » وليس « سلوكا » ... شعور مصدره ما يصطدم به الشاعر من مفارقة هائلة بين الموجود والمنشود ... بين الواقـــع والمثال ... بين ما هـــو كائن ، وما يجب أن يكون ، وخصوصا أن الفترة التى عاشـــها الشاعر تمثل مرحلة ساد فيها « الاهتزاز والتبدل فى كل اتجـــاه : فى الملبس فهو شرقى وغربى ، وفى الأطعمة والأشربة ، وأسلوب تناولها ، وفى الاتيكيت أو فن المعاملة والتصرف ، وفى سماحة الحياة وتكلفها ، وفى القيم الدينية واللادينية وفى التقاليد من محافظة وانطلاق ، وفى المدارس من دينية ومدنية وأوربية ، وما يستتبع ذلك من أنماط مختلفة فى الثقافة وفى التفكير »(٩٠) ، ومن ثم كان هـــذا الشعور بالغربة النفسية فى ذاته يمثل لونا من الاحتجاج على كل ما يراه من اهتراءات فى المجالات الاجتماعية والسياسية ، جسدها الشاعر فى نقـــده الغاضب الناقم على مثل هـــذه الأوضاع ، ولم يتجسد هـــذا الشعور فى هروب واقعى من دنيا الناس شأن المتصوفة الذين يهربون الى الصوامع والمحابس ، فرسالته النضالية التى اضطلع بها تلزمه أن يعيش مع الناس ويعايشهم فى شتى مجالات الحياة .

ولم تنعكس هـــذه الروح الرافضة فى شعر الشاعر فحسب ، بل فى كتاباته أيضا « فكان يدون مشاهداته فى مذكرات داب على تدوينها يوما فيوما ، وكان فيها كما كان فى غيرها من الحالات صريحا للغاية ، تقيا ، وكثيرا ما وجه سهام لومه وتقريعه للرؤساء الذين شغلوا أنفسهم بالقشور »(٩١) .

منهـــج فى النقـــد

ونلاحظ ــ وهـــذه حسنة من الحسنات الفنية للشاعر ــ انه فى تنـــديده بالأوضاع الاجتماعية ، وتشديده النكير على القيم الفاســـدة يلجـــأ أحيانا الى اسلوب التعريض والتعبير غير المباشر ، كما رأينا فى قصيدته عن الحمال التى نقـــد فيها النفاق والنفعية والأثرة والظلم الطبقى ، وكما نرى

---

(٩٠) الســـابق ١٠٨ .

(٩١) نقلا عن السوافيرى : ديوان عبد الرحيم (الدراسة) ٣٢ .

فى قصيدته التى نظمها على ألسنة العمال بعنوان « نحن المصادر والموارد »(٩٢) ومنهـــا :

ان اسمنا العمـــال لا نلـــ ـهو بلغـــو عن مقاصـــد

نقضى على حـــد الأســـ ـة لا النمـــارق والوســـائد

لسنا كمـــن يهـــذى على الـــ ـلأعـــواد بالخطـــب الرواعـــد

ففى الأبيـــات تعريض قارع باللاهـــين الذين يعيشـــون بالأصـــوات الا الأفعال ، والكلمات لا الأعمال ، وهـــؤلاء الذين اتخـــذوا الحيـــاة لهـــوا وزينة ، وراحة واسترخاء ، واكتسب هـــذا التعريض قـــوة بهـــذه المقابلات التى أبرزت المفارقة الفادحة بين من يعملون ويعيشون للوطن ، وبين من يتكلمون ويعيشون بالوطن ، وفى هـــذا النقـــد المر تجنب الشاعر الأسلوب التصريحى المباشر ، « فالتصريح ووضوح الذاتية عـــدوان من أعـــداء الفن ، والجرى وراء التعبير بالآهات والتعجب أو الأوصاف المباشرة يخرج بالعمل الشعرى عن نطاق الجمال ، ويجعله تقريريا ، ويذهب بأثره »(٩٣) ٠

الحـــب فى حيـــاته

ونحن وان كنا نؤمن أن الشاعر ليس فى حياته قصة حب كبيرة شأن كثير من الشعراء ٠٠٠ قصة حب تتعمق مشاعره ، ويفيض بها وجـــدانه بما فيها من معاناة وآلام وآمال ٠٠٠ ومع ايماننا بأنه نظم أغلب غزله ـــ ان لم يكن كله ـــ على سبيل التقليد ـــ مما سنعرض له فيما بعـــد ـــ الا اننا نلحظ أنه فى أغلب هـــذه الغزليات ٠٠٠ أو هـــذه الوجـــدانيات الغزليـــة لا نعـــدم فيه سمة « الثائر الرافض » ، بل لا أغلو اذا قلت انهـــا النغمـــة

---

(٩٢) الديوان ١٥٦ ٠

(٩٣) د٠ محمد غنيمى هلال : قضايا معاصرة فى الأدب والنقد ٦٠ ٠

العالية الغالبة على أغلب هـــذه الغزليات ، قد عجب أن تكثر فيها « الأوامر » الصارمة الموجهة الى « حبيبته » !! ، ومنها على سبيل التمثيل :

دعينى فلا قلبى عليك بعاطف حنانا ولا دمعى لدى فرقة هامى(٩٤)

روحى فقد راح الذى بيننـــا كالبارح السالف ما أن يعـــود

روحى ولا تأسى على حالتى وانسى مواثيقى وخونى العهود(٩٥)

روحى فمـــا الاشراك من مذهبى ولست أرضى فى حبيبى الشريك(٩٦)

روحى فقد راح الذى بيننـــــا ولهفة الحب وقلبى عليـــك(٩٧)

اسمعى يا من ــ لقـــد خنت عهـــد الهـــوى ونسيت أو تناسيت الودادا(٩٨)

اسمعى لا تذكرى المـــاضى فلا رجع المـــاضى ولا البارح عـــادا

ودعى ــ لا تقرئى من صفحة قد جعلنا ابيض الماضى سوادا(٩٩)

فنحن لا نلتقى فى هـــذه الأبيات ــ وغيرها كثير ــ بشاعر محب ، تشرب الحب كيانه ، واستغرق نفسه شعورا وتعبيرا ، ولكننا أمام انسان تحكمه « كبرياء الجندى » و « تمرد الثائر » الذى يعصف بكل ما يتعارض مع كرامته ، ويخـــدش شموخه ، انها مشاعر يحكمها منطق الرفض الحاد فى شدة وصرامة ، وليست مشاعر المحب الحانى الذى « يذوق ظلم الحبيب كظلمه حلوا » .

---

(٩٤) الديوان ١٨٥ .

(٩٥) الديوان ١٧٤ .

(٩٦) الديوان ١٧٤ .

(٩٧) الديوان ١٧٥ .

(٩٨) الديوان ١٨١ .

(٩٩) الديوان ١٨١ .

تمـــرد موروث

هـــذه الروح المتوثبة الثائرة ليست بدعا فى محيط الأسرة ، فالشاعر يصدق عليه المثل المشهور « من شابه اباه فما ظلم » ، لقـــد كان أبوه عالمـــا شاعرا ، نقادا جريئا فى نقـــده ... صريحا فى اقواله ، « وقـــد عرف عنه حبه للحق ودفاعه عنه »(١٠٠) ، وله مواقف تدل على قـــوة شكيمته ، وقـــوة عارضته وشدته فى نقـــده ، من ذلك خصومته الشديدة لمعاصره الشاعر الشيخ يوسف النبهانى (ت ١٩٣٢) ، والسبب فيها انتقاد الأخير لبعض علماء الحنابلة بقسوة وتناولهم بالتجريح ، وقـــد هب الشيخ محمود يدفع الهجوم عن علماء مذهبه ، فقال فى الشيخ يوسف هجاء مرا لاذعا .

ومن قصصه المشهورة هجاؤه للقضاة والمسئولين وبعض الوجهاء فى فلسطين ابان حكم الأتراك ، وقصيدتاه الشينية عن احـــد القضـــــاة فى بنى صعب ، والرائية فى أهل الناصرة تشهدان على ذلك .

كما نقـــد أهـــل نابلس وهجاهم بسبب تعصبهم لسكان المدينـــة وتقليلهم من شأن أهل القرية اى الفلاحين(١٠١) .

فشخصية الوالد الذى توفى سنة ١٩١٩ كانت شخصية فاعلة ذات حاســـة قـــوية ناقـــدة لا ترضى بالخنـــا ، ولا تغض الطرف عن عيب أو نقيصة . ولا شك أن الأب قـــد ترك بصمات هـــذه الروح القـــوية — فى حياته وبعـــد مماته — فى نفس ابنه عبد الرحيم فصار له نفس الطابع فى نقـــده المر للأوضاع الفاسدة والزعامات والقيادات المهترئة ممـــا عرضنا — ونعرض له — فى دراستنا هـــذه عن الشاعر .

---

(١٠٠) جرار : شاعران من جبل النار ٢٣١ .

(١٠١) انظر فى تفصيل ذلك وشواهده كتاب نافع عبد الله عن الشاعر من ص ٣٩ الى ص ٤١ .

ثقـــافته وأبعـــادها

واستكمالا لملامح شخصية الشاعر نختم الفصل بعجاله عن البعـــد العقلى والعلمى والحـــدود الثقافية للشاعر . وقـــد كثر الكلام فى هـــذا المجال ما بين موجز يمر مرور الكرام كالدكتور السوافيرى الذى يذكر ان عبد الرحيم « قـــد أتيح له أن يعب من معين الثقافة الصافى فى مدرســـة النجاح الوطنية .. »(١٠٢) ، ويحـــدد الكاتب هـــذا المطلق العام بأنه « قسط من علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها ، وتفهم نصوصا مختارة أحسن اختيارها مدرسو اللغة العربية بالمدرسة .. »(١٠٣) وبعـــد ذلك ـــ كما يبدو من آثاره ـــ « قرأ كثيرا من مؤلفات اعلام الأدب ودواوين فحول الشعراء فى العصور المختلفة(١٠٤) » .

فالدكتور السوافيرى يرى أن ثقافة الشاعر ، أو القـــدر الأكبر منها يكاد يكون محصورا فى نطاق الثقافة العربية وخاصـــــة الكلاسيكى منها ، ولا تكاد تتعـــدى هـــذا النطاق ، وهـــذا طبعا زيادة على حفظه القرآن الكريم ، « فقـــد كان الشاعر مفتونا ـــ منذ طفولته ـــ ببيان هـــذا الكتاب العظيم وبلاغته ، فاستخدم فى شعره كثيرا من ألفاظه وتعبيراته »(١٠٥) .

ونضيف الى ذلك ايضا ما اطلع عليه الشاعر مما نظمه الشعراء فى الوطن العربى ، فى مصر والشام والعراق والمهاجر ، ومتابعته ـــ بقـــدر ما تصل اليه يداه ويتسع له وقته ـــ للكتابات النقـــدية والمعارك والمساجلات الأدبية فى البلاد العربية .

* * *

---

(١٠٢) السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٣٧ .

(١٠٣) الســـابق ٣٨ .

(١٠٤) الســـابق ٣٩ .

(١٠٥) جرار : شاعران من جبل النار ٢٣٦ .

لاخلاف فى كل اولئك ، فشعره يؤكد فعلا أن ما ذكر يمثل أهم منابع ثقافته ، ولكن وليد جرار فيما كتبه عن الشاعر يذكر أن عبد الرحيم « تأثر كذلك ـــ الى حـــد قليل ـــ بنفحات من الأدب الانجليزى الذى قرأ فيه ، واطلع من خلاله على كثير من الشعر الانجليزى ، غير ن هـــذا التأثر بقى محصورا فى قليل من القصائد الذى حاول ن يعارض بها بعض ما قره وتمثله من الشعر الغربى لبايرون وويردز ويرث وغيرهما » .

ويؤكد الكاتب ما ذكره آنفا بأن عبد الرحيم نظم قصيدة باللغة الانجليزية بعنـــوان London shall Perish على غرار قصيدة « بايرون » التى عنوانها Rome shall Perish (١٠٧) ، ولكن الكاتب لم يعرضها ، ولم يعرض نماذج منها منفردة او معارضة على الأصل المحتذى . ولو صح أن لعبد الرحيم قصيدة بالانجليزية بهـــذا العنوان فهى لا تقطع بضـــلاعة مطردة فى هـــذه اللغة لأنها لو حـــدثت فعلا فهى تجربة لم تتكرر من ناحية . ومن ناحية اخرى يبقى حظ الابداع فيها قليلا لأنها تحتذى نموذجا أمامها وهو قصيدة « بايرون » أى أنها أدخل فى باب الاتباعات او المعارضات المعروفة فى الشعر العربى ، ومن ثم نرى أن الكاتب على حق حين ذيل حكمه بضميمة صحيحة وهى أن عبد الرحيم « لم يتنفس تلك التيارات الأدبية الغربيـــة بعمق ، ولم يمش على هـــدى منها فى قصائده العربية ، وانما بقى وفيا لمـــا قرأ من شعرنا العربى فى عصوره الأدبية المختلفة »(١٠٨) .

غير أن الباحث « نافع عبد الله » فى أطروحته عن الشاعر يفقد حياده ، ويتحمس لشاعره تحمسا واضحا فيرى أن عبد الرحيم كان له فى هـــذا المجال اطـــلاع على الشعر الانجليزى بلغته الأصلية ، وعلى الأساطير اليونانيـــة المنقولة الى الانجليزية نفسها ، والتقط من هـــذا البعض أفكاره ومعانيه ، وأوجـــده فى نظمه ، مع اضافة معان جـــديدة بأسلوب جـــديد يحتفظ باللازمة الأصلية بترجمتها حرفيا(١٠٩) .

---

(١٠٦) السـابق ٣٦٢ .

(١٠٧) السابق : نفس الصفحة .

(١٠٨) السابق نفس الصفحة .

(١٠٩) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٧٠ .

ونحن نرى أن هـــذا الحكم لا يخلو من التهويل الذى يجانب الواقع ، ويجافى الصواب :

١ ــ لأن الكاتب لم يقـــدم من الانجليزية ممـــا اعتبره من المقروءات أو المؤثرات فى شعر عبد الرحيم الا قصيدة لشاعر مجهول منشورة فى الكتب المدرسية فى المرحلة الثانوية وهى قصيدة Try Smiling ، وهى لا تكفى للحكم باطلاعه على الشعر الانجليزى بلغته الأصلية فضلا عن تأثره به .

٢ ــ وعبد الرحيم لم يحتفظ باللازمة الأصلية بترجمتها حرفيا فهى قـــد جاءت فى صورتين هما Try Smiling و Just Smiling بينما جاءت عند عبد الرحيم فى صور ثلاث : فتبسم ، فتبسم يا عزيزى ، يا عزيزى وليس ذلك ترجمة حرفية للازمة الانجليزية كما هو واضح(١١٠) .

٣ ــ وعبد الرحيم قـــد يلتقى مع النص الانجليزى فى الفكرة العامة وروح التفاؤل ، ولكنه يختلف عنه فى كثير من الصور والمعانى الجزئية(١١١) .

٤ ــ والأقرب الى العقل والمنطق والواقع أن يكون الشاعر فى هـــذه القصيدة متأثرا بروح التفاؤل وبكثير من الأفكار والمعانى والصور الجزئية عند ايليا ابى ماضى فى قصـــيدته المشهورة « فلسفة الحيـــاة »(١١٢) وقصـــيدته « ابتسم »(١١٣) .

٥ ــ وكذلك لا أدرى لمـــاذا يصر الباحث على أن عبد الرحيم محمود قـــد « اطلع على الأساطير اليونانية المنقوله الى الانجليزية نفسها »(١١٤) ،

---

(١١٠) فى الديوان الملحق بالدراسة السابقة جاءت القصيدة فى عشرة ابيات غير اللوازم بينما اوردها وليد جرار فى كتابه : شاعران من جبل النار فى ثمانية وعشرين بيتا غير اللوازم وقـد جاءت فى الصور الثلاث التى ذكرتها آنفا (انظر ٣٠٢ ــ ٣٠٤) .

(١١١) انظر النص الانجليزى ص ٧١ وقصيدة عبد الرحيم ص ١٦٠ من كتاب نافع السابق .

(١١٢) ديوان ايليا ابى ماضى (الأعمال الكاملة) ٦٠٤ .

(١١٣) الســـابق ٦٥٥ .

(١١٤) نافع السابق ٧٠ .

ولمـــاذا لا يكون قـــد اطلع على هـــذه الأساطير مترجمة الى العربية ، وذلك كان متوفرا وميسرا فى عهـــد الشـــاعر بعـــد أن ترجم سليمان البستانى (١٨٥٦ ــ ١٩٢٥) أعظم ملحمة فى تاريخ البشرية وهى الياذة هوميروس ، اذ ترجمها شعرا فى ١٢٦٠ صفحة ، وظهرت هـــذه الترجمة العربية للالياذة سنة ١٩٠٤ بمنظومها وشرحها ومقـــدمتها وفهارسها ، وهى تعتبر أهم المترجمات وأنـهرها فى الربع الأول من القرن العشرين(١١٥) ٠

٦ ــ وأخيرا نرى من الاسراف والشطط الزعم بتأثير الأدب الانجليزى والأساطير اليونانية بصورة ملحوظة فى شعر عبد الرحيم لأن ذلك لم يتعـــد ــ كما سنرى ــ مجرد اشارات الى أعلام ووقائع وصور جزئية ٠ وشتان ما ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود فى هـــذا المجال ٠ ويقول نافـــع عبد الله فى دراسته عن الشاعر « ولما اطلاعه على الأسطورة اليونانية المترجمة والتى هى من عناصر التراث اليونانى البارزة فقـــد كان يجعله عند قراءته لهـــا يتخيل نفسه سائحا فى أعماق الكون بحثا عن المعرفة ، ويرى شخصه انسانا مثاليا ، يصبو الى الكمال ، ويستشف كنه الحياة المثلى التى يجب أن يهتدى البشر الى معرفتها والاستئناس بها لتخرج نفوسهم من ظلمة الجسد الى نور الصفاء والاشراق ، وقد استمد هذا الشعور من أرفوس Orpheus بدليل ذكره له فى شعره :

أرفـــوس ليس بمســـــــتطيـــع أن يهدهد لى جنانى(١١٦)

فكأن ارفوس الذى استطاع أن يؤثر فى كل شىء بما فيه الكائن الحى والجماد بموسيقاه الساحرة بعـــد فقـــده لزوجته « يوريدس » كأنه لم يقـــدر أن يؤثر فى الشاعر عبد الرحيم ، ولم يهدهد له جنانه ، بل فر منه ومن شراك زمانه ، واحابيل مكانه الى الأعالى :

---

(١١٥) انظر جورج غريب فى كتابه : « سليمان البستانى فى مقدمة الالياذة » ٧ ٠

(١١٦) الديوان (نافع) ١٦٨ ٠

وأفـــر من شرك الزمـــــا ن ومن احابيـــل المـــكان
أتســـاق النـــــور الشعا ع الى كواكـــب لى روان(١١٧)

ونقول مرة أخرى ان ما ذهب اليه الكتاب يعـــد من قبيل تحمسه غير العلمى للشاعر ، وتضخيما لدور « الأسطورة اليونانية المترجمة » فى شعره ، فعبد الرحيم لم يوظف أيا من هـــذه الأساطير فى شعره ولو على ســـبيل الاشارة ، ولم يلمع الى أية شخصية أسطورية فى شعره ما عدا « أرفوس » ، ومن عجب أن يكون استخدامه له استخداما سلبيا وعلى سبيل الالمـــاع ، بمعنى أن عبد الرحيم سلب هـــذا الشاعر الأسطورى الموسيقار الســـاحر قـــدرته فى أن « يهدهد له جنانه » ، فهمومه اكبر من قـــدرته الأسطورية ، لذلك فهو يشرب حتى ينسى همومه وواقعه الأرضى وكيانه الطينى ، ثم يرقى الشاعر بمفهوم الخمر فاذا بها خمر الهوى والجمال يتملاها فى العيون والنحور وسحر الطبيعة حتى تخف روحه فيتحرر من أسر الزمان والمكان .

وهى معان مطروقة فى الشعر العربى الحـــديث ، وتعـــد من آثار الاستجابة للتيار الرومانسى الذى سيطر على كثير من شعراء العربيـــــة وخصوصا شعراء المهجر(١١٨) .

وامتدادا لهـــذه الحماسة اللاعلمية فى تلمس التأثير وتضخيمه يذهب الكاتب الى أن قراءة عبد الرحيم للملهاة الالهية لنابغة الطليان دانتى مترجمة ، وتأثره بذلك المشـهد الذى تقود فيه « بياترس » الشاعر « فيرجيل » صاحب ملحمة الانيادة وتأخـــذ بيده مخترقة حجب الظلام الى دائرة النور والضياء هـــو الذى ألهم الشاعر فكرة البيتين التاليين :

سلمى : لقد تهت فهذى يدى سلمى فقوديني عبر الظـــلام
أنت بصيص النور فى ناظرى والخافق الثائر بين العظام(١١٩)

---

(١١٧) نافع السابق : الدراسة ٧٣ والديوان الملحق بها ١٦٨ .

(١١٨) من هـذا القبيل قصيدة مطران « الى جميلة أديبة » ديوان الخليل ٤٧/١ وقـد قدمنا أبياتا منها ص ٨٢ من هـذا البحث .

(١١٩) نافع : السابق ٧٤ والبيتان فى الديوان الملحق ١٧٢ .

مع ان استنجاد العاشق بمحبوبته لتأخـــذ بيده فى معترك الحياة عبر ظلماتها ومتلاطمها معنى مطروق بل مستهلك فى الشعر العربى : قـــديمه وحـــديثه ولا يكاد ديوان شاعر يخلو من هـــذه الفكرة المتناعة ، ولنفتح ديوان شاعر مثل ابراهيم ناجى لنسمعه وهو يستصرخ حبيبته :

أدركى زورقى فقـــد عبث اليم به والعواصف الهوجـــــاء

والعباب المريض والأفق الموحش والنهاية الخرساء(١٢٠)

وتشبيههالمحبوبة بالنور أو بالضوء أو بالنجم أو ما شابه ذلك يرد فى شعره عشرات المرات من ذلك قوله :

ذلك الكوكب قـــد كان لعينى السموات وكان الشـــهبا

هـــذه الأنوار ما اضـــيعها صرن فى جنبى جراحا وظبـــا(١٢١)

وقـــــوله :

كنت فى برج من النـــور على قمة شاهقة تفزو السحابا(١٢٢)

فالفكرة اذن لا تدل — بصورة مباشرة أو غير مباشرة — على ملمـــح واضح فارق من ملامح الكوميديا الالهية . والكاتب لا يملك أى دليل — مباشر أو غير مباشر — يقطع بأن الشاعر قـــد قرأ الكوميديا الالهية ، فهو لم يذكر انه قرأها ، وليس فى شعره بصمة من بصماتها تدل عليها .

* * *

(١٢٠) ديوان ابراهيم ناجى (الأعمال الكاملة) ٣٥٩ .

(١٢١) الســـابق ٥٧٦ .

(١٢٢) الســـابق ٥٨٠ .

وقصارى القول فى ثقافة عبد الرحيم محمود :

١ ــ لم تزد ثقافته الرسمية ــ ان صح هــذا التعبير ــ عما حصله فى كلية النجاح ، وهى مرحلة تعليمية متوسطة ، اى دون المرحلة الجامعية .

٢ ــ أما مصادره الثقافية الأخرى فهى فى مجموعها عربية يقف على قمتها القرآن الكريم ، ثم الآداب العربية القــديمة والحــديثة ، زيادة على خبراته وممارساته ورحلاته الى العراق والشام واتصالاته بالشعراء والأدباء والمجاهــدين والقــادة .

٣ ــ وأعتقد أن معرفته بالانجيزية لم تكن بالقــدر الذى يمكنه من تعمق آداب هــذه اللغة والانشغال بها كأستاذه وصديقه ابراهيم طوقان ، وان مكنته هــذه المعرفة من الفهم والالمــام والتفاهم .

* * *

وكما كان للقضية قصة مدادها دم ، وكما كان للشاعر قصة جوهرها الايمان والنضال ... كان لديوانه ايضا قصة ما زال لها امتدادات لا تنتهى ، وسنعيش فى الفصل التالى هــذه القصة من بدايتها .

المحـــاولات الأولى

كان عبد الرحيم محمود ينشر قصائده فى الصحف والمجلات الفلسطينية واللبنانية والعراقية ، ولم يكن له من الشهرة فى حياته مثلما كان لأستاذه وصديقه ابراهيم طوقان الذى عاش المع منه اسما ، وأبعـــد منه صيتا .

وقـــد استشهد الشاعر قبل أن يرى شعره مجموعا مطبوعا بين دفتى ديوان على الرغم من أنه كان يحتفظ بأصول قصائده ، وباستشهاده كادت هـــذه الأصول التى كتبها بخط يده تفقد مـــع مسودات بعض قصائده . لولا تمكن اخوته من نقل تلك الدفاتر والأوراق التى تضم شعره مع اغراضه التى أحضروها من الناصرة بعـــد سقوطها فى تموز سنة ١٩٤٨(١) .

ولعل أول محاولة لجمع شعر عبد الرحيم فى ديوان هى تلك التى حكاها الشـــاعر الأديب عبد الرحيم اســـــعد ... يقـــول « كنت أحتفظ بأوراق عبد الرحيم وشعره الذى لدى سواء اكان مكتوبا بخط يده أم مكتوبا من قبلى شخصيا فى اثناء حياة الشاعر نفسه ، وهـــو كثير . وبين سنة ١٩٤٨ و ١٩٥٢ قام بعض زملاء الشاعر وأصدقائه بزيارة أهله فى عنبتا ، واثاروا موضوع جمع القصائد فى ديوان ، وأبدوا استعدادهم للاسهام فى اخراجه الى حيز الوجود ، وفعلا هم اشقاؤه بتحقيق المشروع ، واوكلوا أمره الى

(١) انظر : نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٧٩ .

أصغرهم سنا ، فاطمأن الى الفكرة ،ثم فترت العزائم ، وتوقفوا عن العمل .... ان هـذا الذى حفظناه قـد طرأت عليه بعض الظروف ، فتوزع قسم منه هنا وهناك ، أو كنا مضطرين للتخلص من بعضه فحرقناه أو خبـأناه »(٢) .

ومن الروايتين السابقتين نستخلص حقيقتين مهمتين :

الأولى : أن الأصول التى كانت عند آل عبد الرحيم لا تمثل شعره كله بدليل أن عبد الرحيم أسعد كان يحتفظ بأصول لقصائد بخط يد عبد الرحيم محمود نفسه ، ولم يعرف عن شاعرنا الشهيد أنه كان يكتب بخط يده أكثر من أصل واحـد لقصائده .

الثانية : أن ما بقى عند آل عبد الرحيم وعند عبد الرحيم أسـعد لا يمثل كل شعر الشاعر بعـد أن « توزع هنـا وهناك » وبعـد أن حكمت الظروف بالتخلص من بعضه « بالحرق أو الاخفاء » .

وهكذا باءت المحاولة الأولى بالاخفاق على الرغم من صدق النوايا ، فقـد كانت الظروف أقـوى من النوايا والارادات . وربما تلت هـذه المحاولة محاولات أخر انتهت كذلك بالاخفـاق ، وهـذا أمر طبعى لأسباب متعـددة أهمها :

١ ــ أن الشاعر قـد نظم شعره فى فترات كان فيها دائم الترحال والتنقل سواء أكان ذلك فى جبال فلسطين ووديانها ثائرا ، أم فى ربوع العراق وسوريا منفيا ، وكان استشهاده بعـد ذلك بداية لمـأساة شغلت الناس عن غيرهم بأنفسهم ، مما جعل كثيرا من شعره موزعا يصعب الحصـول عليـه .

٢ ــ أن أكثر الصحف الفلسطينية التى نشر الشاعر معظم قصـائده

---

(٢) أنظر : السابق ٨٠ .

على صفحاتها قـــد شملتها الكارثة مع ما شملت من ضياع حين تعرضـــت كبرى المكتبات العامة والخاصة فى القـــدس للنهب والحرق ، فضاع بذلك ثروة ادبية وفكرية ضخمة ٠

٣ ــ أن كثيرا من أبناء فلسطين ممن كانوا تلاميذ للشاعر أو أصدقاء ، وممن يحتفظون بجزء كبير من شعره قـــد شردتهم النكبة ، فانتشروا فى الأرض يطلبون الرزق ، فخفى بانتشارهم الكثير مما يحفظون من شـــعر الشاعر ، ومما يحتفظون به من قصاصات المجلات والجرائد التى كان ينشر فيها شـــعره(٣) ٠

٤ ــ ولعـــل من أهم هـــذه العوامل أيضا أن شهرة الشاعر بعـــد استشهاده كانت أقوى وأبعـــد منها فى حياته ، فقـــد كان استشهاده فى موقعة الشجرة ايذانا بانخراطه فى زمرة الأمجاد العظماء ، فبدأ النـــاس والدارسون والنقاد يلتفتون لشعره بعـــد استشهاده أكثر من التفاتهم له فى حياته ، ولكن بعـــد أن تفرق منه ما تفرق ، وفقـــد منه ما فقـــد ٠

الطبعـــة الأولى

ولم يقـــدر لشعر الشاعر الشهيد أن يرى النور مجموعا فى ديوان الا بعـــد استشهاده بعشر سنوات ٠ وقـــد طبع ديوان الشاعر طبعتين :

الطبعة الأولى : صدرت فى عمـــان سنة ١٩٥٨ ٠

والطبعة الثانية : صدرت فى بيروت سنة ١٩٧٤ ٠

وللطبعة الأولى قصة ذكرتها بالتفصيل فى صدر الديوان اللجنة التى تصدت لجمع شعر الشاعر وطبعه ، وهى مكونة من الأساتذة : توفيـــق أبو شريف ، وعادل الزواتى ، وعيسى الناعـــورى . وتبين كلمة اللجنة عن

---

(٣) انظر : وليد صادق سعيد جرار : شاعران من جبل النار ٣٤٧ ٠

طبيعة المعاناة التى مرت بها ، وعن منهجها فى جمع شعر الشاعر ونشره ونص الكلمة :

فى منتصف عام ١٩٥٦ تنادت فئة كريمة من رجال الأدب والفكر والوطنية فى هذا البلد : عمان — ممن يعرفون الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود ، ويقدرون شاعريته وجهاده فى سبيل شعبه ووطنه الى احياء ذكراه باقامة حفل تأبين له .

وفى الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) ١٩٥٦ أقيمت الحفلة فى قاعة كلية الحسين فى عمان ، وتكلم فيها عدد غير قليل من الخطباء والشعراء من المقيمين فى الاردن ، وممن يقيمون فى أقطار عربية أخرى مشيدين بذكرى الشاعر الشهيد الذى وقف قلمه وحياته وشاعريته على تحرير وطنه وشعبه من ربقة الاستعمار ، ثم قضى شهيدا ، وهو يذود عن وطنه فى معركة الشجرة سنة ١٩٤٨ .

وفى تلك الحفلة أعلنت اللجنة أنها ستتولى طبع ديوان الشاعر الشهيد تخليدا لذكراه ، واشادة بفضله ، واعترافا بما قدمه لوطنه من التضحية العظيمة حينما جاد بروحه فى سبيله .

غير أن الأيام تطاولت قبل أن تتمكن اللجنة المنتدبة لهذا الغرض من تحقيق ذلك الوعد ، لقد كان عليها أن تبحث عن قصائده بحثا طويلا لدى ذويه وأصدقائه ، وفى الصحف التى كان ينشر فيها شعره ، وكان عليها كذلك أن تدرس تلك القصائد كلها لتختار منها ما يكفى لديوان جدير بعبد الرحيم .

ولم تكن المهمة سهلة ، فقد كانت تقع فى أيدى أعضاء اللجنة عدة نسخ من القصيدة الواحدة أحيانا ، وكثيرا ما كانت الأبيات تختلف بين كل نسخة واخرى من حيث عدد الأبيات وترتيبها وعباراتها ، وكان على اللجنة أن تأخذ من بينها ما تراه أصوب من سواه .

ونود أن نعترف هنا ان اللجنة لم تر من الصواب أن تجمع فى هـذا الديوان كل قصائد الشاعر الشهيد ، ولا حتى القسم الأكبر منها ، ولم تر كذلك أن تنشر كل قصيدة له بأكملها ، بل آثرت أن تترك ما تجـده ضعيف الصياغة أو المعنى سواء أكان ذلك الضعف فى قصيدة كاملة أو فى أجزاء أو أبيات من القصيدة .

وهكذا اجتمع فى هـذا الديوان أحسن القصائد التى نظمها عبد الرحيم ، وأمتنها صياغة وأجودها معانى ، وأدلها على روح عبد الرحيم القوية المجاهدة المحبة للجمال وللعـدالة والانسانية .

ولن اللجنة اذ تفى بوعـدها ، وتقـدم الى الشعب العربى الكريم هـذه المجموعة من شعر عبد الرحيم محمود لا تفعل ذلك الا لتقوم ببعض الواجب نحو أخ عربى مجاهـد عاش شاعرا مجاهـدا ، ومات مجاهـدا شاعرا ، وكان أعظم قصائده استشهاده فى ميدان الشرف والكرامة والحرية ، وانسان مثل هـذا جـدير بكل تكريم ، فليس فى كل ما تحويه الكتب ، ولا ما تخطه الأقلام ، ولا ما يقوله الخطباء والشعراء مما يعادل الدم الزكى الذى يراق فـدى للوطن والروح الغالية التى يجـود بهـا الشهيد لتحرير الشـــعب .

ولقـد رأت اللجنة أن تجمع فى نهاية هـذا الديوان بعض الكلمـات والقصائد التى ألقيت فى حفلة احياء ذكرى الشاعر الشهيد لأن فيها تعريفا بحياته وجهاده ، واشادة بشعره وفضله ، وبذلك تقـدمه للأمة العربيـة بشعره وحياته ، ومزاياه وأخلاقه فى آن واحـد .

والرحمة والخلود للشاعر الشهيد ، والبقاء والسعادة لأسرته وذويه .

عمان : فى ١٩٥٨/٥/٦

اللجنـة

توفيق أبو شريف ـ عادل الزواتى ـ عيسى الناعورى(٤) .

---

(٤) نشر فى صـدر الديوان فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٨ . وفى دراسة كامل السوافيرى للشاعر ص ٥٨ ـ ٦٢ من ديوان عبد الرحيم محمود فى طبعته الثانيـة ـ وكتاب ناصر الدين الأسـد : محاضرات فى الشعر الحـديث فى فلسطين والاردن ص ١٧٣ .

عيـــوب ومآخـــذ

ومن كلمة اللجنة الثـــلاثية التى جاءت فى الديوان فى طبعتـــه الأولى تستخلص ما يأتى :

١ ـــ أن اللجنة قبل قيامها بجمع انديوان ونشره جعلت أمامها هـــدفا محـــددا يتلخص فى البحث عن شعر الشاعر « لدى ذويه وأصدقائه ، وفى الصحف التى كان ينشر فيها شعره » وبعـــد ذلك دراسة تلك القصائد كلها لتختار منها « ما يكفى لديوان جـــدير بعبد الرحيم » ٠

٢ ـــ أن كثيرا من القصائد الى وقعت فى يد اللجنة كانت مختلفة فى الصياغة وترتيب الأبيات بالنسبة للقصيدة الواحـــدة ٠

٣ ـــ أن اللجنة لم تنشر فى الديوان كل ما اجتمع لديها من شعر الشاعر ، ولا حتى القسم الأكبر منه ، بل حكمت ذوقها ، ونشرت أحسن قصائده ـــ من وجهة نظرها ـــ وأمتنهاصياغة ، وأجـــودها معانى . وحـــدث ذلك ايضـــا بالنسبة للقصيدة الواحـــدة ، فاختارت من أبيات القصيدة ما تراه « أصوب من سواه » ، وأغفلت ما وجـــدته فى القصيدة الواحـــدة « من ضعيف الصياغة أو المعنى » . ونخلص من كل أولئك فى النهاية الى ان ما جمع فى الديوان أقل مما أغفلته اللجنة ولم تسمح بنشره .

وقـــد علق الدكتور ناصر الدين الأســـد على عمل اللجنة بقوله(٥) :

« ولا شك أن للجنة هـــدفا توخته فوفت به ، ولكننا مع ذلك لا نملك أنفسنا من التساؤل : هل من حـــق من يتصدى لجمع ديوان شاعر أن يحكم ذوقه ورأيه فى شعره ؟ فيحـــذف منه ما يستضعفه ، ويثبت منـــه ما يراه جـــديرا بالاثبات ؟ ثم ما هى المقاييس النقـــدية التى وزن بها اعضاء اللجنة هـــذا الشعر ؟ وعلى أى أساس حكموا على بعضه بأنه ضعيف الصياغة

---

(٥) المرجع السباق ١٧٣ ٠

أو المعنى ؟ سواء أكان هـــذا الضعف فى قصيدة كاملة أو فى أجزاء أو أبيات من قصيدة » .

* * *

والدكتور الأســـد فى تعليقه السابق ، وهـــو يلمح فى رفق وهوادة الى هـــذه القضية انما يفتح أمامنا الباب الى القول بأن اللجنة كان يجب عليها أن تفرق بين عملين يختلف كل منهما عن الآخر :

العمل الأول : هـــو جمع شعر الشاعر فى ديوان واحـــد .

والعمل الثانى : تقييم هـــذا الشعر ، وابداء الرأى ، وتحكيم الذوق فيـــــه .

ومن البدهى أن اللجنة انما تشكلت للقيام بالعمل الأول فقط ، ومن ثم كان يجب أن تسلك سبيل الحياد ، فيقتصر عملها على جمع قصائد الشاعر كلها دون تحكيم الذوق الخاص .

أما القصائد التى تروى أبياتها أو بعض أبياتها بصيغ مختلفة ، فكان على اللجنة أن تثبت هـــذه الصيغ المختلفة أيضا ، لأن عمل اللجنة فى هـــذه الحال يشبه الى حـــد كبير عمل المؤرخ الذى يرصد أخبـــــار شخصية من الشخصيات ، أو يجمع الوثائق عن عصر من العصور ، أنه لا يملك الحـــق فى حـــذف مرحلة من حيـــاة هـــذه الشخصية بحجة أن هـــذه المرحلة « لم تعجبه » أو بحجة أنهـــا لا تتسق مع ما للشخصية من ثقل وعظمة ورواء . وهـــل الشعر الا الوثائق التى تمثل التاريخ النفسى والفكرى للشاعر ؟

وبهـــذا المفهوم يكون هذا الشعر منطلقا ـــ لا لفهم الشاعر وتضاريسه النفسية فحسب ـــ بل للتعرف على طبيعة العصر والمجتمع ، ومكان هـــذا الشاعر فيهما .

وانتاج الشاعر — بغض النظر عن اختلاف مستواه الفنى من قصيدة الى اخرى — لا يصبح ملكا للناقـــد ، وان ملك حـــق الحكم عليه ، بل لا أغلو اذا قلت : لا يصبح ملكا للشاعر نفسه لانه بابداعه اياه وانفصاله عنـــه يغـــدو جزءا من التراث الانسانى ، ومن ثم لا يملك أحـــد — حتى الشاعر نفسه — حق رفضه واسقاطه من قائمة انتاجـــــه الفنى • ومن باب أولى لا يملك من يتصدى لجمع هـــذا الشعر أن يسقط منه ما لا يعجبه محكما ذوقـــه الخـــاص .

والمعروف أن النقـــد لا يعتمد على معيار رياضى أو حسابى صارم غير قابل للنقض ، بل ان النقـــد — وان أخـــذ بمقاييس موضوعية — يعتمد من جانب آخر على التذوق الذى يختلف من ناقـــد الى آخر ومن عصر الى عصر • فالشعر الذى رفضت اللجنه ضمه لديوان الشاعر بحجة ضـــعف الصياغة أو المعنى قـــد يكون من وجهة نظر نقاد آخرين ذا مستوى فنى طيب كريم .

على أن اعمال مبدأ « الانتقاء » فى جمع قصائد الشاعر — أى شاعر — لا يعـــد اساءة الى هـــذا الشاعر فحسب — بل يعـــد اساءة وخطيئة فى حـــق من يتصدون لدراسة الشاعر بعـــد ذلك : لأن الأخـــذ بهـــذا المبدأ — مبدأ الانتقاء — يعـــد تزويرا بالحـــذف كما يقول رجال القانون •• والأمانة العلمية تقتضى تقـــديم كل ما جادت به قريحـــة الشاعر كمـــا هـــو ، لأنه يمثل — كما قلنا — مناخه الفكرى وتضاريسه النفسية ، وتطـــوره الفنى المرحلى • والحكم بعـــد ذلك على هـــذا الشعر فى مستوياته المختلفة يكون للنقـــاد والدارسين لا لجامعى الديوان .

* * *

ودعنا نسأل انفسنا : هل حقا كان ما اختارته اللجنة من شعر الشاعر وجمعته فى ديوان بين دفتين ... هل حقا كان هـــذا الشعر هو « أحسن القصائد التى نظمها عبد الرحيم محمود وأمتنها صياغة واجودها معانى ،

وأدلها على روح عبد الرحيم القوية المجاهدة المحبـــة للجمـــال والعـــدالة والانسانية » ؟[٦] .

ان من يقرأ الديوان يجـــد غير قليل من النماذج المتهافتة معنى وصياغة وتصويرا ، وقـــد لا يختلف اثنان فى ذلك لوضوح الضعف والتهافت فى هـــذه الأبيات ، ومنها على سبيل التمثيل قول الشاعر :

ان يكن خانك ألف فى الهوى وتذوقـــت مريرا غـــــــدره

فهـــو أعفـــاك وأخلى عامـــدا شقة فى القلب أسكن غيره[٧]

فما رأى اللجنة فى البيت الثانى بصفة خاصة ؟ ... ما رأيها فى صورة هـــذه الشقة التى طرد منها المحب حبيبه الغادر ، وطلب منه الشاعر أن « يسكن غيره » فيها ؟ !! .

وما رأى اللجنة فى هـــذه العاطفة الباردة والألفاظ السوقية المبتذلة التى استخدمها الشاعر مثل : اغمزينى .. اذبحينى ... الخ فى قوله :

انظرى لى واجعـــــلى العطف يسل من نظراتك

واغمزينى فلقـــد طـــــال انتظـــــارى غمزاتك

.....

اذبحينى بلحـــــــــــاظ وادفنينى فى الجفـــــون[٨]

مما ستعرض له بالتفصيل عند تقييم شعر الشاعر .

---

(٦) من تقرير اللجنة الثلاثية الذى صدرت به الطبعة الأولى من الديوان .

(٧) ديوان عبد الرحيم محمود – الطبعة الأولى : من قصيدة « تبسم » ص ٢٣ .

(٨) الديوان ٣١ (الطبعة الأولى) .

وأخيرا اقول : ان من حسن حـظ الأدب أن جامعى اشـعار الشعراء ـ قـديما وحـديثا ـ لم يحكموا ذوقهم فى هـذا الجمع ، بل فتحوا صدورهم لغثه وسمينه ، ووضيعه ورفيعه ، وحصاه ودره ، فخـدموا بذلك الأدب والتراث ، وأرسوا بذلك قواعـد المنهج العلمى الأمين .

والخلاصة أن اللجنة الثلاثية ، وقـد أعطت نفسها حـق الرفض والاسقاط بالنسبة لأغلب شعر الشاعر ـ ما كان لهـا أن تسمى ما جمعت « ديوان عبد الرحيم محمود » بل « المختار من شعر عبد الرحيم محمود » لان التسمية الأولى تقطع بأن المجموع هـو شعر الشاعر كله ، أما التسمية الثانية فهى تدل بصدق ودون اسراف على ما أدته اللجنة بأمانة ، وهـو أنها اختارت من شعر الشاعر ما اختارت على أسس معينة أبدتها ، وهى أسس واعتبارات مستساغة ممن يتصدى لتسجيل مختارات ، ولكنهـا مرفوضة غير مستساغة ممن نهضوا « لجمع شعر الشاعر » ، وخصوصا اذا ما كان ذلك يتم لأول مرة

وهناك مأخـذ منهجى سجله الدكتور السوافيرى(٩) على عمل اللجنة ، وهـو أنها « لم تشر الى المصادر التى استقت منها الشعر ، وخاصة الصحف والمجلات ، واذا تعـذر تحـديد اليوم والشهر ، فلا أقـل من تحـديد السنة ، واذا كان من الجائز أن يحفظ بعض الناس بعض القصـائد ، فليس من المقبول أن يؤخـذ كل الشعر الذى نظمه الشاعر من أفواه الرواة والحفاظ ، والأدنى الى الحقيقة أن هناك صحفا ومجلات قـد نشرت كثيرا من القصائد ، واحتفظ الأصدقاء بجزازات منها » .

ونحن نرى أن هـذا المـأخـذ له قيمته وخاصة فيما يتعلق بتاريخ نظم القصائد لأنه يعيننا على معرفة التطور الفنى والنفسى والفكرى للشاعر ، واذا تعـذر التحـديد الزمنى الدقيق فلا أقل من معرفة ترتيب نظم القصائد أو أغلبها بصورة تقريبية . وقـد يستدل على هـذا الترتيب الزمنى بوسائل متعـددة منها :

---

(٩) ص ٧٣ من الدراسة التى صدر بها الطبعة الثانية من ديوان الشاعر .

١ ــ المواقف والمناسبات التى نظم فيها الشاعر قصائده : كالانتصار فى معركة ، أو وفاة عظيم ، أو وقوع حــدث سياسى كبير ... الخ .

٢ ــ فاذا تعــذر ذلك لم يبق الا دراسة كل قصيدة دراسة فنية تعتمد على الذوق المرهف ، والبصيرة الواعية ، مع الاحتكام الى معايير عصر الشاعر ، وطوابعه الفنية والفكرية ، وترتيب هــذه القصائد على أساس حظها من الفجاجة أو النضج .

ولكن المعيار الأخير يجب أن يؤخــذ بحــذر لأنه على وجاهته قــد يكون ذا بريق خــداع فى بعض الأحيان : فقــد ينظم الشاعر فى ابان نضجه الفنى والعقلى قصيدة ضحلة الأفكار ، ضيقة الخيال ، واهية المبانى ، لضعف الداعية النفسية ، وهوان الموقف على نفس الشاعر(١٠) .

ومن المــآخذ التى سجلها بعض الباحثين أن الديوان فى طبعته الأولى لم يصــدر بترجمة ولو موجزة للشاعر الشهيد حتى تكون مدخلا لفهم شعر الشاعر . كما أن الديوان لم يخل من الأخطاء سواء فى طباعة الحروف أو ترتيب الصفحات . كذلك لم ترتب القصائد ترتيبا سليما ، ولم تلتزم أساسا معينا فى هــذا الترتيب . فلم ترتب على أساس الموضــوعات والأغراض ، ولا أساس التسلسل التاريخى لنظمها ، كما جاءت معظم قصائد الديوان مبتورة وناقصة ، ووضع لبعضها عناوين غير عناوينها الأصلية ، وعلى ســبيل التمثيل قصيدة عنوانها فى الديوان « رثاء بطل » ص ١٢ . وأصل العنوان « موت بطل » وقصيدة عنوانها فى الديوان « الشعب الباسل » ص ١٧ ، مع أن عنوانها الأصلى « شعب فلسطين » ...(١١) .

هــذا عن الديوان فى طبعته الأولى ، وما أثاره ويثيره عمل اللجنــة

---

(١٠) انظر فى تحقيق هــذه المسألة : جابر قميحة « منهج العقاد فى التراجم الأدبية » ٢١٧ ــ ٢٢٠ .

(١١) انظر فى تفصيل هــذه المــآخــذ : نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٨٣ ــ ٨٤

الثلاثية من مآخـــذ وقضايا بسبب منهجها فى جمع شعر الشاعر . فمـــاذا عن الطبعة الثانية من الديوان ؟

الطبعـــة الثانيـــة

فى سنة ١٩٧٤ صدرت الطبعة الثانية من ديوان عبد الرحيم محمود ، وقـــد جمع القصائد وقـــدم للديوان الدكتور كامل السوافيرى . والديوان من مائتين وأربعين صفحة من القطع الصغير ، وهـــو مصدر بكلمة من أربع صفحات لناجى علوش ، تليها دراسة عن الشاعر وشعره من مائة صـــفحة للدكتور كامل السوافيرى ، وذيل الديوان بمقال له من ثلاث عشرة صفحة بعنوان « شاعر من فلسطين » كان قـــد نشره من قبل فى احـــدى الصحف ، أما الشعر فيأتى فى قرابة مائة صفحة .

وقـــد ذكر الباحث فى دراسته عن الشاعر أنه فى جمع شعره اعتمد على الصحف الفلسطينية التى كانت تصدر من سنة ١٩٣٠ الى سنة ١٩٤٨ ، واعتمد كذلك على المجلات الأدبية التى كانت تصدر فى القـــدس وبيروت ودمشق وبغـــداد والقاهرة ، وعلى شعراء فلسطين الذين عاشوا معه وكان بينه وبينهم مودة وصداقة ، وعلى أفراد أسرته وأصدقائه المخلصين الذين يحتفظون بطائفة من قصائده ، وعلى من كانوا طلابا له فى مدرســـة النجاح الوطنية ، هـــذا زيادة على الطبعة الأولى للديوان .

ومن عجب ألا يشير الباحث فى هـــذا المقام الى مصدر من أهم مصادره التى استقى منها شعر الشاعر وأعنى به بعض الكتب والدراسات الأدبيـــة والتاريخية التى عرضت لقضـــية فلسطين والأدب الفلسطينى مثل كتـــاب « النكبة » لعارف العارف ، وقـــد نقل منه السوافيرى أكثر من قصيدة لم ترد فى الديوان فى طبعته الأولى ، مثل قصيدة « أيام النضال »(١٢) ، ومقطوعة « احمـــلونى »(١٣) .

---

(١٢) الديوان ١٥٤ (السوافيرى) .

(١٣) الديوان ١٥٧ (السوافيرى) .

وكان الجـــديد ، أو ما اعتقد الدكتور السوافيرى أنه جـــديد فى عمله هـــــذا :

١ ــ أنه أثبت جميع أبيات كل قصيدة من القصائد التى أورد الديوان ــ فى طبعته الأولى ــ بعض أبياتها .

٢ ــ أنه أضاف قصائد جـــديدة عثر عليها .

٣ ــ أنه أشار ــ فى حـــدود ما وصل اليه ــ الى مصدر كل قصيدة من القصائد بوجـــه عام .

٤ ــ أنه قسم شعر الشاعر الى أغراض هى الشعر الوطنى والشعر الاجتماعى والانسانى ، والشعر التأملى والشعر الوجـــدانى الذاتى(١٤) .

* * *

ومن حقنا أن نتساءل ، هل كانت النتائج التى حققها الباحث اعتمادا على هـــذه المصادر العـــديدة تعتبر اضافة حقيقية لعمل اللجنة الثلاثية الذى طبع سنة ١٩٥٨ ؟

الواقع يقول لا ... والديوان فى طبعته الجـــديدة يقطع بأن فى ذكر هـــذه المراجـــع العـــديدة نوعا من الاسراف والتهويل ، فكل ما أضافه الباحث الى ما ورد فى الديوان القـــديم هـــو ٦٨ بيتا ليقفز شعر الشاعر من ٤٢٨ بيتا ــ وهو القـــدر الذى ورد فى الديوان فى طبعته الأولى ــ الى ٤٩٦ بيتا ، وهو ما سجل فى الطبعة الجـــديدة ، وهى محصلة ضئيلة كما هو واضح .

ولا يستطيع أحـــد ــ كائنا من كان ــ أن يدعى أن الديوان ــ فى طبعته

---

(١٤) أنظر دراسة السوافيرى ٧٤ ــ ٧٧ من الديوان فى طبعته الثانية .

الثانية ضم شعر الشاعر كله ، حتى لو لم ينطق بالشعر الا سنة ١٩٣٥ ، مما دفع ناجى علوش(١٥) الى وصف عمل السوافيرى بأنه محاولة « ... وأن هـــذه المحاولة لم تتجاوز المحاولة الأولى الا قليلا » . بل نرى الباحث نفسه يعترف بأنه لا يستطيع أن يزعم أنه قـــد توصل الى كل ما نظم الشاعر من شعر، ولا الى معظم ما أبدعت شاعريته »(١٦) .

وأقول ان الحصيلة ضئيلة ، ومجهود الباحث محـــدود ، وأنا على يقين أن للشاعر أضعاف هـــذا الشعر ، وخاصة ما نظمه فى مغتربه بالعراق من سنة ١٩٣٩ الى سنة ١٩٤٢ ، والذى لم ينشر منه الا قصيدة واحـــدة أو اثنتين ، مع ن فراق اوطن — وخصوصا اذا كان الطريد شاعرا عاشـــــقا لوطنه كعبد الرحيم محمود — يسعر فى الأعماق شدة الاحساس بالظـــلم والتشوق الى مرابع الأجـــداد والآباء ، ومدارج الطفولة والشباب ، ومن منا ينسى « روميات أبى فراس ، وسرنديبيات انبارودى ، وأندلسيات شوقى ، وهى خير ما نظم هؤلاء الشعراء »(١٧) .

وكان من المفروض أن يكون شعر الحنين من أكثر شعر عبد الرحيم ، ومن أعمره بالاحساس والعاطفـــة . فأين هـــذا الشـــعر ؟ لم يستطيع السوافيرى أن يعطى اجابة مقنعة عن هـــذا السؤال فى دراسته ، وأورد فى الديوان القصيدة اليتيمة التى نشرت فى الديوان القـــديم(١٨) ، وربما أمكن تعليل هـــذا النقص الواضح بواحـــد من الافتراضات الآتية :

١ — أن يكون الشاعر خلال مدة اقامته بالعراق قـــد أصيب بحالة احباط نفسى توقفت معها قريحته الشاعرة عن الانتاج ، وقـــد يستأنس فى هـــذا

---

(١٥) من كلمته التى صدر بها الديوان ص ٦ .

(١٦) الديوان ٧٧ .

(١٧) راجع د. ماهر حسن فهمى فى كتابه الحنين والغربة فى الشعر العربى الحـــديث وخصوصا الصفحات من ٤٠ الى ٤٦ .

(١٨) هى قصيدة « حنين الى الوطن » التى نشرت فى الديوان بطبعته الجديدة ص ١٣٦ ، وقـد أشرنا من قبل الى أن هناك قصيدة اخرى من وحى الغربة أغفل الدكتور السوافيرى ذكرها مع أنه نشرها فى الديوان ص ١٧٣ .

المقام بما نقله الجاحظ من قول بعضهم « الغريب كالغرس الذى زايل أرضه ، وفقـــد شربه ، فهو ذاو لا يثمر ، وذابل لا ينضر »(١٩) . وليس هـــذا بالأمر الغريب بالنسبة لبعض الشعراء ، ولعل من أشهر النماذج فى هـــذا المجال شاعر النيل حافظ ابراهيم بعـــد أن عين سنة ١٩١١ رئيسا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية « فقـــد كانت هـــذه الفترة فى حياته ــ وما أطولها ــ فترة نضوب فى شعره ، وجمود فى قريحته الا نادرا ، فكان منصبه نعمـــة عليه ونقمة على فنه ، ومنفعة له ، ومضرة على الناس »(٢٠) ، أقول لعـــل شاعرنا قـــد أصيب فى العراق بمثل ذلك فعزف عن نظم الشعر ورأى أن يشغل نفسه بالاعـــداد العسكرى العملى لخوض المعركة الكبرى فى فلسطين ضـــد الصهيونية وحكومة الانتداب .

٢ ــ أن يكون الشاعر قـــد نظم كثيرا من قصائد الحنين فى الصـــحف العراقية وغيرها وأن هـــذه الصحف لم تتوصل اليها اللجنة الثلاثية ، كما لم يتوصل اليها ناشر الديوان فى طبعته الأخيرة .

٣ ــ أن يكون الشاعر قـــد نظم كثيرا من هـــذه القصائد ، واحتفظ بها لنفسه دون أن تنشر ، وفقدت فى مغتربه ، أو عند عودته الى فلسطين سنة ١٩٤١ .

كل هـــذه فروض واحتمالات كان على الثلاثة الذين جمعوا الديوان فى طبعته الأولى ، وعلى ناشر الديوان فى طبعته الثانية أن يحققوها ليخلصوا الى الراجح منها . وكم كنت أتمنى أن يكون تحت يدى من المراجع والوسائل ما يحقق لى هـــذه الأمنية(٢١) .

---

(١٩) الجاحظ : حنين الى الوطن ٨ .

(٢٠) أحمد أمين : مقدمة ديوان حافظ ابراهيم ١٩ . وأنظر كذلك صفحة ١٥ وأنظر للدكتور عبد الحميد الجندى : حافظ ابراهيم شاعر النيل ٤٢ ــ ٤٤ .

(٢١) سنرى فى الطبعة الثالثة من الديوان التى حققها نافع عبد الله ، وألحقها بدراسته عن الشاعر وطبعها سنة ١٩٧٩ ، وكذلك فى القصائد الجديدة التى أوردها جرار فى دراسته « شاعران من جبل النار » ما يؤيد أنه كان لعبد الرحيم محمود قصائد نظمها فى العراق ولم ترد

فالفرق اذن بين الديوان ـ فى طبعتـــه الثانية ، والديوان فى طبعتـــه الأولى فرق كمى ضئيل ، لأنه باستثناء عشرات الأبيات التى أضافها لم يقدم للقارىء كل شعر الشاعر أو معظمه باعتراف الباحث نفسه . ومن ثم كان يجب أن يستبدل بعنوان « ديوان عبد الرحيم محمود » العنوان الذى اقترحناه للطبعة الأولى من الديوان وهو « المختار من شعر عبد الرحيم محمود » اذ أن المشكلة بالنسبة لشعر الشاعر ما زالت قائمة .

هـــذا وكان من المفروض أن يتفادى الباحث الأخطاء التى وقعت فيها اللجنة ، والتى عرضنا لها فى الصفحات السابقة ، وعرض لبعضها الدكتور ناصر الدين الأســـد ، وعرض لبعضها الباحث فى دراسته عن عبد الرحيم مجمود . فكان عليه مثلا أن يعرض القصيدة فى صيغها المختلفة ان كان لهـــا أكثر من صيغة أو أكثر من شكل فى الترتيب ، فقـــد يكون الشاعر من هـــواة التنقيح الذين لا يقنعون بصورة واحـــدة لقصائدهم كما نرى عند كثير من شعراء العصر الحـــديث(٢٢) .

وكان عليه أن يورد الأشعار التى أسقطتها اللجنة الثلاثية ، ولم تنشرها فى الديوان لمـــا وجـــدته فيها ـــ على حـــد قولها ـــ « من ضعف الصياغة أو المعنى سواء أكان ذلك الضعف فى قصيدة كاملة أو فى أجزاء أو أبيـــات من القصيدة » ، وخصوصا أن هـــذا المسلك كان أهم ما أخـــذ عليها ممن قاموا بتقييم عملها ، ومنهم الدكتور ناصر الدين الأســـد ، وتابعه فى ذلك الباحث نفســـــه .

وهـــذا يعنى أن ما توفر للجنة من شعر الشاعر ـــ منشورا فى الصحف أو مخطوطا ـــ كان أكثر بكثير مما توفر للدكتور السوافيرى الذى أرى أنه

فى الديوان بطبيعته الأولى والثانية ، بعضها نشر ، وبعضها فقد ، وبعضها لم يبق منه الا أبيات قليلة (انظر مثلا بقايا قصيدة نظمها الشاعر فى البصرة سنة ١٩٤١ ص ١٥٣ من دراسة نافع عبد الله .

(٢٢) من أشهر الشعراء المنقحين فى العصر الحديث خليل مطران وعباس العقاد وأمل دنقـــــل .

اعتمد اعتمادا شبه كلى على الديوان فى طبعته الأولى ، ولم يجشم نفسه مشقة البحث الجاد عن أصول هـذا الشعر فى أشكاله أو صياغاته المختلفة ، ولو فعل ذلك لفتح أمام الباحثين والدارسين بابا جـديدا فى البحث عن سر أختلاف الصيغ أو التفاوت الفنى واللغوى فى شعر الشاعر .

* * *

ومن عجب كذلك أن جامع الديوان الجـديد يأخـذ على اللجنة الثلاثية أنها لم تشر « الى المصـادر التى استقت منها الشعر وخاصـة الصحـف والمجلات »(٢٣) أقول : من عجب أن يسجل الباحث هـذا المـأخـذ على اللجنة ، ويقع هو فيه أيضا ، فلا يذكر المصادر التى استقى منها الأبيـات المزيدة فى الطبعة الجـديدة ، كما نرى فى قصيدة « البطل الشهيد » التى كانت فى الديوان القـديم أحـد عشر بيتا ، فصارت فى الديوان الجـديد ستة وثلاثين بيتا(٢٤) ، وقصيدة « حنين الى الوطن »(٢٥) التى ارتفع بها الشاعر من سبعة عشر بيتا الى تسعة عشر بيتا ، واللزوميـات (د) ، (هـ) ، (و)(٢٦) وقـد اكتفى الباحث فى شأنها بقوله « هـذه اللزوميات غير موجوده فى الديوان » أى فى طبعته الأولى ، ولا يذكر ـ كدأبه فى القصائد السابقة ـ مصدرها على وجه التحـديد ، وواضح أن هـذا السلك يتجافى مع المنهج العلمى بعـد أن وقع الباحث فى نفس الخطأ المنهجى الذى سقط فيه ثلاثى الديوان فى طبعته الأولى ، وكان ذلك من المـآخـذ التى سجلها عليهم .

* * *

وفى هـذه الطبعة الثانية يصطدم القارىء بكثير من الكلمات المعجمية التى كانت فى حاجة الى تفسير ، ومنها على سبيل التمثيل : (أوكع ـ آبق)

---

(٢٣) الديوان (الدراسة) ٧٣ .

(٢٤) الديوان ١٢٩ (السواغيرى) .

(٢٥) الديوان ١٣٦ (السواغيرى) .

(٢٦) الديوان ١٨٣ (السواغيرى) .

ص ١١٤ ـ الظليم ص ١١٥ ـ (القنا ـ السمهرى ـ العجاج ـ الأكدر) ص ١١٧ (جـدلوا ـ يخفر ـ وطر) ص ١١٨ ـ هصر ص ١١٩ ـ (الثرى ـ الدنا) ص ١١٢ ... الخ ، ولا تكاد صفحة من صفحات الديوان تخلو من مثل هـذه الكلمات المعجمية ، فقد كان الشاعر حريصا على اللفظ العربى الأصيل فى كثير من قصائده ، وبخاصة شعر الحماسة .

وكان على الباحث أن يقـدم تفسيرا لهـذه الكلمات وأمثالها حتى لا يقطع على القارىء الجـو النفسى الذى يسيطر عليه وهـو يعـايش القصيدة ، وذلك بالتوقف عن القراءة والانفصال عن القصيدة لياذا بالمعجم بحثا عن معنى كلمة عصية ، وقـد لا يلجأ القارىء الى المعجم فيعبر مثل هـذه الكلمة بلا فهم وذلك أيضا يسىء الى القصيدة من ناحية الحصـيلة الفكرية التى يخرج بها القارىء منها .

الطبعـة الثالثـة

وأمام هـذا النقص الفادح وتلك المـآخـذ الصارخة التى وصمت الديوان فى طبعته الثانية تصدى بعض من نهضوا لدراسة الشاعر الشهيد للوفاء بجمع شعر الشاعر مع محاولة تفادى السقطات والنقائص التى وصمت العملين السابقين .

وبجهود مستقلة نهض اثنان من الدارسين لجمع الديوان من جديد :

الأول : هـو نافع عبد الله صاحب الدراسة الأكاديمية عن الشاعر ، وقـد جمع شعر عبد الرحيم والحقه بهـذه الدراسة ، وأعلن فى دراسته أنه قـد تمكن من جمـع ٧٤٢ بيتا لعبـد الرحيم محمـود ... جمعها من المخطوطات والكتب والصحافة الأدبية ، بعد نقص مستمر ، وبحث متواصل ، ومكابدة طويلة(٢٧) . وقـد شرح الأسس التى رتب عليها قصائد الديوان

(٢٧) نافع : الشاعر : عبد الرحيم محمود ٨٩ .

الملحق بدراسته(٢٨) . وهـــذا القـــدر الذى أعلن الدارس عن جمعه يزيد على ما ضمه الديوان فى طبعته الأولى بثلاثمائة وأربعة عشر بيتا ، ويزيد على أبيات الطبعة الثانية بمائتين وستة وأربعين بيتا . وقـــد طبعت الدراســـة ـــ ملحقا بها الديوان ـــ سنة ١٩٧٩ .

أما الدارس الثانى : فهو وليد صادق سعيد جرار الذى بذل مجهـــودا مضنيا فى سبيل تحقيق طلبته ، فسافر الى عنبتا ـــ بلد الشاعر ، ولكنه عاد بخفى حنين ـــ كما يقول ـــ اذ أعلمه أقارب الشاعر وذووه أن آثار الشاعر الأدبية وأوراقه بقيت محفوظة فى صندوق حـــديدى الى سنة ١٩٦٧ حيث تعرضت للحرق والاتلاف خوفا من تفتيش البوليس الاسرائيلى .

ومكث الباحث يفتش عن شعر عبد الرحيم محمود سنة كاملة راسل خلالها كثيرا من تلاميذ الشاعر ومعارفه ، حتى هيأ الله أحـــد تلاميذ الشاعر القـــدامى بكلية النجاح الوطنية وهـــو الأستاذ « بدران الطاهر » الذى أمده بقصاصات من أوراق الجرائد والمجلات اللبنانية والفلسطينية التى كان الشاعر ينشر فيها قصائده ، هـــذا بالاضـــافة الى كراســـتين مخطوطتين تشملان أشعارا كثيرة من ضمنها قصائد كاملة أو مبتورة لعبد الرحيم محمود ، فعكف الدارس على هـــذه الأوراق يقارن بينها ويقابلها على ما نشر فى الديوان أو ما يحفظه بعض المهتمين بشعره ، وينقحها ، ويعيد كتابتها من جديد(٢٩) .

وقـــد استطاع الباحث ـــ كما يقول ـــ أن يجمع ديوان الشاعر من جـــديد ، وأن يرتبه ترتيبا جـــديدا توخى فيه الناحية التطورية عند الشاعر فى الأغراض المختلفة التى نظم بها الشاعر شعره(٣٠) .

وما زال الديوان مخطوطا ، ولكن الباحث كان من الجرأة بحيث اعتمد فى دراسته للشاعر على هـــذا الديوان المخطوط الذى جمعه ويعـــده للنشر ،

---

(٢٨) أنظر : نافع : السابق ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢٩) أنظر جرار : شاعران من جبل النار ص ١٠ وما بعـدها .

(٣٠) أنظر : جرار : السابق ٣٤٩ .

واستبعد تماما الديوان فى طبعته الأولى الذى قامت بجمعه ونشره اللجنة الثلاثية سنة ١٩٥٨ وكذلك الديوان فى طبعته الثانية الذى أصدره السوافيرى سنة ١٩٧٤ ، كما استبعد تماما ما قامت به مكتبة بلدية نابلس من جمع لبعض قصائد الشاعر ونشرها سنة ١٩٧٥ لكثرة ما فيها من أخطاء وقعت بدون تحقيق أو تمحيص(٣١) .

ولنا على ما قام به الدارسان ملاحظات نوجزها فيما يأتى :

١ ــ من المقطوع به أن العمل الأخير الذى نهض به جرار لم يصدر بعد ، لأن الطبعة الأولى من كتابه « شاعران من جبل النار » صدرت سنة ١٩٨٥ ، وفيها يذكر ان الديوان ما زال مخطوطا ، وقد اعتمد اعتمادا كليا ــ فى دراسته عن عبد الرحيم على هذا الديوان المخطوط . ولكن يظهر أن هذا الديوان المخطوط قد ضم شعرا غزيرا ، ينم على ذلك الشواهد الكثيرة التى أوردها فى كتابه ، ولا وجود لها فى الديوان بطبعتيه السابقتين (١٩٥٨ ، ١٩٧٤) . وان كنا نأخذ عليه انه أغفل اغفالا تاما الاحالة الى الديوان فى طبعتيه فيما يتعلق بالشعر الذى سبقا الدارس اليه فهذا من حقهما لأن لهما فضل السبق فى جمعه ، وهذا ما لم يقع فيه الدارس الأول : نافع عبد الله ، وهذه مسألة نعود اليها بعد قليل .

٢ ــ الحق نافع عبد الله الشعر الذى جمعه لعبد الرحيم محمود بالدراسة التى كتبها عنه(٣٢) ، وعدد الأبيات ٧٤٢ بيتا ، أى ما يزيد على أبيات الطبعة الأولى بـ ٣١٤ بيتا ، وعلى أبيات الطبعة الثانية بـ ٢٤٦ بيتا . وكان للدارس خطة واضحة الملامح فى معالجة هذا الشعر والتعامل معه ، وخلاصتها :

(أ) رتب القصائد ترتيبا موضوعيا ، فكان تصنيفه لهذا الشعر على النحو التالى : الوطنيات ص ١٢٥ : ١٨ قصيدة ــ الاسلاميات

---

(٣١) للأسف لم يقدر لنا أن نطلع على ما نشرته مكتبة بلدية نابلس ، وواضح أيضا أن سعيد جرار لم يطلع على الدراسة التى كتبها نافع عبد الله ، ومن ثم لم يطلع على ديوان عبد الرحيم محمود الملحق بالدراسة .

(٣٢) ملحق رقم (١) من ص ١٢٥ الى ص ١٨٦ .

ص ١٤٩ : ٣ قصائد ــ الاجتماعيات ص ١٥٣ : ٥ قصائد ــ الانسانيات ص ١٥٩ : ٣ قصائد ــ الوجــدانيات ص ١٦٣ : ٤ قصائد ــ الغزليات ص ١٧٠ : ١٣ قصيدة(٣٣) .

(ب) وفى نطاق قصائد الغرض الواحــد رتب الشاعر القصائد ترتيبا تاريخيا باعتبار نشرها .

(جـ) بين مناسبات القصائد ، وعــدد أبيات كل قصيدة وبحرها ، وميز ما اتفق من الأبيات مع الطبعتين السابقتين وما أضافه جديدا . مع النص على الروايات المختلفة للأبيات والعبارات .

(د) حرص الباحث على ذكر المصادر التى استقى منها شعر عبد الرحيم وهى تكاد تنحصر فى ثلاثة هى : الديوان بطبعتيه والمخطــوطات والصحافة الأدبية .

ولكننا نأخــذ عليه أنه ترك كثيرا من الكلمات دون تفسير ، وما فسر الا أقل القليل ، وكثير منه لا يحتاج الى تفسير ، مع أنه أعلن ابتداء فى دراسته أنه وضــع للديوان « حاشية تشمل الألفــاظ التى تحتــاج الى تفسير أو توضيح(٣٤) .

كما أننا نأخــذ عليه أنه لم يف بما وعــد من ايراد الأبيات مشكولة مرقمة ، فجاءت الأبيات مرقمة ، ولكنها غير مشكولة .

كما نأخــذ عليه خطأه أحيانا فى النقل دون تثبت ، ومثال ذلك أنه كتب تحت عنوان « ذكرى المولد الشريف » : قصيدة مفقودة ألقاها فى نادى أنصار الفضيلة بمناسبة عيد المولد الشريف عام ١٣٦٥ هـ منها هــذا العجز :

من راى فجرين فى صبح معــا(٣٥) .....

---

(٣٣) اطلقنا كلمــة « قصيدة » بشىء من التجاوز والتسامح ، فهى تتسع للمقطوعة ، وما تبقى من قصيدة مفقودة لو كان بيتا أو شطرا من بيت .

(٣٤) نافع : السابق ٩٠ .

(٣٥) نافع : السابق ١٥٢ .

وهـــو كلا لا معنى له ، وقـــد أورد جرار القصيدة كاملة(٣٦) ، وبيتها الأخير هـــو :

من رأى من قبـــــل اسمى ليـــلة ذات فجرين ينيران الظـــــلاما

ولكن يبقى ما قـــدمه نافع عبد الله ناما على مجهود صادق ومعـــاناة طويلة وعزم قـــوى ، ومع ذلك لا نستطيع أن نقطع ــ ولا الباحث نفسه ــ أن ما قـــدمه من شعر هـــو كل ما جادت به قريحة عبد الرحيم محمود . فلو افترضنا أن عمره الأدبى قرابة خمسة عشر عاما لكان معنى هـــذا ان حظه من النظم لا يزيد على خمسين بيتا فى العام . ولكن دعك من هـــــذا فالانتاج الفنى لا يخضع ولا يقاس بمثل هـــذا المعيار الحسابى الحاد ، ولنواجه هـــذه الأسئلة التى ما زالت ــ بعـــد هـــذا المجهود الصـــادق ــ تطل علينا برءوسها ، وتطلب الجواب :

ــ أين شعر البدايات ؟ .... أين شعر مرحلة « الحبـــــو الفنى » ؟ أين الباكورات التى نظمها عبد الرحيم طالبا فى السنة النهائية بمدرســـة النجاح .. ذلك الشعر الذى أعجب به الأستاذ ابراهيم طوقان ؟(٣٧) . اذ ليس من المعقول أن تكون البداية الشعرية سنة ١٩٣٥ بمثل قصيدة « نجم السعود » وهى من أنضج شعر عبد الرحيم .

ــ وأين المساجلات الشعرية بينه وبين شعراء العراق من أمثال : معروف الرصافى والمهـــدى الجواهرى وجميل صدقى الزهاوى ؟

ــ وأين ما نظمه الشاعر فى العراق وأحـــداثه بعامة ، وثورة رشيد عالى الكيلانى بخاصة ؟

ــ وهل من المعقول ألا يكون لهـــذا الشاعر الوطنى المخلص عاشق الحرية وفلسطين الا قصيدة واحـــدة أو قصيدتان فى الحنين الى وطنه بعـــد غيبة ثلاث سنوات عنه ؟

---

(٣٦) شاعران من جبل النار ٢٦٩ ــ ٢٧٠ .

(٣٧) انظر فـدوى طوقان : أحى ابراهيم فى صـدر ديوانه ص ٢٣ .

ـ ثم أين مذكراته التى أشار اليها بعض من كتبوا عنه ، وفيها ـ كما قيل ـ كان يوجه نقـــدا مرا لكثير من الرؤساء والقادة ؟

كل اولئك يجعلنا نرجح أنه ما زال هناك الكثير والكثير من شـــــعر عبد الرحيم تائها أو مفقودا ، واننا نسرف على انفسنا كثيرا اذا ما زعمنا أن ما جمعه نافع عبد الله يمثل كل ما نظم الشاعر .

وهـــذا الترجيح يرقى الى مرتبة اليقين اذا ما نظرنا الى تلك الدراسة اللاحقة التى كتبها وليد صادق سعيد جرار بعنوان : شاعران من جبل النار : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود ، والتى صدرت بعـــد كتاب نافع بست سنوات ، وقـــد حظى عبد الرحيم من هـــذه الدراسة بمـــــائة وخمسين صفحة ، وقـــد اعتمد الباحث اعتمادا كليا ـ كما قلنا ـ على مخطوطته التى ضمت ما جمعه من شعر عبد الرحيم ، واستقى من هـــذا المخطوط ـ الذى لم يطبع بعـــد كل شواهده مغفلا كل المنشورات السابقة ـ كما ذكرنا ـ على الرغم من وجود قصائد مشتركة بين مخطوطه وبينها .

وقـــد استخدم وليد جرار فى دراسته هـــذه ـ ما لا يقل عن ألف بيت فى تقييم فن الشاعر والكشف عن شخصيته واتجـــاهاته الفكرية ، وطوابعه الفنية ، ومن البدهى أن هـــذه الشواهد لا تمثل كل الديوان المخطوط .. بل ربما قلت عن النصف بكثير . وقـــد أحصيت من هـــذه الألف قرابة ثمانمائة بيت لم ترد فى الديوان بطبعاته الثلاث (١٩٥٨ ـ ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩)[٣٨] ، بعضها قصائد فائقة الطول كقصيدة « أحاج فى ذكرى وعـــد بلفور »[٣٩] فقـــد

(٣٨) لم ندخل فيما أحصينا ما زاده الدارس من أبيات على قصائد سبق نشرها فى احـدى الطبعات الثلاث السابقة ، انما اعتبرنا فقط ما كن قصائد أو مقطوعات لم يسبق نشرها أو نشر بعض منها باستثناء قصيدة « حنين الى الوطن » فقـد جاءت فى الطبعة الأولى ١٧ بيتا ، وجاءت عند السوافيرى ونافع ١٩ بيتا ، وجاءت فى دراسة جرار ٢٨ بيتا ص ٢٧٩ ، وقصـيدة « القرآن الكريم » فهى لم تنشر فى الديوان بطبعتيه الأولى والثانية ، ونشرها جرار ص ٢٦٧ فى ٤١ بيتا ، بينما نشر منها نافع ص ١٤٩ ثلاثة أبيات غير مرتبة هى : ١ ، ١٣ ، ٤١ ، على خلاف فى بعض الفاظ البيت الأخير بين نافع وجرار .

(٣٩) شاعران من جبل النار ٢٥٦ .

بلغت اثنين وسبعين بيتا ، وقصيدة « روض وانى عندليبه »(٤٠) فقد جاءت فى تسعة وخمسين بيتا ، وقصيدة « ثورة دمشق »(٤١) وقـــد بلغت اثنين وخمسين بيتـــــا .

فاذا افترضنا أن هـــذه الشواهد تمثل نصف الديوان المزمع طبعه — وهى لا شك أقل من هـــذا بكثير — وأضفنا اليها ما جمعه نافع عبد الله ملحقا بدراسته لضم الديوان المنتظر ما لا يقل عن ٢٥٠٠ بيت يمكن أن يقال انها كل أو جل ما جادت به قريحة الشاعر .

٣ — وتتمثل القيمة الكبرى للشعر الذى أورده وليد جرار فى انه كثيرا منه تناول موضوعات ونظم فى أغراض لا وجود لها — أو مست مسا خفيفا فى الديوان بكل طبعاته السابقة مثل الموضوعات والمناسبات الاسلامية والمـــدح وشعر الأحاجى والألغاز ، والموضوعات القومية العامة التى تتعلق بالوطن العربى .

ولكن الحكم النهائى الحاسم لن يكون الا بعـــد أن يطبع هذا المخطوط ونكون أمام ديوان الشاعر الشهيد فى طبعته الرابعة ، وقرائن الأحوال تدل على أنه سيكون فى هـذه الطبعة أوسع وأشمل وأوفى .

---

(٤٠) الســـابق ٢٩٨ .

(٤١) الســـابق ٢٨٢ .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

الشعر الفلسطينى والمناخ الفنى

ما بين أيدينا من شعر عبد الرحيم محمود يكاد يحـــدد عمره الفنى بثلاثة عشر عاما ، وان كنا قـــد ألمحنا من قبل الى أن ما عندنا من بداياته الشعرية يوحى بأن هـــذه البدايات ، أو ما يقال انها بدايات ــ مسبوقة ولا شـــك بغيرها من قصائد ، قلت أو كثرت ، طالت أو قصرت . ويؤيدنا فى هـــذا الرأى ما ذكرته اللجنة التى أصـــدرت ديوانه فى طبعته الأولى من أنها أغفلت كثيرا مما نظمه لأسباب أبدتها ، وهى فى مجموعها أسباب واهية مضعوفة ، ويأليتها ما فعلت(١) .

كما يؤيدنا فى ذلك ما أورده بعض الباحثين من أبيات قليلة نظمها الشاعر سنة ١٩٣٠(٢) .

وقبل أن نلج عالم الشاعر لنصحبه فى الآفاق التى حلق فيها بشعره . أرى أن نقف قليلا أمام الرقعة الأدبية التى دب عليها الشاعر ، والجو الفنى الذى سيطر عليها فى الربع الثانى من القرن العشرين والذى استغرق اغلبه العمر الفنى للشاعر .

---

(١) راجع الفصل الثالث من هـذا البحث .

(٢) أنظر وليد جرار : شاعران من جبل النار ٣٢٧ .

وقـــد عمرت هـــذه الفترة بعـــدد كبير من الشعراء تفاوت حظهم من الشهرة وحظهم من الشاعرية . ومن هؤلاء ابراهيم الدباغ واسكندر خورى ومحيى الدين الحاج عيسى الصفدى ومحمد العـــدنانى ومصباح العابودى ومطلق عبد الخالق وبرهان الدين العبوشى وفـــدوى طوقان ومحمود سليم الحوت وسعد العيسى وعلى هاشم رشيد وحسن البحيرى(٣) .

وربما كان أشهر هؤلاء فى تلك المرحلة ابراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمى (أبو سلمى) وعبد الرحيم محمود : وكانت هـــذه الفترة من أعمر الفترات وأزهاها فى حياة الشعر العربى الفلسطينى :

فمن الناحية السياسية شهدت هـــذه المرحلة هزاهز وأحـــداثا جلى انتهت بالنكبة الفاجعة ... وشهدت هـــذه الفترة انتفاضة ١٩٢٩ وثورة الفلسطينيين اثر حادث البراق ، وشهدت شنق الأحرار الثلاثة بعد ذلك . وشهدت ثورة عز الدين القسام التى انتهت باستشهاده واستشهاد بعض أصحابه . وشهدت الانتفاضة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ ، وشهدت نماذج شامخة من الكفاح من أبرزها نضال عبد الرحيم الحاج محمد ورفاقه . وشهدت قرار التقسيم الذى كان بداية سياسية دولية للنكبة وقيام دولة اسرائيل .

وكل هـــذه الأحـــداث ولا شك كانت عاملا رئيسيا فى تفتيق شاعرية الشعراء ، وتوجيه هـــذه الشاعرية نحو القضية الأم قضية فلسطين ، ومن هؤلاء ــ كما ذكرنا من قبل ــ من كان الشعر الفلسطينى يستغرق أغلب ما تجـــود به قريحته الشعرية مثل أبى سلمى وابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود ، فأصبحت الكلمة الشاعرة ــ لا مرآة تعكس أحـــداث العصر وكفاح الشعب فحسب ــ ولكن أداة فعالة لتفتيح العيون ، ودق أجراس الخطر ، والهاب المشاعر ، واثارة الأحاسيس . ومن الشعراء من لم يكتف بالكلمـــة بل حمل السلاح ، وخاض المعارك الى أن لقى ربه شهيدا مثل عبد الرحيم

---

(٣) يقول د. عبد الرحمن ياغى أنه جمع شعرا لأكثر من أربعين شاعرا شغلوا بشعرهم مساحة زمنية من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٩ (أنظر حياة الأدب الفلسطينى ٢٢٧) .

محمود . ومنهم من قاتل وروى أرض وطنه بدمه وان لم يحظ بالشهادة مثل برهان الدين العبوشى(٤) .

* * *

وكان المناخ الأدبى فى البلاد العربية المحيطة بفلسطين يشهد فى هـذه الفترة نهضة شعرية زاهية ، ففى الساحة الأدبية كان هناك شوقى وحافظ وخليل مطران وعبد الرحمن شكرى وأحمد نسيم واسماعيل صبرى . وفى العراق معروف الرصـافى وجميل صـدقى الزهاوى والمهـدى الجواهرى . واتجهت الأنظار كذلك الى الأمريكتين حيث شعراء المهجر الذين شـنفوا الأسماع بألحان عـذبة صادقة من أمثال جبران خليل جبران وايليا أبى ماضى وميخائيل نعيمة ورشيد سليم الخورى وفـوزى المعلوف ونعمة قازان .

وبدأ تيار التجـديد يرسى بعض قواعـده فى المنطقة العربية ، وان تبلور ـ بصفة أساسية ـ فيما يمكن أن نسميه « بالتجـديد الموضوعى » الذى اتسع للمضمون أكثر من اتساعه للشكل . وبذلك كان التجـديد وسطا لا شطط فيه ولا اسراف . اذ حافظ الشعراء ـ بصفة عامة ـ على أصالة الكلمة العربية ، والموسيقا المـأثورة ، ولكنهم ابتعدوا بموضوعاتهم عـن دائرة الاختناق فى الاخوانيات والمناسبات الخاصة ، وجنحوا بشعرهم نحو الوطن آلاما وآمالا وكفاحا ونضالا ، وتغنوا بالقيم الانسانية العليا من تضحية وفـداء وعـدل وحرية ، واستغرق الشعر الوطنى الفلسطينى أغلب شعر هـذه الفترة ، وكان للشعراء الشباب آنذاك فضل كبير فى التوجيه السياسى والاجتماعى ، وهاجموا الاستعمار .. وطالبوا بالاعتماد على الشعب وحـده فى تحقيق أهـدافه ، وهـو وحـده الذى يقرر المصير ، وأيدوا الحركات العمالية الناشئة آنذاك ، ودافعوا بالكلمة عن المثل العليا وعـن الحرية

(٤) اشترك الشاعر اشتراكا فعليا هـو وبعض الفلسطينيين فى ثورة رشيد عالى الكيلانى والتحق بالقوات العربية التى حاربت اليهود فى فلسطين سنة ١٩٤٧ ، كما خاض المعارك ضد اليهود مع جيش الانقاذ ، وأصيب بجرح بالغ فى كتفه (أنظر د. السوافيرى : الأدب العربى المعاصر فى فلسطين ١٥٢) .

والديمقراطية ... وساروا مع شعبهم ، وسجلوا كل خفقاته وتطلعاته ، وسجلوا أحزانه وأفراحه وسكناته وثوراته .

* * *

وكان بزوغ نجم ابراهيم طوقان أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات كسبا كبيرا للشعر الفلسطينى والوطنى منه بصفة خاصة ، فقد كان نموذجا حيا للشاعر الموهوب المثقف الذى سارت شاعريته فى طريق النمو المطرد مسترفدة ثقافته العربية الأصيلة ، واطلاعه الواسع على الآداب الانجليزية . وتعددت جوانبه الفنية ، وبرع فى كل هذه الجوانب ، فجاء شعره — كما يقول البدوى الملثم(٥) يشبه مثلثا متساوى الساقين : تمثل الساق الأولى شعره الوطنى ، وتمثل الثانية شعره الوجدانى ، اما قاعدة ذلك المثلث فتمثل ما لابراهيم من دعابات مستحبة ونقدات لاذعة أرسلها فى مجالات النكته والمباسطة والهجو ، وهو غير قليل » .

* * *

واستجاب الشعر الفلسطينى فى الربع الثانى من القرن العشرين للتيارات والمذاهب الأدبية التى هبت على المنطقة العربية ومنها الرومانسية أو الابتداعية التى ظهرت بذورها عند ابراهيم طوقان فى شعره الوجدانى فى الغزل ، وفى تصوير عاطفة حبه . وظهر تأثير هذا الاتجاه بصورة أقوى فى شعر عبد الكريم الكرمى « أبو سلمى » الذى كان حتى سنة ١٩٤٨ شاعر الحب والجمال ، يصوغ قصائده فى نحت تماثيل من الجمال لفيده وحسانه ، ويصور سعادته باللقاء ولوعته بالهجر(٦) .

ولكن أبا سلمى يتفوق على غيره — وخصوصا فى نطاق الشعر الوطنى — بخصيصتين :

---

(٥) ابراهيم طوقان فى وطنياته ووجدانياته ١٤ .

(٦) السوافيرى : الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى المعاصر ٢٢٠ .

الأولى : أنه لم يقف ــ وخصوصا بعــد النكبة ــ بقصيدة الغزل عند صورتها الوجــدانية التقليدية : من تصوير عاطفة الحب ، والوفاء للمحبوب ومناجاته .. الى آخر ما يتردد فى قصائد الغزل التقليدى ، ولكنه اتخــذ من القصيدة الغزلية منطلقا للسياحة الروحية فى أرجاء الوطـــن والتغنى بمعاهــده ومغانيه ومدارج صباه وشبابه على أرضه وتحت سمائه . ونلمس « هــذا التفاعل المتداخل المتجاوب فى نفس الشاعر ووجدانه بين حبه لفتاته وحبه لوطنه : فكل ما يذكره به يذكره بها ، وكل جمال فيها جمال فيه ، وأيام هــواه انما مغناها فى وطنه ومرتع صباه ، ومغانى لهوه انما هى بلاده السليبة . وليالى الوصال انما كانت فى أحضان سفوح وطنه ومروجه وعلى ربواته وبين جناته »(٧) . بذلك تحولت قصيدة الغزل عنده الى ما يمكن أن نسميه « بالغزل الوطنى »(٨) ، وهو اتجاه توسع فيه شعراء المقاومة بعــد ذلك وخصوصا الثلاثى : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد .

أما الخصيصة الثانية فهى أنه كان من أسبق الشعراء الفلسطينيين ــ ان لم يكن أسبقهم ــ فى الربط بين الكفاح الفلسطينى وحركات الكفاح الأخرى فى العالم ضــد الاستعمار(٩) . ومن أروع قصائده التى تسبح فى هــذا الفلك قصيدته « فقير ايبى »(١٠) وفيها يقول :

فقــير ايبى حطم القيــــودا ... على المــدى ووحــد الجهــودا
وارفع على جبالك البنــودا ... حمرا ترد المــوت والجنـــودا
لابــد للثــورة أن تسودا ... نحن وأنتم نطلب الخلودا
الانجليز انكروا العهـــــودا ... وحالفــوا من بعــدنا اليهودا
لأننا على طريق الهند(١١)

---

(٧) د٠ ناصر الدين الأسد : محاضرات فى الشعر الحـديث فى فلسطين والاردن ٢٢٢ ٠

(٨) أنظر ديوان « أغنيات بلادى » فى « أعماله الكاملة » ١٧٥ وما بعـدها ٠

(٨) أنظر قصيدته « الى فرنسا سيباستوبول » ٥٠ ـ وقصيدته « مرحبــا بالرفاق » ٥٤ من ديوانه (الأعمال الكاملة) ٠

(١٠) وهو ثائر هندى أعلن الثورة المسلحة ضــد الحكومة البريطانية فى الهند ٠

(١١) أبو سلمى : الديوان ٣٦ ٠

وذلك يدل على أن الشـــعر الفلسطينى فى هـــذه الفترة لم يكـــن منفلتـــا عن الأحـــداث والتيارات السياسية والاجتماعية التى شغلت العالم آنذاك . كما أن التيارات والمذاهب الأدبية التى سادت العالم والعالم العربى آنذاك كان لها بصماتها على هـــذا الشعر ، ومنها المذهب الرومانسى الذى كان يهيمن على شعراء الديوان . وشعراء أبولو آنذاك فى مصر . كما كان له عند شعراء المهجر المكانة الأولى ، وقـــد قـــدم خليل مطران من الشعر الرومانسى نماذج عليا فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات حتى ليستحق أن نطلق عليه « أبا الرومانسية فى العصر الحـــديث » .

وقـــد انعكست هـــذه الأصـــداء الرومانسية على الشعر الفلسطينى فى الربع الثانى من القرن العشرين بصفة خاصة كما ذكرنا ، ولكن علينا أن نلاحظ ـــ كما ألمعنا من قبل ـــ أن الطابع الرومانسى لم يكن طابعا حادا مسرفا يتنكر للاتجاه الكلاسيكى ليزيحه عن مكانه ، بل بقيت ملامح متعـــددة لهـــذا الاتجاه منها الحرص على القوالب اللفظية الأصيلة ، والوضوح الفكرى ، والقصد فى التجـــديد الموسيقى الذى لم يتعـــد فى أغلبه نظام المقطوعة ، أو بتعبير آخر كان هناك « توفيق عادل » بين الكلاسيكية فى هـــذه الملامح وبين الرومانسية وخصوصا فى خيالها ، وتأكيدها على الذات فى توازن معقول ، وذلك واضح عند ابراهيم طوقان وأبى سلمى وعبد الرحيم محمود على فروق بينهم فى الابتعاد أو الاقتراب من احـــدى الوجهتين « فكان شعرهم مستجيبا لتفاصيل الحياة ، وكان موقفهم من هـــذه الحياة موقفا نقـــديا ، دون تقريرية باردة ، أو حماس طاغ ، أو خيال يشتط عن الواقع ، اذ كان لهم من وضوح الهـــدف ما جعل شعرهم ذا موقف نقـــدى فحققـــوا توازنا بين الذات والموضوع بحيث يدل أحـــدهما على الآخر »(١٢) ، وبحيث لم تنفرد احـــدى الوجهتين بالمكان دون الأخرى .

* * *

---

(١٢) خالد مصطفى : الشعر الفلسطينى الحديث ٥١ .

وشاعرنا عبد الرحيم محمود أحـــد الفرسان الثلاثة المشاهير الذين شغلوا هـــذه الفترة ، والفارسان الآخران ــ كما ذكرنا مرارا ــ همـــا ابراهيم طوقان وأبو سلمى (عبد الكريم الكرمى) . وقـــد اقتطف الموت ابراهيم وعبد الرحيم وهما فى العقد الرابع من عمرهما . أما أبو سلمى فقـــد عمر طويلا وشهد النكبة وآثارها ، وعاش النكبات التى أنزلتها اسرائيل والصهيونية ــ لا بفلسطين فحسب ــ ولكن بالأمة العربية جمعاء الى أن فارق الدنيا من بضع سنين وقـــد جاوز السبعين من عمره .

* * *

وبعـــد هـــذه الوقفة القصيرة التى ألقينا فى أثنائها بعض الضوء على الساحة الأدبية الفلسطينية لنتبين طابع المرحلة التى عاش فيها عبد الرحيم محمود ، آن لنا أن نلقى الضـــوء على شعره لنعيش معه ــ قبل الخلوص الى ملامحه الفنية ــ فى آفاقه الشعرية التى حلق فيها بادئين بالأفق الوطنى الفلسطينى والأفق القومى العربى .

الأفــق الوطنى والقــومى

والشعر الوطنى يمثل القــدر الأكبر من شعر الشاعر ، ويكاد يكون هــو سر شهرته وخصوصا قصائد معينة منه مثل قصيدة « الشهيد » التى تعتبر أشهر قصائده على الاطلاق ، بل تعتبر من أشهر قصائد الشــعر الفلسطينى كله .

وبعض هــذا الشعر يرتبط بمناسبات تاريخية معينة مثل قصيدته « نجم السعود »(١٣) التى القاها بين يدى الأمير سعود بن عبد العزيز فى ١٤ من أغسطس سنة ١٩٣٥ أثناء زيارة الأمير لفلسطين . ومثل قصيدته « وعد بلفور »(١٤) وقصيدة « موت بطــل » التى نظمها الشاعر فى رثاء المجاهــد عبد الرحيم الحاج محمد(١٥) ، وقصيدة « ذكرى الجامعة العربية »(١٦) وقــد نظمها بمناسبة ذكرى انشاء الجامعة العربية فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ .

وقــد لا ترتبط بعض القصائد بمناسبة تاريخية أو سياسية محــددة ، ولكنها تعكس الواقع التاريخى والسياسى الذى يعيشه الشعب بأبعــاده المختلفة منها قصيدة « الشهيد »(١٧) وقصيدة « شعب فلسطين »(١٨) فهى قصائد لا ترتبط بمناسبات محــددة التاريخ وان ارتبطت بالجــو السياسى العام والظروف التى يمر بها الوطن .

ولا عجب أن يكون الشعر الوطنى هــو الغرض الأول للشاعر ، فقــد نشأ نشأة جادة فى بيت دين وعلم ، والتزم بالكفاح العملى والنضال المسلح من فجر شبابه ، وكان شعوره بقضية وطنه شعورا عميقا عبر عنه بصدق وايمــان فى شعره .

(١٣) الديوان ١٢٥ .
(١٤) الديوان ١٢٦ .
(١٥) الديوان ١٣٤ .
(١٦) الديوان ١٤١ .
(١٧) الديوان ١٣١ .
(١٨) الديوان ١٢٨ .

كما أن طبيعة الأحـــداث وتتابعها وبشاعة الجرائم التى ارتكبهـــا الصهاينة والمستعمرون كان لهـــا اثر كبير فى هز مشاعر عبد الرحيم وغيره من الشعراء . **وأهم المضامين التى تناولها الشاعر فى قصائده الوطنية :**

١ ــ اجترار بعض مفاخر المـــاضى العربى والتذكير بأمجاده :

والشاعر يتخـــذ من هـــذا الاجترار وذلك التذكير نقطة انطلاق الى الحاضر الذى يجب أن يكون امتدادا لهـــذا المـــاضى المجيد ، بل يجب أن يرتكز عليه هـــذا الحاضر ، وأن يتخـــذ منه أساسه القوى الركين . ومسوغ هـــذا يكمن فى عنصرين أساسيين :

الأول : انسانية الرسالة ونبل الهـــدف : فالأمة العربية لم تستعمل القوة لاهـــدار الدماء واذلال الشعوب بل « لاحقاق ضائع مهـــدور » ومشاعلها لم تكن للحرق « ولكن للهـــدى والتنوير »(١٩) .

والثانى : عظمة الحضارة العربية والانتصارات والأمجاد التى أحرزها العرب قـــديما ، فتاريخهم هـــو تاريخ الشموخ والحرية الاباء ، فالتاريخ يؤكد أن :

العرب ما خضعوا لسلطة قيصر يوما ولا هانـــــوا أمام تجبر

لا يصبرون على أذى مهمـــا يكن والحر ان يسم الأذى لم يصبر(٢٠)

ومن هنا كان اعتزاز الشاعر « بالقـــديم » لأنه يمثل أمجادا عظيمة ضربت بأطنابها ، وثبتت قواعـــدها على مدار التاريخ بالعـــــلم والعمـــل والتضحية ، واصبح هـــذا القـــديم بما فيه من ثراء وقـــدرة يمثل طاقات ضخمة لو استعادتها الأمة ، وتدرعت بهـــا لحققت الكثير والكثير . يقـــول الشـــــاعر :

---

(١٩) أنظر قصيدة « أنشودة التحرير » الديوان ١٤٥ . وقصيدة « شعب فلسطين » ١٢٨ .

(٢٠) الديوان ١٢٦ .

أمتى ان تجرؤ علبك الزعاما ت فلا تيأسى ذريها وسيرى

القديم الجميل ريش جناحيـ ـك فرفى فى العالمين وطيرى(٢١)

فلا عجب اذن أن يعيش الشاعر على ذكريات هـذا المجـد الأثيل فى زهو واعتزاز ، ولكن سرعان ما تهزه الحسرات الأليمة للحاضر المر الـذى تعيشه فلسطين والأمة العربية :

هات من ذكرى زمان العز هات حبب المـاضى لى ما هـو آت

يا زمانا كلمـا ذكـرته ذهبت نفسى عليـه حسرات

حينما كنـا غصة غص بنـا صـدر أعـدانا وشوكا فى اللهاة

تـلك أيـام تقضـت هـل لهـا من رجعـات

ليتهـا لمـا تقضـت قـد قضت فيهـا حياتى(٢٢)

وحينما تتوالى النكبات ، وتشتد الظلمـات ، وتظهر فى الآفاق بوادر النكبة الساحقة يفزع الشاعر الى الأيام الخالدة فى سـجل الأمة العربيـة يناجيها ، ويتغنى بانتصاراتها لتكون باعثا للجهاد والصبر والاصرار من أجل اعادة هـذا المجـد الخالد ، فله قصيدة طويلة بعنـوان (أنشودة التحرير) القاها فى المهرجان الشعبى الذى أقيم فى حيفا احياء لذكرى معركة القادسية سنة ١٩٤٦ أبرز فيها بوعى ناضج ورؤية شفيفة الدروس والأسرار التى تعكسها هـذه المعركة الخالدة :

لم تكن قادسية المجـد الا صفحات من سفر عز شـهير

هى لفز الألفاز كيف يكـو ن القل نصرا على العديد الوفير

---

(٢١) الديوان ١٤٦ .

(٢٢) الديوان ١٣٧ .

غير أن الايمان بالحـــق والرو ـــح جـــدير بالنصر جد جـــدير

واجتماع القلوب أضمن للأمـــ ـــر المرجى من الشتيت النثير

عبرة ليت انا قـــد قبسنا النو ـــر منها فى مدلهم الأمـــــور(٢٣)

ويتوهج وجـــدان الشاعر ، ويتدفـــق قلبه بالنقمة والأسى وهـــو يرى مسرى النبى عليه السلام نهبا للمغتصب الغاشم ، فيفزع الى منقذ فلسطين ومطهرها من دنس الصليبيين : صلاح الدين الأيوبى :

قم يا صلاح فقد حم القضاء بنـــا قم يا صلاح فلن نبقى على الهون

قم يا صلاح فذا مسرى النبى غدا مأوى الذئاب وملجى كل مأفـــون

الخصم جمـــع أمـــوالا وأعتدة وجند الغيد فى ســـاح الميـــادين

ونحن قحطان أسد الغاب قد جفلت قلوبنا ونزلنا حمـــأة الطـــين(٢٤)

* * *

ولم يقف الشاعر بشعره عند فلسطين التى عاش لها ، ومات فى سبيلها ، ولكنه استشرف الأفاق القومية العربية عملا وقولا . وقـــد عرفنا أنه اشترك هـــو واخوانه الفلسطينيون فى ثورة رشيد عالى الكيلانى دفاعا عن الأرض العراقية والشرف العربى .

وله قصيدة من ثمانية وعشرين بيتا فى ذكرى الجامعة العربية ألقاها فى مهرجـــان فلســـطين الشـــعرى فى ١٤ من نوفمبر ١٩٤٦ ، وقـــد رأى فى الجامعة العربية حلمـــا تحقق ، وبه انضوت الأمة العربية تحت لـــواء الآلام الغامرة والمعاناة المشتركة . فعليها وعلى القائمين على أمرها أن يمحـــوا

---

(٢٣) الديوان ١٤٥ .

(٢٤) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٢٦٣ .

هـــذه الفواصل والحـــدود الصناعية المتوهمة التى فتت بهـــا الاستعمار وحـــدة هـــذه الأمة . يقول الشاعر :

عيد بأحناء الصـــدور يقـــام — من وحيه الأشعار والالهـــام
حلم لقـــد لابت عليه نفوسنا — أجمـــل بأن تتحقق الأحـــلام
جمـــع التشتيت فكل قطر درة — فى تاجـــه والوحـــدة النظـــام
فاذا تشكى النيل من آلامـــه — شقت مرائر دجـــــلة الآلام
واذا تنادى المغرب الأقصى لدى — جلى استجابت للنـــداء الشام
ذهبت خرافات الحـــدود فكلها — وطن لنا لو صحت الأفهام(٢٥)

ويرى أن من أهم مظاهر العيد الحقيقى مظهرين : الأول انسانى عام هـــو أن يتعايش البشر فى سلام وأمان ، وتعب الأرض « راح التعـــــاطف والحنان » . والمظهر الثانى وطنى قومى : وهـــو توحـــد العرب على المحبة والتعاون والوئام :

والبرق يســـــفر بالهـــوى — بين « الزهور » و « زعفران »
ويحمـــــلان الى الريـــا — ض أحـــر آيات التهـــانى
ويهنىء الأقصى العظيـــ — ـم اخـــا لـــه فى القيروان
ويصافح النجـــف الشريـــ — ـف وكـــربلاء المســـجدان
وتقبل الشـــام المحبـــ — ـة خـــد صـــنعاء اليمـــان
وتبـــوح بالحـــب الدفيـــ — ـن القـــدس بل والقريتـــان
العيـــد قطـــاع النـــوى — جمـــاع أســـباب التـــدانى(٢٦)

---

(٢٥) الديوان ١٤٤ .
(٢٦) ولبد جرار : الســـابق ٢٩٠ .

ونعـــود فنقول ان الشاعر لم يجمد نفسه فى حـــدود وطنه الجريح فلسطين ، بل امتد ببصره ، واخترق برؤيته الشعرية النافـــذة هـــذه الحدود الى الأوطان العربية الأخرى ، وخصوصا مصر وسوريا والعراق ، فهو يقف مع مصر وقفتين : الوقفة الأولى مع النيل العظيم الذى ينشر الخصب والفـــن والسحر والجمال أنى مضى فى مسيره المبارك ، وهى أبيات من اجمل ما قيل فى النهر الخالـــد :

والنيل شـــيخ ذوى الفنـــــو ن وكل فنـــــان ربيـــــــه

مرت على القفر الجـــــــدي ـــب يمينـــه فـــزها قشـــيبه

من فنـــــــه كمـــل الجمـــا ل ورام عن نقص يشـــــوبه

سلمت يداه : شـــــماله المو ســـوم يكمـــــله جنـــــوبه

فى فنـــــه بعث الحيـــــــا ة بضفتيه فمـــــن ضريبه(٢٧)

والشاعر يتخـــذ من هـــذه اللوحة الفتانة النابضة بالحياة منطلقا لحث ابناء النيل على اليقظة والوثوب والجهاد ، فمثل هـــذا النهر الخالد الحى الناشط لا يرضى لشعبه أن ينام ويستكين :

والنـــوم صنو الموت يؤذيـــــ ـــه فشب بالعزمات شيبه

شـــعب عيـــون النيـــــل تر مقـــه وتعشـــقه قلـــوبه

بعـــث الفنـــــــاء بشاطئيـــ ـــه فشب بالعـــزمات شـــيبه

ورمى بارواح الشـــــبا ب الكبر منه ففـــاح طيبـــه

من وحيـــــه بعث الجهـــــا د فايقظ الدنيـــا لهيبـــه(٢٨)

(٢٧) الســـابق ٢٨٦ ٠

(٢٨) السابق نفس الصفحة ٠

أما الوقفة الثانية فكانت فى الاربعينات بقصيدة بعنوان « موشح عرس » بمناسبة زواج الملك فاروق بالملكة فريدة ، وفيها يتطلع الى « مصر العلا » ، ويعبر عن ألمه وأسفه لاغفال مصر ما ينزل بفلسطين من نكبات وكوارث ، وهى أم العروبة ، وقلبها النابض ، ومن ثم كان عليها أن تضطلع برسالتها المقدسة فى مناصرة المظلوم ، واستعادة المنهوب ، ومواساة المستضعف الكسير . يقول الشاعر :

ان فى القدس لقلبا مخلصا ... لك يا مصر العلا لو تعلمين

كم به من هجر مصر غصصا ... فمتى قلبك يا مصر يلين

نادت القدس تروى قصصا ... ستحنين اليها بعد حين

* * *

زكى الوادى بعطر أزهرا ... أين من رياه ريا النرجس

مصر واسى قلبنا المنكسرا ... وأقيلى كبوة فى الأنفس

فهو ان أزهرت يوما أثمرا ... واذا تأسين يا مصر اسى(٢٩)

* * *

ويمتد الشاعر ببصره الى العراق فيرثى الملك غازى(٣٠) الذى عقد عليه وطنه أملا كبيرا فى تحرير أمته والنهوض بها ، فقد كان العرب والعراقيون يؤمنون أنه :

---

(٢٩) السابق : نفس الصفحة .

(٣٠) هو غازى بن فيصل بن الحسين بن على الهاشمى (١٩١٢ ـ ١٩٣٩) ، ولد ونشأ بمكة ، وانتقل الى بغداد حين سمى وليا لعهد المملكة العراقية (سنة ١٩٢٤) ، تلقن تعليمه فى انجلترا ، ثم تخرج فى المدرسة العسكرية ببغداد . نودى به ملكا على العراق بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣٣ الى أن توفى ببغداد قتيلا فى حادث سيارة فى ٤ من ابريل سنة ١٩٣٩ ، وقيل مقتولا بتدبير من البريطانيين ليفسحوا طريق الحكم لخاله عبد الاله لأنه كان أكثر طواعية لسياستهم (أنظر لزركلى : الأعلام ٣٠٨/٥ . ولأحمد عطية الله : القاموس السياسى ١٠٣٢) .

كان نجما يهتدى الســـارى به　　فى دياجير الليالى الكالحـــات

كم قلوب رقصت خفاقـــــــة　　حينما لاح بديع القســـــمات

أدخـــل النـــور على أفئـــدة　　كن من نور الأمـــانى مقفرات

كـــان نجمـــــا ثم غـــــاب

وتـــــوارى　فى التراب(٣١)

ويتحـــدث الشاعر عن شبابه الغض الذى انعقدت عليه آمال العراق والعرب ، وكيف غـــدر الدهر فقصف هـــذا الغصين الرطيب ، فمضى حطما قصيرا قضى وخلف فى النفوس الآلام والأحزان والحسرات .

* * *

ويتعاطف الشاعر فى صـــدق مع سوريا فى نكبتها بالطوفان الذى اكتسح كثيرا من القرى ، واجتاحت ســـيوله دمشق نفسها ، وهـــلك بسببه كثير من الرجال والنساء والأطفال ، وبقلب مفجـــوع يفصل الشاعر مظـــاهر النكبة فى عشرات من الأبيات منها قوله :

بنفسى عقـــــدا نظيما يفض　　وشملا تبـــــدد يلقى الردى

فمن صـــائح : يا أبى يا أبى　　ومن صـــارخ وأأخـــا وأأخـــا

ومن لائـــذ بذيول الفـــــرا　　ر ولات فرار يزيل القضـــــا

تمنى الذى قـــد أصـــاب النجا　　ة بعيـــــد التبصر أن لانجـــا

فبعـــد الديـــار ونأى الأحبـــ　　ة يصمى الحياة ويودى الهدى

(٣١) الديوان ١٣٦ .

مشاهـــد لانت لهـــا العاتيا ت فاذرفت الدمع صم الصفا

دمشـــق الجريح وأنت الفـــؤا د جرحت وللقـــدس فيك الضنا

دمشق الحبيبة لبيـــــــك لا يرعك الزمان فانا الفـــــدى(٣٢)

* * *

وعندما تثور دمشق على الفرنسيين سنة ١٩٤٤ يمجـــد الشاعر كفاح الشعب السورى الشقيق ، فقد أبو الرق ، وحطموا القيود ، واستلهموا ماضيهم المجيد فى كفاحهم الصادق من أجل الحرية والاستقلال ، فهم أبطال :

أباة لا يقـــر لهم قـــرار على خسف كمفترش قتـــادا

وخطوا فى الخلود لهم كتـــابا دم الأحرار كان لهم مـــدادا

اذا بخســـوا يزيدون اعتزازا وان ظلموا يثـــورون اعتـــدادا

وتخلق منهم الجلى أســـودا وتشـــحذهم الهمم الشدادا(٣٣)

ويستوحـــون تاريخـــا مجيـــدا به تاهوا على الدنيا ارتيادا(٣٤)

ويندد الشاعر بسياسة فرنسا وديجول مزريا بهـــذه الألوف المؤلفـــة من الجنود السنغاليين الذين رمت بهم فرنسا سوريا معلنا ان هـــذه الألوف لن تغنى فى حرب ضروس « بكثرتهم ولو كانوا جرادا » ، فالنصر فى النهاية للشعب ... للشعب المجيد المكافح .

* * *

(٣٢) جرار : السابق ٢٨٢ .

(٣٣) كذا فى المرجع وهـو خطأ فى النحو وكسر فى الوزن ، وربما كان الصحيح ويشحذهمهم ممـــا شـــدادا .

(٣٤) جرار السابق ٢٨٣ .

ولنا ملاحظات على الشعر القومى الذى نظمه الشاعر . وهى تكاد تتلخص فيما يأتى :

ـ أنه يعـــد قليلا اذا قيس بالشعر الذى نظمه الشاعر فى قضية فلسطين بجوانبها المختلفة ، وهـــذا أمر لا غرابة فيه ، فقد كانت فلسطين هى الشغل الشاغل لشاعرنا . . . ولا عجب فهى قضية الأمة العربية جمعاء ، بل هى « قضية العصر » كما ذكرنا فى الفصل الأول .

ـ أن الشاعر كان يربط غالبا ـ بين فلسطين ـ على نحو من الأنحاء ـ وبين موضوعات شعره القومى العربى . فهو من القـــدس ـ مسرى النبى عليه السلام ـ يلوم مصر من واقع « فلسطينيته » لأنه يرى أنها لم تعط فلسطين الاهتمام المنشود .

وهـــو يعز عليه ـ فى سياق حـــديثه عن بطولة الشعب السورى ـ أن يكتفى بالمشاركة الوجـــدانية بالكلمات « ولا يزجى المثقفة الصـــعادا » ويقـــــول :

ففى قلبى من الأحقـــــاد نار على باريس تتقـــــد انقـــــادا

فلا يروى غليلى غـــير غمر دم رقراق يجتاح الوهادا(٣٥)

* * *

وفى قصيدته عن « طوقان دمشق » يربط بين دمشق والقـــدس ، ويقدم نفسه وقومه فـــداء لدمشق الغريقة ، فينادى :

دمشق الحبيبة : ليتـــــك لا يرعك الزمان ، فانا الفدى(٣٦)

(٣٥) جرار : السابق ٢٨٤ .

(٣٦) جرار : السابق ٢٨٢ .

ويؤكد الرابطة النفسية الوثيقـــة بين : الأقصى والقيروان والرياض والنجف وكربلاء والشام وصنعاء ... الخ .

ـــ أن شعره القومى العربى يمثل تطورا جـــديدا فى اتجاهه الفنى اذ جاء أغلبه فى الأربعينيات بعـــد أن زار سوريا والعراق وهـــذا وضع طبيعى يمكن تبريره بعـــدد من الأسباب من اهمها :

(أ) خروج القضية الفلسطينية من النطاق الخاص الى النطاق العام ، أو تعبير أدق : تحولها من قضية وطنية الى قضية قومية تهم الأمة العربية ، بل الى قضية عالمية انسانية هزت وما زالت تهز الضمير العـــــالمى .

(ب) اشتراك الشاعر فى ثورة رشيد عالى الكيلانى مما جعل الشاعر يزداد ايمانا بضرورة جمع الشمل العربى والوحـــدة العربية بعد أن رأى ما راى من قوة الأعـــداء وتعـــدد جبهاته فى مواجهـــة العالم العربى ، وبعـــد أن رأى كيف استخدم الانجليز قـــــوة عربية أردنية لضرب حركة الكيلانى وانتفاضة الشعب العراقى .

(جـ) زيادة وعيه ، وتفتح بصيرته ، ومما لا شك فيه أن الفترة التى قضاها بالعراق مكنته من توسيع مداركه بالقراءة والاندماج فى الأوساط الأدبية والسياسية ، وقـــد عرفنا انه كان له مطارحات ومناظرات ومساجلات شعرية مع عـــدد من شعراء العراق مثل معروف الرصافى والمهدى الجواهرى وجميل صـــدقى الزهاوى وغـــيرهم .

ـــ وآخر هـــذه الملاحظات أن شعره القومى فى مستواه العام لا يرقى الى مستوى شعره الوطنى الفلسطينى عاطفة وتصويرا وتعبيرا وذلك لا غرابة فيه من شاعر مقاتل عانى ما عانى فى سبيل القضية الفلسطينية الى أن لاقى ربه شهيدا فى موقعة الشجرة ، فالداعية الوطنية عنده كانت أقوى بكثير من الداعية القومية ، وخصوصا أن الراى العام العربى لم يكن له من قوة الارادة وثبوت الوجود ما يقرر به مصيره ، فالحكومات التى كانت قائمة آنذاك اما حكومات صنعها الاستعمار صنعا ، واما حكومات

يساندها الاستعمار ، ويقف بجانبها ضـــد أى تطلع من الشعب للتغيير ، وكلها تشترك فى التمتع بالحماية الاستعمارية على نحو من الأنحاء ٠

٢ ــ التنبؤ بالنكبة وتصوير مقـــدماتها :

لقـــد كان صـــوت عبد الرحيم من الأصوات الباكرة التى دقت ناقوس الخطر ، وتنبأت فى أسى بسقوط القـــدس والمسجد الأقصى ، فهو يخاطب الأمير سعود بن عبد العزيز قائلا :

المسجد الأقصى أجئت تزوره أم جئت من قبل الضياع تودعـــه

حرم تباح لكل أوكـــع آبـــق ولكل آفاق شريد أربعـــه(٣٧)

ثم بعـــد ذلك لا يبقى سوى « دمع لنا يهمى وسن نقرعه » ٠ ولات حين منـــدم ٠

٣ ــ حث الشعب على الجهاد والكفاح المسلح :

كان الشاعر يؤمن ايامنا راسخا بأن الكفاح المسلح هـــو السبيل الوحيد للخلاص ، وأن القعـــود عن الجهـــاد جريمة ترتكب فى حـــق الدين والوطن ٠ لذلك كان دائما يدعو الشعب الى النضال ورفع السلاح :

فسيروا للنضال الحـــق نارا تصب على العدى فى كل واد

فليس أحط من شعب قعيد عن الجلى ٠ وموطنه ينادى(٣٨)

ودعوته هـــذه ليست كلمات يلقيها على عواهنها وهـــو بعيد ينعم بالحياة الرخية ، ويكتفى بالقـــاء شعره الحماسى يلهب به المشاعر ، ويحمس القلوب ، لا ... بل هـــو الفارس القـــدوة السباق الى حومة الوغى ،

---

(٣٧) الديوان ١٢٥ ٠

(٣٨) الديوان ١٤٧ ٠

وكلماته ما هى الا انعكاس لمشاعر نفس عظيمة تسعد بالجهاد ، وتلهج به ، وتتعشق الفـــداء :

دعا الوطن الذبيح الى الجهاد فخف لفرط فرحته فـــؤادى

وســـابقت النسيم ولا افتخار أليس على ان افـــدى بلادى(٣٩)

أما المتقاعس عن هـــذا النضال فقد قطع فى أمره الشاعر بهـــذا الحكم المكثف الجـــازم :

ان تقاعست عن الحرب فانى مجرم يقعد عن شاو المعالى(٤٠)

فالقعود والتخلى فى هـــذه الحال لا يعـــد تخليا عن معركة وســـاحة قتال فحسب ، بل هـــو تهرب من تحصيل الأمجاد وتحقيق العظمة للفرد والأمة .

٤ ــ تمجيد البطـــولة والأبطـــال :

والبطـــولة فى نظر الشاعر مرادفة للشرف ، وهو اطلاق يطرد بكثرة فى قصائد الشاعر :

ونفس الشريف لهـــا غايتان ورود المنـــايا ونيـــل المنى(٤١)

لعمرك هـــذا ممـــات الرجال ومن رام موتا شريفا فذا(٤٢)

مت فى الحرب شريفا لم تطق ربقة الأسر ولانل العبيد(٤٣)

---

(٣٩) السابق نفس الصفحة .

(٤٠) الديوان ١٣٢ .

(٤١) الديوان ١٣١ .

(٤٢) السابق نفس الصفحة .

(٤٣) الديوان ١٣٥ .

ولا بطولة ــ أى لا شرف للانسان ــ اذا لم يعيش « مخوف الجناب حرام الحمى » يعيش لأهـــدافه العليا ، فاما ان يحققها ، واما ان يمـــوت دونها ، فان حققها فهى الحيـــاة التى تسر الصـــديق ، وان سقط دونهـــا فهو الموت الذى يغيظ العدى ... هكذا بلا وسطية ، ولا مقام بين ... المقامين . أما الدنيا بما حوت .. واما متاع الحياة بدعته ورخائه فلا مكان له فى قلب مثل هـــذا البطل الشهيد ، بل انه ينظر اليه من عل بعين الاستعلاء والشموخ ، وعلى فمه ابتسامة الهزء والاستهانة(٤٤) .

وانطلاقا من هـــذا المفهوم الشامخ للبطولة يقف الشاعر لاهجا بعظمة بطل من الأبطال المغاوير وهو المجاهد عبد الرحيم الحاج محمد الذى آثر سبيل الأبطال الشرفاء ... طريق النضال الدامى الى ان لقى الله شهيدا . يقـــول الشاعر فى مرثيته :

أيها القـــائد هـــذى ميتـــــة ... طالمـــا رجيتهـــا منـــذ بعيـــد
مصرع الأبطال ما بين الحديد ... فى الميادين ورفات البنـــــود
هـــذه أعراســـهم صـــخابة ... نقرة الدفا بها قصف الرعـــود
فيروون الثرى مـــــن دمهـــم ... ويحنـــون به كـــف الصـــعيد
ويزفـــون عليهم حـــــلل ... من نجيع الحرب تزرى بالبرود
هم تعـــــاويذ الحمى يقضى بهم ... عنه مكر السوء أوكيد الحسود
تحرق العـــاتى أنفـــــاسهمو ... ويذيبون بهـــا غل القيـــــود
وعلى أكتـــافهم تجنى المنى ... ويشاد الصرح للعيش الحميد(٤٥)

وكم لهج الشاعر ببطولة شعبه المناضل الذى تصـــدى للاستعمار الانجليزى والمؤامرات الصهيونية ، ولم تنل منه الصعاب لأنه تمرس بهـــا وفيهـــــا :

متمـــرد لم يرض يـــــــوما ... أن يقـــر على عـــــذاب(٤٦)

---

(٤٤) أنظر قصيدة « الشهيد » فى الديوان ١٣١ .

(٤٥) الديوان ١٣٥ .

(٤٦) أنظر قصيدة « شعب فلسطين » ص ١٢٨ من الديوان .

٥ ــ الحنين الى الوطن :

عاش الشاعر سنى حياته مناضلا بالكلمة والبندقية ، وعاش أمدا من عمره يطارده المستعمر الانجليزى ، واستطاع أن يتسلل الى العراق ، ويقضى هنـــاك قرابة ثلاث سنوات شغلها بالعمل فى حقل التعليم واستكمال ثقافتـــه العسكرية والاشتراك فى ثورة رشيد عالى الكيلانى ضـــد الانجليز ، وكان من المتوقع أن تكون هـــذه السنوات التى فارق فيها الشاعر وطنه الحبيب هى أعمر سنى عمره بشعر الحنين الى الوطن ، ولكننا لا نظفر من هـــذا اللون الشعرى الا بقصيدة واحـــدة تحمل عنوان « حنين الى الوطن » ، وهى قصيدة تقليدية تردد معانى مطروقة بعضها مستهلك الى حـــد بعيد ، فهو يرى وطنه فى مظاهر الطبيعة : فى ضياء الشمس ... فى نور القمر ... فى النسيم العـــذب ... فى خرير الجـــداول ... فى صخب النهر ... فى هتون الدمع ... فى لهيب الشوق ... فى دقة الناقوس ... الخ(٤٧) . وهى معان استغرقها شعراء المهجر على نحو أوفى وأعمق وأكثر شمولا وأصفى ديباجة وأرشق لفظا .

ونلحق بهـــذا اللون من الشعر قصيدة أبلغ وأعمق وأعمر من السابقة بالقيم النفسية والملامح الانسانية ، وهى قصيدة « حجر فى كثبان رمل »(٤٨) فهى واحـــدة من أرقى ما نظم الشاعر فكرا وعاطفة وأداء .. وقـــد رأى حجرا وحيدا فى صحراء قاحلة وهـــو فى غربته مطاردا من المستعمر فأسقط عليه شعوره الحـــاد بالوحـــدة والغربة ، ومخاطبـــا الحجر بلســـان الألم والفجيعـــة :

أنت الوحيـــد هنـــا ومـــا ... لى لا أقـــول أنا الوحيـــد
هيمـــان لا ادرى الفـــدا ... ة طريق منجـــاتى طريـــد

٦ ــ مسئولية الاهـــدار والضياع :

عايش عبد الرحيم محمود مقـــدمات النكبة وارهاصاتها ... ورأى

---

(٤٧) أنظر القصيدة فى الديوان ٤٠ .
(٤٨) الديوان ١٦٦ .

بعينيه ومشاعره كثيرا من ابعاد القضية : آلامها وآمالها ... صـــورها المشرفة الزاهية ، وصورها الكئيبة القاتمة ... راى الأرض تسحب شـــيئا فشيئا من تحت أقـــدام اصحابها لتغرس فيها الصهيونية عمائر وأشجارا ومصانع ودعارة وفسادا ، ورأى المستعمر يشنق المناضـــلين ، ويسجن الأحرار ، ويطارد المجاهدين ، ورأى بعضا من أبناء الوطن كيف يشدهم المال ويأسرهم بريق الذهب ، فيتخلون عن أرضهم وولائهم للتراب الذى درجوا عليه ، فاستجابوا لسماسرة الأرض وباعـــة المبادىء ، ورأى الحكومات العربية كيف تقاعست عن أداء دورها القومى فأضاعت بالتفريط والتهاون الكثير والكثير . رأى الشاعر كل ذلك فجاء شعره « قرارات ادانة » تصم كل أولئك الذين يمثلون أطرافا لكل منهم دوره الفعال فى خلق مأساة الوطن وانضاجها ، واهـــدار حقوقه وكرامته وحاضره .

والمسئولية الأولى عن ضياع الحـــق انما تقع على عاتق صاحب الحق نفسه ... هى مسئولية أبناء الوطن ... أو بعض ابناء الوطن الذين فرطوا عن قصد او اهمال فيما يجب أن يحرصوا عليه ، ويفـــدوه بأنفسهم ، وعاشوا على الفرقة والتطاحن والخصام ، فجاءت النكبة ـــ كما يقول المثل العربى ـــ « بيدى لا بيد عمرو » :

انا بأيدينـــا جرحنـــا قلبنـــا وبنـــا الينـــــا جـــاءت الآلام

فينا عن الحب المجمع جفـــوة ولنا بصحراء الخصام هيـــام

والخطب فرقنـــا قبائل جمـــة والخطب عند عداتنا لمـــام(٤٩)

واذا كان الكبار والقادة والزعماء يتقاتلون ويتشاحنون من أجل المناصب والكراسى فان الشاعر يرى أن المسئولية أساسا ترجع الى شعبه « الذى لم تنكب بنكبته الشعوب » لأنه هـــو الذى اختار هؤلاء الزعماء لقيادته فقلد امره « من بهم لا يرجع الحق الغصيب »(٥٠) .

---

(٤٩) الديوان ١٤٢ .

(٥٠) انظر قصيدة الى كل متهاود ١٢٩ .

والأمة تظلم نفسها بالاستسلام للحاكم الطاغية الذى ما كان ليطغى لو لم يجـدها ميتة الشعور منخورة الاحساس ، مهينة الكيـان ... أنهـا أمة غير جـديرة بشرف الانتساب للانسانية . لقـد صور الشاعر ذلك ببراعـة فى قـوله :

رايت يـوما أمـة يسـوقها سـوق الحطـم
محـكم تحسـب وقـ ـع السـوط والعصـا نغم
يرفـل مـن شـقائها بثـوب عـز ونعـم
عـاش على حرمانهـا فاسـلست ولـم تهم
فقـلت : هـذى أمـة مـن بشر أم من غنم ؟(٥١)

ولا تقف جناية الزعماء عند الانشغال بأنفسهم تطاحنا وتقاتلا جريا وراء الشهرة والجاه ... ان جنايتهم أفـدح من ذلك بكثير ، وقـد فصلها الشاعر فى قـوله :

وقالوا قادة خلقـوا شـعوبا ولو عكسوا لكان الأمر أولى
فنحن الشعب ان رمنا انطلاقا وجـدناهم لدى الأزمات غلا
أضلونا عن الجلى وتاهـوا وما كانوا ليهدوا الناس مثلى
فكم فعـل لهم عبث ولهـو وكم قول لهم ما صـح عقلا
تعقد امرنا بهمـو فأضـحى كذيل الضب يعجز أن يحـلا
وكان الشعب سيفا ذا مضاء فثلم حـده منهم وفـلا

---

(٥١) وليد جزار : شاعران من جبل النار ٢٥٤ .

أسود فى مجال القــول حمر منقرة لــدى حــرب وجلى(٥٢)

وهم فى سبيل المناصب والجاه يهــدم بعضهم بعضا ، أما ادعاؤهم الانشغال بالقضية ونكبة الشعب الفلسطينى فهو من قبيل « مصايد للظهور وليس الا » ويشبههم الشاعر « بالقرلى » وهــو طائر شديد الحــذر يضرب به المثــل فى الأثرة ، فيقال : فلان كالقرلى ، ان رأى شرا تعلى ، وان رأى خيرا تدلى .

والزعماء يخــدعون الشعب ، ويوهمونه بالحلول الناجعة القريبة ، فيعيش الشعب على هــذا التعلل وذاك الايهام مخــدور الشعور راقــد الاحساس الى ان يفاجأ بما يحطم كيانه ، ويهــدد أصل وجــوده ، وقــد صور الشاعر ذلك فى قوله :

مرت بنا الأيام بين تعــــلل بغد فضاعف بالرؤى الأحلام

ظلنا نقول غدا غدا هــل حققت للائبين على غــد أحــلام

ظلنا نقول غــدا يفيق ضمير من فقد الضمير ويعــد ل الظلام

ظلنا نفرر بالوعــود وينطــلى كذب ويفعل فعــله الايهــام(٥٣)

ونلاحظ أن الشاعر يلبس جناية الزعماء بجناية الشعب ، فغضبه لمظاهر التفكك والضياع والتهاون والتقاعس دفعه الى هــذا « التعميم » وكأن حــدة الانفعال قــد أنسته أن « تبعة الاهــدار » تقع على « فئــة معينة » من الشعب لا الشعب كله ، فهناك من ظل على الوفاء للأرض والوطن ورفع السلاح ، وأراق دمه فى سبيل أمته ومنهم الشاعر ، وان كانت النتائج تعم الجميع كالفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة وذلك لم يمنع الشاعر من أن يلهج بكفاح شعبه الذى وصفه بأنه :

---

(٥٢) وليد جرار : السابق ٢٥٣ .

(٥٣) الديوان ١٤١ .

شـــعب تمرس فى الصـــعاب ولم تنـــل منـــه الصـــعاب

لو همـــه انتـــاب الهضـــاب لدكدكت منـــه الهضـــــاب(٥٤)

* * *

ولا ينسى الشاعر جناية الاستعمار الانجليزى لا على فلسطين فحسب ، ولكن على الوطن العربى كله . لقـــد قامت ما يسمى بالثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦ ، وكانت هى العامل الأول فى القضاء على معاقل الأتراك فى الوطن العربى وانتصار الانجليز الذين نكثوا بوعودهم ، وخانوا وغـــدروا . والشاعر يشير فى احـــدى قصائده الى هـــذه المرحلة التى كانت فاصلة فى حياة الأمة العربية ، يبرز هـــذا الدور الخسيس انذى قام به الانجليز أو « الحليف » على حـــد قول الشاعر :

وأتى الحليف وقـــام فى أعتابنا متجبرا أنى هـــــدى المتحير

واستنصر العرب الكرام وانهم غوث الطريد ونصرة المستنصر(٥٥)

وبعـــد أن قـــدم العرب ما قـــدموه من تضحيات ، وأراقوه من دماء كانت النتيجة البشعة أن :

غدر الحليف وأى وعـــد صانه يوما وأية ذمة لم يخفـــــر

لمـــا قضى وطرا بفضل سيوفنا نسى اليد البيضا ولم يتذكر

واذا الدم المهراق لا بمراقـــه جدوى ولا بنجيعه المتحدر(٥٦)

وقـــد يكون من اللافت للنظر أن يكون هناك موضوعان أساسيان لم

---

(٥٤) الديوان ١٢٨ .

(٥٥) الديوان ١٢٦ .

(٥٦) السابق نفس الصفحة .

يعطهما الشاعر ما كان متوقعا من التفصيل والتعميق كما فعل ابراهيم طوقان وأبو سـلمى(٥٧) .

الأول : هو ابراز وتفصيل جناية الاستعمار الانجليزى فى مساندة اليهود وتدعيم الصهيونية حتى قامت دولتهم فى قلب الوطن العربى .

والثانى : ويكاد يكون امتدادا للأول ـ هـو تصوير آثار الاستعمار الانجليزى واليهودى فى فلسطين بشنق الأحرار ، وتدمير المنازل ، واضطهاد الأحرار ومطاردتهم .

أقـول قـد يبدو هـذا مستغربا من شاعر رصد نفسه للجهاد وجعل أغلب شعره لفلسطين ونكبتها ، ولكن هـذا الاستغراب سرعان ما يزال اذا ما رجعنا الى ما قلناه سابقا من أن الشاعر كان يؤمن ايمانا وثيقا بأن المسئولية الأولى والرئيسية عن النكبة ـ وقـد رأى بوادرها ـ ترجع الى بعض « أبناء فلسطين » ... منهم الزعماء ... منهم سماسرة الأرض ... ومنهم الذين أغرتهم المـادة الفانية فباعوا ارضهم لليهود . وقـد الح الشاعر على ابراز هـذه « المسئولية الذاتية او الداخلية » . فما كان للاستعمار ـ أيا كان شكله يهوديا كان او انجليزيا ـ أن يثبت أقـدامه ، ويمضى فى تنفيذ مخططاته ما لم يجـد ثغرات ينفـذ منها ، ونقاط ضعف يستغلها لتنفيذ مآربه ، وقـد تمثلت فيمن آثر نفسه على الوطن ، وفرط فى حقوق أمته من أجل مطلب خسيس . ويضرب الشاعر مثلا على ذلك « بوعـد بلفور » فما كان لمثل هذا الوعـد أن يتحقق ما لم يجـد من أفعالنا ومسلكنا المتهاون ما يساعده على التحقق :

بلفور ما بلفور ماذا وعـده ما لم يكن أفعالنا الابرام(٥٨)

والأمراض الاجتماعية الأخلاقية والسياسية من فرقة وخصام وتطاحن داخلى كل ذلك كان أساس النكبة والقاعـدة التى ارتكزت عليها الكوارث

---

(٥٧) أنظر ديوان أبى سلمى (الأعمال الكاملة) ٢٠ ، ٢٩ ، ٥٧ .

(٥٨) الديوان ١٢٦ .

التى حلت بالشعب الفلسطينى . وكان من المفروض ـــ وقـــد حلت بالشعب الـــكوارث والخطوب ـــ أن يوحـــد صـــفوفه لمجابهة الخطر الداهم صـــــفا واحـــدا . والمعروف أن الخطر ، أو حتى مجرد الشعور به يجمع الشتات ، ويوحـــد الكلمة ، ولكن كانت الحال ـــ كما يقول الشاعر ـــ :

والخطب فرقنا قبـــائل جمـــة والخطب عند عـــداتنا لمـــام(٥٩)

ويفصل الشاعر هـــذه الفكرة فى قوله :

ومن العجـــائب فى المصـــــا ئب فرقـــــة والهم واحـــــد

نقضى الحســـاة على خصا م بين نمام وحامـــــــد

راجـــت أباطيـــل التبجـــــ ـــح بيننا والفضـــل كاســـد

والخـــــير بات ضـــــحية ما بين هـــدام وناقـــد(٦٠)

نعم يلح الشاعر كثيرا على هـــذا المعنى فى كثير من قصائده : جرحنا كان بأيدينا ... على أنفسنا جنينا ... أضعنا أرضنا وعزنا بتفريطنا ، ولو أننا توحـــدنا ، وقـــوينا صفوفنا شعبا وزعماء وقادة لاستطعنا أن نحقق آمالنا ، ونهزم أعـــداءنا . وهى مقولة أثبتت الأيام صحتها على مدار التاريخ كله .

كان هـــذا هـــو الأفق الوطنى الفلسطينى حلق فيه الشاعر بوجـــدانه وايمانه ، كما انطلق فى افق اوسع دائرة وأبعـــد مدى هـــو الأفق القومى العربى . فماذا عن الأفق الاســـلامى وقـــد كان للشاعر فيـــه تحـــويمات وتهـــويمات ؟؟

---

(٥٩) الديوان ١٤٢ .

(٦٠) الديوان ١٥٦ .

عاش الشاعر مؤمنا بالله والوطن والقيم الانسانية ، وقـــد نشأ فى بيت علم ودين وتقوى ، وعايش قائدين متدينين تقيين همـــا عز الدين القسام وعبد الرحيم الحاج محمد ، وسار على دربهما الى أن لقى ربه شهيدا .

وسنرى ـــ فى تقييمنا لشعره ـــ أن للدين وللقرآن الكريم بصمات واضحة فى أسلوبه ، ولكننا نكتفى هنا بالتعرف على الموضوعات والأفكار والقيم الدينية التى عالجها ، ومنهجه فى ذلك(٦١) .

وبين أيدينا للشاعر أربع قصائد طوال : اثنتان منهما فى « القرآن الكريم » ، وقصيدة فى « المولد النبوى » وأخرى فى « ذكرى الهجرة النبوية » ، وكل قصيدة من هـــذه القصائد الأربع عامرة باعتزاز الشاعر بالدين القيم ونبيه العظيم وكتابه الكريم ، ذلك الكتاب الذى أخرج الناس من الظلمـــات الى النور ، وطهر القلوب من الأحقاد والبغضاء والاحن ، وأقام العلاقة بين الناس على الأخـــوة والحب والنقاء :

---

(٦١) خلا الديوان فى طبعتيه الأولى والثانية (١٩٥٨) ، (١٩٧٤) من أية قصيدة اسلامية . أما الديوان فى طبعته الثالثة (١٩٧٩) وهـو الملحق بالدراسة التى كتبها نافـــع عبد الله عن عبد الرحيم محمود ففيه من الاسلاميات : ثلاثة أبيات من قصيدة مفقودة بعنـــوان : القرآن الكريم . ص ١٤٩ . وقصيدة من ٣٨ بيتا بعنوان : ذكرى الهجرة النبوية ص ١٥٠ . وكذلك عجز مشوه لبيت من قصيدة القاها الشاعر فى نادى أنصار الفضيلة بحيفا بمناسبة عيد المولد النبوى الشريف سنة ١٩٦٥ .

ولكن وليد جرار فى كتابه : شاعران من جبل النار . كان أحفل بشعر الاسلاميات . فنشر قصيدة « القرآن الكريم » من ٤١ بيتا . ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ . أما القصيدة (المفقودة !!) التى نشر نافع منها ما قال انه عجز بيت فقـد نشرها جرار فى ٢٣ بيتا . ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ . وقـدم ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ واحـدا وثلاثين بيتا من قصيدة الهجرة التى نشرها نافع فى ٣٨ بيتا . ونشر وليد جرار (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤) قصيدة من ٤١ بيتا عن : القرآن الكريم . ولم يسبق نشرها فى الطبعات الثلاث السابقة .

والقى السلام على العالميـــ ن فـــذاقوا حلاوة طعم السلم

أناغيم لمـــا شـــداها الشـــدا ة أصاخ الزمان لحسن النغم

وصحى النيام نيـــام القـــلو ب فقام الأذان وخر الصنم

اقـــال عثـــار الخصال الملا ح ورسخ للمكرمات القـــدم

... ...

وقلم اظفار شرس الذئـــــا ب فلم تخش بطش الذئاب الغنم

وقاد الرعـــاة رعـــاة الشـــيا ه فصار الرعاة رعاة الأمم(٦٢)

ويلح الشاعر على قيم ثلاث استطاع الاسلام أن يجعل منها ركائز لمجتمع انسانى ركين وهى : العـــدل والوسطية والحب . وهى ركائز قوية ما كان المجتمع الاسلامى يقوم وينتصر بدونها : لقـــد جاء النبى الأمى فغزا القلوب بنور القرآن :

وأشاع العدل فى الأرض فلا أنؤب ترقب للشـــــاء اختراما

قال يا انسان لا تزهـــد وكن بين اخراك ودنيـــاك قـــواما

واحب الغير لا تفـــــدر بهم ان من يغـــدر بهم يلـــق اثاما(٦٣)

ويرسم الشاعر صورة زاهية للرعيل الأول من المسلمين الذين استجابوا لله وللرسول فمضوا أنجما زواهر يهتدى بها ، ولم لا وقـــد :

نصروا الله فلم يخـــذلهمـــو بل جزاهم ربهم فوزا ونصره

فمشوا فى الناس نورا وهدى وبدوا فوق جبين الدهر غره

---

(٦٢) جرار : شاعران من جبل النار ٢٦٨ .

(٦٣) جرار السابق ٢٧٠ من قصيدة « ليلة ذات فجرين » فى مولد الرسول عليه السلام .

ركزوا أرماحهم فـــوق العـــلا وحدا الحادى بهم عزا وشهره(٦٤)

والشـاعر فى شعر المناسبات الدينية لا يقف عند الوقائع والأحـــداث ، ولكنه يهتم اهتماما خاصـــا بالدروس والعبر المستقاه من هـــذه الأحـــداث الجليلة . فمن هـــذه الدروس التى استخلصها الشاعر من الهجرة أن الباطل مخـــذول أمام الحق اذا كان هناك قوة تحصنه . ومنها أن الفعل أحـــدى من القول ، وأن الدعوات تنصر بالأعمال لا الأقوال . ومنها أن الدعوات تقوم على التضحية بالنفس والأهل والمـــال ، وهـــذا هو سر خلودها ... ومنها أن المؤمن اذا عزم فليتوكل على الله لا يخشى شيئا(٦٥) .

والشـاعر لا يكتفى بمعايشة هـــذا المـــاضى المجيد بما فيه من أمجاد ولألاء ودروس وعبر ، بل انه يحرص كل الحرص على أن يربط بين المـــاضى والحاضر برباط وثيق ... والحاضر يفرض عليه بصماته ، وهـــذا الحاضر هـــو حاضر الأمة العربية والاسلامية والشعب الفلسطينى . وقـــد ظهرت معالم هـــذا الحاضر فى مظهرين :

المظهر الأول : ويبدو فى النعى على أبناء الجيل الحاضر الذين فرطـــوا فى التركة العظمى التى خلفها الأجـــداد ، حتى أصبحوا طعاما سائغا للأمم الأخرى .. يقول الشاعر بعـــد أن يرسم الصورة الزاهية لأجـــدادنا بمـــا فيها من قـــوة وعز وعلم وانتصار :

وجاء وراءهم نسل أضاعـــوا جنى أتعـــابهم فلبئس نســـل

تنافرت القـــلوب فـــلا وداد وفرق شملهم بـــدرا فـــذلوا

وهانوا لا يعز لهم قنـــــاة على الأعداء فانكسروا وغـــلوا

وناموا لا تفيقهم خطـــــوب ولا أنبـــاء جـــلاد يثـــل

---

(٦٤) الديوان ١٥٠ (من قصيدة ذكرى الهجرة النبوية) .

(٦٥) انظر الأبيات الخمسة الأولى فى القصيدة السابقة .

يدرس حرامهم طـير بفـاث ويقهرهم من الأقـوام سـفل

عجبت لمعشر فيهم كتـاب به طرق الهـداية كيف ضـلوا

تبـاع بلادهم وهمـو عليهـا وأيديهم بهـا شـح وبخـل

أعـدلهم أعـاديهم سـلاحا وعدتهم لهـا خطب وقول(٦٦)

ويلح الشاعر على الفكرة ذاتها فى قصيدة اخرى ، فيرسم صـورة مشابهة مطلعها :

واتينـا نحن من بعـد همـو وأضعفنا ما جنوا طيشا وغرة(٦٧)

وحتى تبدو المفارقة هائلة ، والبون شاسعا بين جيل الأجـداد وجيل الضعف والأسلاب يجمع الشاعر بين الصورتين المتقابلتين .. فبضدها تتميز الأشياء . فبعـد أن تنكرنا لديننا ، وهجرنا كتـاب الله فقـدنا رجاءنا وطريقنـا :

وخـارت عزائمنـا بعـده وصرنا سلاب الوغى نقتسم

وكانت لنـا عـزة المؤمنين فصرنا العبيد وصرنا الخـدم

فتلطم منـا عـزاز الخـدود وندعـو بخير لمـن قـد لطم

وكنا الرغام لأنف العـداة فصارت أنوف لنـا ترتغم(٦٨)

هكذا كنا ... وهكذا أصبحنا ، وقـد عاش الشاعر الصورتين .. عاش الصورة الأولى بوجـدان المؤمن وشفافية الشاعر ، وعاش الثانيـة معايشة الواقع المر الذى رآه حـوله على الساحة الفلسطينية والسـاحة

---

(٦٦) جرار السابق ٢٧٤ .

(٦٧) أنظر الديوان ١٥١ .

(٦٨) جرار السابق ٢٦٨ .

العربية ، حيث تنهب الأرض ، وتنهك الكرامات ، وتمزق الأعراض ، وتدمى الضمـــائر .

كان هـــذا هـــو المظهر الأول من مظاهر الحاضر فى شعر عبد الرحيم الاسلامى ، أما المظهر الثانى فهو الدعوة الى استخدام القوة وسيلة أثيرة ... بل وحيدة لاحقاق الحق :

قـــوة المـــرء لـــه حجتـــه وهى ان يظلم تقف نابا وظفره

و « أعـــــدوا » لم يقلها ربكم عبثا فلتحسنوا فى الذكر نظره

لم تكن هجرة طـــــه فرة انما كانت على التحقيق كره(٦٩)

ويقـــول الشـــاعر :

اذا لم تزاحم لنيل الحيـــــاة أصبت فنـــاءك فى المزدحم(٧٠)

ولكن هـــذه القوة لا قيمة لهـــا اذا لم يكن وراءها الطاقة الروحيـــة القادرة النابعة من الايمان بهـــذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـــه :

وخير السلاح كلام الالـــــــه فجـــل الالـــه وعز الكلم(٧١)

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة فهو الذى :

حمـــل القرآن نورا فى يـــــد واليد الأخرى بها هز الحساما

فالحسام العضب أجـــدى حيلة فى الذى يبصر لكن يتعامى(٧٢)

---

(٦٩) جرار : السابق ٢٧١ .

(٧٠) جرار : السابق ٢٦٩ .

(٧١) السابق نفس الصفحة .

(٧٢) الســـابق ٢٧٠ .

وهـــو نفس المنهج الذى سار فيه القسام ذلك المجاهد الذى كان يرى أن طريق الخلاص لن يكون الا « بكتاب الله فى يد ، والبندقية فى يد أخرى »(٧٣) .

وفى تضاعيف هـــذه القصائد وغيرها يتغنى الشاعر بالقيم الاسلامية من حـــق وعـــدل وقوة وحكمة ومضاء وسماحة وانسانية لذلك اتسع المجتمع الاسلامى الأول ـــ لا للعرب فحسب ـــ بل للمسلمين أيا كانت جنسيتهم ، فالعبرة بالعمل ، وأكرم الناس على الله هـــو أتقاهم :

وسعت دارنا صهيبا وســـلما ن ولبى بـــــلال بالتكـــــبير
تلك أيد لنـــا سبقت على الانسان لـــكن ياويحـــه من كفـــــور(٧٤)

ومن ثم يرى الشاعر أن فى شرعة الاسلام لاخلاص المسلمين فحسب بل خلاص البشرية جمعاء ممـــا تعانيه من أزمات ومشكلات وتطاحن وحروب ... انها :

شرعة لو طبقت ما أزهقـــت انفس تردى وهام تترامى(٧٥)

وانطلاقا من هـــذا الايمان بعظمة الشريعة الاسلامية يصرخ الشاعر بقومه أن يعودوا الى هـــذا المنهل النقى الصافى ... منهل القرآن العظيم ذلك الكتاب القيم الذى أنقـــذ العرب من الضياع وأخرج الناس من الظلمات الى النـــور :

الى القرآن عودوا يا حيـــارى ففى طيـــاته عـــــبر تـــدل
تدل على المحجة فاتبعـــــوها تفكوا ربقة العانى وتعلوا(٧٦)

---

(٧٣) د٠ عواطف عبد الرحمن : مصر وفلسطين ٢٥٦ ٠
(٧٤) الديوان ١٤٦ ٠
(٧٥) جرار : السابق ٢٧٠ ٠
(٧٦) جرار السابق ٢٧٤ ٠

الأفــق الانســانى

نقصد بالأفق الانسانى فى شعر الشاعر الموضوعات التى تتناول الانسان من حيث هــو انسان ... من حيث هــو كيان له نبضه ومعاناته ومطالبه وآلامه وآماله بصرف النظر عن اسمه ومركزه والحيز الزمانى أو المكانى الذى يشغله فى دنيا الناس .

وكذلك الموضوعات التى تعــالج موقف الشــاعر من القيم الانســانية سواء أمثلت ما يمكن أن نسميه « القيم السلبية » أو « قيم التخلى » وأعنى بها تجنب القيم المرذولة التى تسىء الى الانسانية ، وتجر البشرية الى الخواء والخراب والضياع وذلك مثل الكذب والغــدر والأثرة والنفاق والتسلط ، أو مثلت « القيم الايجابية » ... « قيم التحلى » وهى القيم التى عليهــا يقوم الكيان الانسانى من رجولة ونجــدة وأريحية وتضحية وفــداء ، أو بتعبير أكثر ايجازا « ابراز موقف الشاعر من الحياة » فالشعر الصادق — مهما كان تعبيرا ذاتيا عن صاحبه — انما يمس من قريب أو بعيد ظروف الحياة التى تعيشها الجماعة سواء أكان الشاعر نفسه على وعى بهــذه الحقيقة أو لم يكن »(٧٧) .

ولعل هــذا هــو ما يعنيه « كولردج » بمقولته المشهورة التى يقرر فيها أن الأدب « نقــد للحياة »(٧٨) .

وهــذا لا يعنى أن تكون القصيدة سجلا « لدستور » من القيم ، ومعرضا يزاحم فيه الفكر بعضه بعضا ، فالأفكار والقيم فى الشعر لا تأتى منفصلة عن الاحساس ، أو تكون تقريرا مباشرا يبدد الوحــدة الانفعالية للقصيدة(٧٩) .

---

(٧٧) عز الدين اسماعيل : الشعر فى اطار العصر الثورى ٤ .

(٧٨) الســابق ٦ .

(٧٩) أنظر فى ذلك مقالا لعلى شلش بعنوان : الفكر الشعرى . من ٦٨ الى ص ٧٧ من مجلة الشعر . ديسمبر ١٩٦٤ .

وفى مقام الحـــديث عن الأفق الانسانى الذى سبح فيه الشاعر بشعره يطل علينا السؤال التقليدى : ما « الأيديولوجية » التى يصـــدر عنها الشاعر فى « انسانياته » ؟ وهى ــ كما هـــو معروف ــ تتسع لموافقـــه السياسية والاجتماعية • ولا أجـــد فى الرد على هـــذا السؤال ابلغ وادق مما قاله أحـــد النقاد المحـــدثين من أن هـــذه الأيديولوجية تنبع أساسا من الاحساس الذاتى للشاعر ... احساسه الذاتى بالقضايا الكيانية الكبرى ، لذلك فهو لا ينحصر فى أطر سياسية او اجتماعية أو اقتصادية ، انما هـــو يكتسب ايديولوجيته فى الاطار الحضارى الشامل لمـــأساة الانسان من هـــذه الزاوية ، بحيث لا تبرز المشكلة السياسية او الاجتماعية كعنصر وحيد مستقل عن بقيـــة العناصر المكونة لمـــأساة البشرية ، وانما تتشابك فى جوهر مركب يتجاوز الأوطان الصغيرة حتى ليشتمل على الكون بأسره ، كما يتجاوز مرارة الاحداث التاريخية السريعة الزوال ليتوقف عند تخوم الحـــدث اللانهائى فى أزمة الانسان والعـــالم(٨٠) .

وانطلاقا من هـــذا التكييف السديد نرفض راى بعض الكتـــاب الذين أسرفوا على انفسهم ، فذهب بعضهم الى أن عبد الرحيم محمود « كان يتبنى النزعة الاشتراكية »(٨١) ، أو « كان ذا نزعة يسارية »(٨٢) . وقـــد سبق لنا فى الفصل الثانى فى سياق حـــديثنا عن مسيرة حياة الشاعر وابعـــــاد شخصيته أن وضحنا كيف كان شاعرنا مؤمنا صادق الايمـــان سليم التدين ، قـــوى العقيدة يرى أن الايمان بمفهومه الشامل هـــو الوسيلة المثلى لتحقيق النصر فيـــقول :

غير أن الايمان بالحـــق والرو ح جدير بالنصر جد جدير(٨٣)

ويندرج تحت هـــذه السمة ــ سمة الايمان بمفهومه العقدى والسلوكى

(٨٠) غالى شكرى : الأيديولوجية والشعر ٩٤ ــ ٩٥ • مقال فى مجلة الشعر (ص ٨٢ ــ ١٠٥) العـــدد الرابع ــ السنة الأولى ابريل ١٩٦٤ •

(٨١) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ١٠٤ •

(٨٢) عبد الرحمن الكيالى : الشعر الفلسطينى فى نكبة فلسطين ٩٨ •

(٨٣) الديوان ١٤٥ •

ـــ ايمان شاعرنا بوطنه وقضـــية خلاصه من الطغاة والبغـــاة مهمـــا كانت التضحيات ، وهـــو ايمان يحكمه نقاء ثورى عتيد يتلخص ـــ كما ذكرنا فى الفصل لثانى ـــ فى أن يكون الوطن هـــو الأيديولوجية الأولى والاخيرة ... بل الوحيدة للمناضل ، والوطن فى هـــذه « الأيديولوجية » مفهوم له شقان : الأول : مادى : ويعنى الأرض التى يعيش عليها أصحابها .

والثانى : معنوى : ويعنى الفكر والعقائد والتراث الانسانى الذى نشأ على هـــذه الأرض على مدى قرون طويلة محصلة للجهد والجهاد والمعاناة . وهما شقان يمثلان وجهين لعملة واحـــدة بحيث تصبح محاولة الفصل بينهما عملا مناقضا لطبائع الأشياء وانسلاخا كاملا من النضال والثورية .

وبذلك استطاع الشاعر عبد الرحيم محمود أن يوفق بين ما يمكن أن يظنه بعضهم « وطنيا محليا خاصا » وبين ما هـــو « انسانى شمولى عام » ... فكان فى وطنياته مرتبطا ومصدرا عن « انسانية الرسالة » ونبلهـــا وعظمتها وأصالتها ... تلك الرسالة التى احقت الحق ، وابطلت الباطـــل ، ومزقت الظلمات ، وأثارت العقول(٨٤) .

وقصيدته « الشهيد » على الرغم من أنها انعكاس لمـــا شاهد فى أرضه فلسطين من أحكام الاعـــدام التى أصـــدرتها حكومة الانتـــداب لا تأخـــذ الطابع المحلى الحاد ، بل تصلح أن تكون انشودة لكل مناضل يحرص على التضحية بروحه فى سبيل وطنه فى أى رجا من أرجاء الأرض .

* * *

ومضى الشاعر يهاجم القيم المهترئه ... هاجم الظلم والاستبداد ... وهاجم منطق الطغاة الذين جعلوا همهم الأول والأخير حماية انفسهم على حساب الحق والعـــدل والسلام والشعوب متذرعين بالاكاذيب والادعـــاءات المـــائنة بأنهم حريصون على السلام والاستقرار :

---

(٨٤) انظر قصيدة « انشودة التحرير » الديوان ١٤٥ ـ ١٤٦ .

وقال الظالمون وقد تمادوا ... بظلم الناس : غايتنا السلام
فاما رام طرح القيد عبد ... وفك قيوده غضبوا ولاموا
وقالوا ثائر يبغى اهتزاما ... لعالمهم فهل هذا كلام
فان تنظر اليهم باحتقار ... وان تحقد عليهم هل تلام(٨٥)

وفى ظل هذا المنطق المعوج تختل القيم ، وتنقلب الموازين ، ويوسد الأمر غير اهله ، ويعلو من لا يستحق الاعتلاء ، ويظفر من حقه الاخفاق والضياع فى عالم :

يحظى به الكذاب بالمشتهى ... والتعس للمخلص الصادق
الخير والخبز غدا حكرة ... لبعضهم والويل للسارق
هم اوجدوا السارق من حاجة ... وقيل هذى قسمة الخالق
يا منطقا لم يرو عن عاقل ... اعمى خبر منه للناطق(٨٦)

وهى ابيات تدين المجتمعات الناهبة الظالمة ، وتشير اشارة بارعة الى جريرة المجتمع فى خلق الجريمة ، وهذا يعنى أنها — فى الغالب — وليدة الظلم الاجتماعى . وفى مجتمع الناهبين والسارقين والمستغلين يهدر الشرف ، وتنحدر الكرامات ، وتضيع الطبقات الدنيا والشرفاء الذين يريقون عرقهم وأنفاسهم وجهودهم فى سبيل كسرات خبز تمسك عليهم حشاشة الحياة . وقد قدم الشاعر نموذجا من هؤلاء المطحونين فى قصيدته « رثاء حمال » التى نظمها فى تشرين ١٩٤٧ يوم رأى على قارعة الطريق بالقرب من سوق (حسبة الخضر) فى حيفا حمالا ميتا ، وبجانبه سله وحبله ، والناس يمرون به فلا يأبهون(٨٧) .

وفى القصيدة تعريض قاصف بمن ماتت ضمائرهم من البشر ... هؤلاء الذين يضيع فيهم مثل هذا المضعوف لأنهم لا يوقرون ، ولا يحترمون الا كل قوى غلاب . يقول الشاعر فى مطلع قصيدته مخاطبا هذا الحمال ، ناعيا على القيم الاجتماعية الفاسدة :

---

(٨٥) الديوان ١٥٧ .
(٨٦) السابق ١٦٢ .
(٨٧) الديوان ١٦١ .

قد عشت فى الدنيا غريبا وها ... قــد مت بين الناس موت الغريب
والنــاس مذ كانوا ذوو قسوة ... وليس للمضعوف فيهم نصيب
أو كنت فى حبــلك شــناقهم ... لولولوا حزنا وشــقوا الجيوب
أو كنت من ســـلك رزاقهم ... لقام عند السل ألفــا خطيب
ونزهــوا حبــلك عن عيبــه ... وبللوا السل بذوب القـــلوب
لكنــك الحمــال لم يطمعــوا ... فيك ولم يخشوا أذاك الرهيب
رغيفــك الطــاهر غمســـته ... فى عرق زاك ودمـــع صبيب
ما كنت سلابا أخــا غصــبة ... بل كنت ذا حق سليب غصيب
فرحت لم يسكب عليــك امرؤ ... دمعا ولا قلب رقيــق يلــوب
ولم يودعـــك حبيب وقـــد ... يهــون الصعب وداع الحبيب

ان الأرض تتسع بمناكبها الشاسعة الرحيبــة لبنى البشر ، وكل من فيها يستطيع أن يحصل رزقه ما سعى ، والجميع يستطيعون أن يضمنوا الحياة الطيبة الكريمة ما تجنبوا الطمع والظلم والأثرة . وفى ذلك يقــول الشـــاعر :

أتينا للحيـــاة فلى نصــيب ... كما لك أنت فى الدنيا نصيب
فلم تعدو وتغصبنى حقــوقى ... وتطلب أن يسالمك الغصــيب
أعدلك قال أن أسعى وتجنى ... واطلب المعــاش فــلا تجيب
فانصفنى ولا تجحـــف فانى ... أخوك اذا دهى الخطب العصيب(٨٨)

ويعيش الشاعر وهو يلهج بأمنية تستبد بكل مشاعره وهى أن تعتدل الموازين ، ويوسد الأمر أهله ، وينال كل ذى حــق حقــه ، ويعلو كل جــدير بالعلاء ، ويهوى كل من هــو حرى بالدرك الأسفل ، فيهتف الشاعر فى عالم سادته المظالم والجحود :

متى أرى الحــق واصــحابه ... يعلون من أدنى الى شــاهق
وأبصر الشر وارباب ... يهوون من أعلى الى ساحق(٨٩)

* * *

(٨٨) الديوان ٥٨ .
(٨٩) الســابق ١٦٣ .

ويؤمن الشاعر بحقيقة ازلية مؤداها « انها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصـــدور » ، ويتخـــذ من شخصية أبى العلاء المعرى مثـــالا لتكثيف هـــذه الحقيقة والنفـــوذ ـــ ببصيرته القادرة ـــ الى عيـــوب المجتمعات ونقائصها ، والخلوص الى ما فيها من متناقضات وبغى وعـــدوان ، وينتصر للحقيقة التى ظلمها وتذكر لهـــا « المبصرون » .... العميان من بنى البشر . يقول الشاعر عن حكيم المعرة(٩٠) .

أعمى ولـــو خـــير فى امـــره لاختـــار العمـــى
كيلا يرى ذئبـــا ظلـــو ما وخروفـــا ظلمـــا
ولـــود لـــو لم يســـمع الزفرات تعـــلو للســـما
عن عـــالم تحـــت فئـــو س الفـــدر خر محطمـــا
ما قيمة الأبصـــار تبـــ صر فى الوجـــود جهنمـــا

* * *

أعمى ولكن بز بالاحـــ ساس أصـــحاب البصر
كانوا هم العميـــان عن أفعـــالهم ينبـــو النظـــر
تاهـــوا بصـــحراء الضـــلا ل ومرغـــوا فى كل شـــر
ورآهمـــوا فى البغى والطغيـــان غرقى فى بحـــر
فتســـال القـــلب الـــكبير أهـــؤلاء هم البشـــر

* * *

نادى باصـــلاح الفســـا د فقيـــل ذاك تشاؤم
وأراد تعـــليم العبـــا د فقيـــل ذاك تعـــالم
ودعـــا لرفـــق بالبهيـــ م فصـــد عنـــه القـــارم
وأراد حـــكم العقـــل فى الدنيـــا فثـــار الحـــاكم
ورأى التســـاوى ضـــلة بان بنى والهـــادم

* * *

---

(٩٠) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٣١٨ .

أعمى وشـــاهد أن ذا ك الـكون عاش بظلمتين
فى ظلمـة القلب الغليـــ ـظ وظلمـة فى الناظرين
فادار عنهم ســـــاخطا برما يهيم بـكل زيـن
فرمـوه . ماذا ضر لـو أن الذئاب به عـــوين ؟
امـا تعش فى معشر نـذل فعش فى محبسين

* * *

وكما حمل الشاعر على الظـلم والاستبداد والأثرة والاستغلال يحمل كذلك على المظهرية الكاذبة وادعاء التدين ، وخاصة اذا كان ذلك من رجل دين يطلب منه أن يكون قـدوة للناس ، وأسوة حسنة يحتذيها الآخرون ، فيقول الشاعر فى واحـد من هؤلاء :

يحاول أن تدين لـه رقـاب فيفتى فى قبـــاحات ودين
ويسجد طائعـــا لله زورا نظيف الردن مسبول اليدين
وليس يعف عن مال اليتامى ولا عن عرس مســكين مدين
يكفر عن خطـــاياه بحـــج وهـدى للأضـاحى بالبدين
يصلى الخمس يتبعها انتفـــالا ودينى انهـا شرك ودينى(٩١)

* * *

لقـد عاش الشاعر ــ كما عرفنـا ــ حياة جادة لم تعرف العبث ، ولم يسلك سبيل اللهو والتهتك والضياع ، لأنه لم يخلق لمثل هـذا العبث :

لغير فؤادى بابنة الـكرم ســكرة وسلوى وغيرى هام فى عطر الريق(٩٢)

انما كان يشعر ــ كما ذكرنا فى الفصل الثانى ــ أنه صاحب رسالة مثلى عليـه أن يضطلع بها بالايمان والجـدية والعزم والتصميم مهمـا كانت التضـحيات :

---

(٩١) وليد جرار : السابق ٣٢٦ ٠

(٩٢) السـابق ٣٢٥ ٠

سأطلب حقى لا أكل مجاهـــدا ولو كان تمزيقى هناك وتحريقى(٩٣)

وانطلاقا من هـــذه الحياة الجادة والايمان الذى لا يحـــد نرى الشاعر يضيق بأى مظهر من مظاهر الفساد والضلال والظلم والجور والاستهتار . وفى كلمات متسعرة كان يعصف بأى مظهر من هـــذه المظاهر ، ولكنه فى ضيقه هـــذا ... وفى ضجره وثورته وتمرده لم يبد ملمحا من ملامح اليأس ، بل كان يؤمن فى أعماقه أنه لا مستحيل فى الحياة ، وأن الأمل يجب أن يمـــلأ رحاب نفوسنا ، ويضيء كل حناياها حتى فى أحـــلك الظروف وأشدها ظلمـــة وظلما وضراوة ، وبهـــذه الروح يستطيع الانسان أن يعيش حياته ابتسامة مشرقة تحيى موات الأمل ، وتنعش خامد الشعور :

ان أيامنـــا ابتسامة ثغـــر لم يدر مثلها بثغر الدهـــور
نشرت ميت الأمـــانى وأحيت أملا عارما بقلب كسير(٩٤)

والوجود ـــ كما يرى الشاعر ـــ ليس مطلق الجمـــال ، ولا مطلق القبح ، ولكنه يكتسب هـــذه الصفة أو تلك تبعا لنظرة الانســـان نفسه ... ان الوجود بكل ما فيه ، وكل مظاهره انما هـــو داخل الانسان لا خارجه .. فهو وردى الرؤى .. ذهبى الحواشى اذا نظر اليه الانســـان نظرة الباسم الآمل المقبل على الحياة ... وهو حالك الأعطاف ، خشن الملمس اذا نظر اليـــه الانسان من منظار أسود ... نعم انه الانسان هـــو وحـــده القادر على « ابداع الوجود » بالصورة التى يريدها .. لذلك كانت دعوة الشاعر الى « البسمة » لا تمثل دعوة الى التسرية عن النفس ، واشاعة فرحة عابرة على الشفاه ، انما هى دعوة للانسان أن يحيا الحياة الايجابية الناشطة المفعمة بكل معانى السعادة ومظاهر الخير والعمل فى كل الأحوال :

ان تجـــد باب الأمانى مغلقا لا تكثر أو تلم من ســـكره
ان بواب الأمانى مـــــــرح يبغض اليأس ويخشى الكثره

---

(٩٣) السابق نفس الصفحة .

(٩٤) الديوان ١٤٥ .

فتبسم يا عزيزى

يا عزيزى هل ترى الكثرة قـد ارجعت من فائت بعـد فوات
بينما البسمة أدنت قاصـيا أو ما جربت سـحر البسمات

فتبسـم

ثم ما سـاءك من هـذى الدنـا ما الذى رد لك الطرف الكليلا
ان دنيـاك التى تصـنعها فسر الأشياء تفسيرا جميـلا

وتبسم يا عيززى(٩٥)

وبهـذه الروح يستطيع الانسان أن ينتصر فى كل مواقفه وكل معاركه . وبهـذه الروح يستطيع الانسان أن يواصل مسيرته الى النهاية دون ضعف أو سـقوط أو استسلام .

وهـذه الروح التفاؤنية كانت من أعلى النغمات فى شعر المهجر بعامة ، وشعر ايليا أبى ماضى بخاصة ، فقـد تبنى الدعوة الى التفاؤل ومواجهـة أزمات الحياة بنفس مشرقة مبتسمة آملة(٩٦) .

---

(٩٥) الديوان ١٦٠ .

(٩٦) انظر ديوان ايليا أبى ماضى (الأعمال الكاملة) وخصوصا القصائد الآتية : تعالى ٤٨٧ ـ الغبطة فكرة ٤٥١ ـ هـدية العيد ٥٢٨ ـ ستعود دنيانا ٥٩٢ .

الأفــق الاجتماعى

عاش الشاعر حياته لأمته .. عاش حياة رفيعة استغرقها النضـــال المسلح فى ساح القتال ، والتعليم فى المدارس والمعاهـــد فى فلسطين والعراق ، وعاش الشاعر ــ كما عرفنا ــ يتعشق المثل العليا والقيم الرفيعة ، وكان فى حياته ــ كما عرفنا ــ صورة عملية لمـــا يعتقد ويعتنق . ومثل هـــــذا الشاعر الملتزم بهـــذه المثل وتلك القيم كان من الطبعى أن يتغنى بها ، ويرشد لايها ، ويثور ويعصف بما عـــداها ، وظل يلهج بما يراه حقا ، وما يرى فيـــه خلاص وطنه وانقاذه وحريته وخلوده .

كانت حياته ــ كما عرفنا ــ جادة تتسق فى طابعها هـــذا مـــع سنين المعاناة الدامية التى عاشتها فلسطين تحت وطـــأة الاستعمارين الانجليزى والصهيونى ، ورأى الدماء كيف تراق والأرض كيف تنهب ، والبلاد كيف تخرب والضمائر كيف تغفو بل تموت . ورأى الزعامات المهترئة والقيـــادات الفلسطينية المتطاحنة ، فيفقد ثقته فيها ، ويعقد الأمل فى الشباب ، فعلى يديه تتحقق الأمانى فى الخلاص والحرية . ولكن أى شباب ؟؟ انه ليس الشباب الهش الذى يبحث عن الغرام الرخيص والمتع الخسيسة والحياة الوادعة ، ولكنه الشباب القوى المخلص الطامح المتسعر العارم . ومن ثم حرص الشاعر على أن يرسم فى احـــدى قصائده صورة « شباب الخلاص » كما يجب أن يكون ، وفيها يقـــول :

أحب الشباب وما فيـــه من ... قـــوى ســـاحقات تهز الجبل
وأكره فيـــه انقيـــاد القلوب ... لحكم الجمـــال وســـحر المقـــل
ونسيانه أننـــا قـــد أنطنـــا ... بتلك القلـــوب لذيذ الأمـــل
نريد لهـــا أن ترى عـــامرات ... بغـــير الغرام وغـــير الغزل
نريد لهـــا أن ترى عـــارمات ... بحب البـــلاد وجـــد العمـــل
أحب الشباب شـــبابا لهيبـــا ... تلألأ منـــه ضـــياء الشـــعل
يضيء الطريق على مدلـــج ... ويهدى الذى تاه عنها وضـــل(٩٧)

---

(٩٧) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٢٩٨ .

وبعـــد ذلك ... وفى قصيدة القاها الشاعر على شباب كلية النجاح سنة ١٩٤٥ نرى الشاعر بتوجيهات مباشرة يرسم للشباب دستور عمـــل من أجـــل تخليص الوطن ، وهـــو دستور من أهم معالمـــه التحلى بالقـــوة والحزم والشجاعة . يقـــول الشاعر :

فيـــك الخـــلاص ايا شـــــبا ... ب وقـــد تخاذل عنـــه شيبه
انقـــذه أنت فخـــــيره ... لك دونهم وعليـــك حـــــوبه
كن ســـــيفه فى النائبات ... وترســـه ممـــا يصـــيبه
واعنف فلم يرجـــع بغير ... ر العنف من حـــق سليبه
والبس جـــديدا فى النضا ... ل يزنك فى الدنيـــا قشـــــيبه
من بات ما بين الوحـــو ... ش مسالمـــا قصرت نيـــــوبه
والقيـــد ليس لـــه ســـوى ... نار مؤججـــة تذيبـــــه
والظـــلم يجرفـــه الـــدم الا ... مهراق فى حـــرب صـــبيبه
فافهم ولا يخلبـــــك مـــن ... غـــدر لشرير خـــــلوبه
واعلم ولا يخـــدعك مـــــن ... وعـــد ومـــن عهـــد كـــذوبه
واغضب لعرضـــــك ان ثلا ... ت يخفك من غضـــب ثلوبه
كـــن ذئب فتـــك فى الوجـــو ... د ، وان ودعت فراك ذيبه
واهجم على الميـــــدان لا ... ترعب فما أجـــدى رعيبه(٩٨)

* * *

وللشـاعر ثلاث قصائد تدور حول العمال ، وهم السواد الأعظم من شعبه المنهوب ، منها مطولة تزيد على السبعين بيتا نظمها قبل استشهاده بعام ، وهـــو يتعاطف بصـــدق مع العمال ومطالبهم وحقهم فى الحيـــــاة فيخاطبهم قائلا :

فانكمو صوت وانى له صـــدى ... وانكم روض وانى لطـــــائره
أغرد فيكم فى محاســـن منكم ... كما غرد الحسن المحبب سامره(٩٩)

---

(٩٨) جرار السابق ٣٠٠ .

(٩٩) الســـابق ٢٩٥ .

ويتحدث الشاعر عن قضية العمال ... ويقرر انها قضية حيوية وخطيرة لأنها قضية « حياة وكرامة » ، وقد اقتضاه تعاطفه وحماسته لهذه القضية ان يعالج جوانب ثلاثة :

الجانب الأول : جهد العمال وجهادهم وأفضالهم على المجتمع .
الجانب الثانى : مظاهر الظلم الذى يقع عليهم ، وينتهب حقوقهم .
اما الجانب الثالث : فهو تحريض العمال على التمرد والثورة على ظالميهم وناهبى حقوقهم .

* * *

فالعمال هم بناة الأمة وسر نهضتها ، وبناؤهم يعز على كل ظالم أن يهدمه او ينال منه :

واما أرادوا أسعفتهم سواعد ... ولم يثنهم عن نيل أمر شواجره
كثيرو فعال الخير لا يعلكونه ... كما علك الهذر المذمم هاذره
لهم مطلب فرد : تحرر أمة ... ولم يزههم من عيش ذل أخاضره
وما عرق الأتعاب الا لآلىء ... تزين وضاح الجبين نواضره
يضحون بالأرواح والجد نصرة ... لموطنهم اذا قل فى الناس ناصره
فاكم سقطوا صرعى بواسل دونه ... ولم ينكر الصرعى البواسل ذاكره
ولم يطلبوا عز الكراسى كالذى ... تعلق فى مجد المناصب خاطره(١٠٠)

ويلح الشاعر على تفصيل ملامح الرسالة الوطنية البناءة التى اضطلع بها العمال ، فيسوق على ألسنتهم أنشودة هذه المفاخر التى قدموها ويقدمونها للوطن :

نحن المصادر والموارد ... وسلاحنا فتل السواعد
هاماتنا ـ للمجد ير ... سوحين نبدعه ـ قواعد
وقلوبنا نبع المكا ... رم ليس ينضب والمحامد
ودماؤنا الحمراء للـ ... حرية العليا روافد

---

(١٠٠) جرار السابق ٢٩٥ .

ولنـــا الأيادى البيض لا ينسى الأيادى غـــير جاحد
وبنـــا اذا تدهـــو الشدا ئد كان تفـــريج الشدائد(١٠١)

ويعرض الشاعر مظاهر الظلم المسلط على العمـــال ، واول هـــــذه المظاهر وأغربها هـــو انكار « القضية » من اساسها ، والادعاء بأن العمال لا قضية لهم ، وانهم يعملون ويتقاضون من الأجر ما يستحقون . أو تشويه هـــذه القضية وتشويه سمعة مثيريها ومتبنيها بالادعاء بأنهم حرب على الوطن ، يعملون على تخريبه والاساءة اليه يقول الشاعر :

وما قصـــة العمال الا حقيقة طواها من الجهل المخيم ساتره
كساها اخو ظلم ثياب خرافة دخـــــائله معروفـــة وسرائره
وأبرزها للناس شوهاء نكرة وهل ضر حقا أيها الناس ناكره(١٠٢)

ويفضح الشاعر مظالم هؤلاء النهابين : فهم لاهون لاغون كذابون ، يبنون سعادتهم على شقاء العمال ، ويصرخ الشاعر صرخة قـــوية تدين هـــؤلاء اللصوص :

وما الحق فى أن ياخذ الجنى قاعد ويحرمه يـــوم الحصادة باذره
أيعمر ذو الاجهاد قصرا ممردا ولا يسكن القصر الممرد عامره(١٠٣)

* * *

ويرفض الشاعر أن يستسلم العمال لهـــذه الحال ، فيحرضهم على من يستعبدهم ويستنفد قواهم وجهودهم ، ويدعوهم الى التمرد على هـــؤلاء فى سبيل حقوقهم وكراماتهم ، وهـــو فى هـــذا التحريض ، وذلك الاستنهاض يسلك ســـبيلين :

---

(١٠١) الديوان ط ٢ : السوافيرى ١٦٢ – نافع عبد الله ١٥٦ – جرار ٢٩١ والاخير يختلف فى الصـــياغة .

(١٠٢) جرار : السابق ٢٩٥ .

(١٠٣) السابق : نفس الصفحة .

السبيل الأول : الحض غير الصريح وغير المباشر ، فهو يسأل العـــامل بوقار عقلى وحكمة رزينه :

هـــذى القصـــــور وأنت را فـــع سمكها هـــل هن لك ؟
والـــدوح أنت زرعتـــــه من حـــولها هـــل ظـــلك ؟
والنـــور من يـــدك الصـــنا ع . فما حياتك فى الحـــلك ؟
الحســـــن أنت خلقتـــه لـــكن ســـواك لـــه ملك(١٠٤)

السبيل الثانى : التحريض المباشر الصريح فى مثل قوله :

أطرق بمطرقـــك الـــرعو س اذا حرمنك من مرادك
واحصـــد بمنجلك الرقـــا ب اذا تمادت فى عنـــــادك
واحـــكم بامرك فى بلا دك لا تغرب فى بلادك
انت الـــذى زرع الحيـــا ة فمـــن شريكك فى حصادك
يا عامل(١٠٥)

ان استرداد الحق السليب بالقوة فكرة كررها الشاعر كثيرا وألح على تكرارها ... وهى قاعـــدة يؤكدها الاستقراء على مدار التاريخ كله :

فما الحـــق الا قـــوة وعزيمة يعوذه رمح ، ويرقيـــه باتره
وسعى بميدان النضـــال موفق يعود به من فائت السعد غابره
ونار تذيب القيد فى جمراتهـــا فليس لفك القيد الا صواهره(١٠٦)

وعلينا أن ننوه فى هـــذا المقام بأن تمرد الشاعر على الظلم الاجتماعى والاستغلال الطبقى لم يكن يمثل نظرة محلية ضيقة بالنسبة للمطحـــونين فى وطنه ، بل كان ينطلق عن الايمان بقيم انسانية عليا سواء اتعلق ذلك بالوضع فى بلده فلسطين أو فى غيرها . ولـــه أبيـــات من قصيدة منقودة تنم على ذلك وهى قصيدة « تمور البصرة » التى نظمها عام ١٩٤١ وهـــو يعمل بالتدريس فى البصرة . أما الأبيات التى عثر عليها من القصيدة فهى :

(١٠٤) الديوان ١٥٥ .
(١٠٥) السابق : نفس الصفحة .
(١٠٦) جرار : شاعران من جبل النار ٢٩٧ .

يقـــال البصرة اشتهرت بتمر ... سلوا هل يملك الفقراء تمره ؟
هنـــاك على جنـــاح العزناس ... وناس من معاوزهم بفمـــرة ؟
فهل أمر الزنوج لـــه معـــاد ... وكم شيء كرهت حمدت أمره(١٠٧)

ودفاع الشاعر عن العمال ، ذلك الدفاع الرائع ، وابرازه دور العامل فى تقـــدم الوطن وبنائه والهجوم المتسعر على مستغليه ، ودعوته العامل الى الثورة من أجـــل حقوقه قـــد يوهم المغرمين بالتمحكات والتمحلات بالادعاء بأن الشاعر كان اشتراكيا أو شيوعيا أو متأثرا بنزعات يسارية او ماركسية ... الخ(١٠٨) .

واقول ان الشاعر كان بعيدا كل البعد عن كل هـــذه التيارات ، وأنه كان ملتزما بحب الوطن ـــ كما ذكرنا مرارا ـــ الوطن بما نشأ عليه من ديانات وقيم وتراث ...

كما أن شعره السابق وما يدور فى فلكه ليس غريبا على الروح العربية والاسلامية ، وليس فى هـــذا الشعر طابع ايديولوجى خاص يمكن أن ننسبه أو بعضه على الأقل الى تيـــار أيديولوجى معين كما نرى عند أبى سلمى مثلا فى بعض قصائده كقوله :

قـــالوا يســـاريون قلـــ ... ت أجلهـــم عمـــلا ومبـــدا
وطـــن علـــى ايديهم ... يجنى مـــع الأيام ســـعدا
حفـــت بـــه أعـــرافهم ... ريا وبالأمجـــاد تنـــدى
لم يعرفـــوا كيـــف المبـــا ... دىء تشترى عـــدا ونقـــدا

---

(١٠٧) الديوان ١٥٣ (والشاعر فى البيت الأخير يشير الى ثورة الزنج فى البصرة فى العصر العبـــاسى .

(١٠٨) أنظر نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ص ١٠٤ اذ يذهب الى أن الشاعر كان يتبنى النزعـة الاشـتراكية . كان قيم العـدل والمساواة والحب لا مكان لهـــا فى تراثنـــا الدينى والعربى .

وانظر كذلك د. عبد الرحمن الكيـالى : الشعر الفلسطينى فى نكبـة فلسطين وفيـــه يذهب الى أن عبد الرحيم كان ذا نزعة يسارية (ص ٩٨) .

هـذى المطـارق والمنـا جـل تحصد الظـلام حصدا
وتحـرر الانسـان حتى لا ترى فى الكون عبـدا(١٠٩)

* * *

أما قضايا المرأة فلم ينشغل بها الشاعر انشغال شعراء مصر بهـا مثل قضية تعليم الفتـاة والسفور والحجاب تلك القضايا التى نالت الـكثير من شعر شوقى وحافظ ومحرم وغيرهم . وأعتقد أن طبيعة الشاعر واتجاهه النضالى ، وطبيعة المرحلة التى عاشها بما فيها من أحـداث قومية دامية صرفته عن مثل هـذه القضايا .

وقصيدته اليتيمة فى هـذا الشأن بعنوان (نون النسوة الحزينة) والتى مطلعها :

يـا نـون يـا حـزين اهـكذا تهـون
يعـلو عليـك واو وهـو كـريه دون(١١٠)

لا تمثل رؤية واضحة فى قضية المراة ، زيادة على التواء أسلوبها ، وضعف عبـاراتها . وقد نظم هذه القصيدة عنـدما قرر المؤتمر النسوى بالقاهرة ١٩٤٤ حـذف نون النسوة مساواة بالرجل ، ونشرت مجـلة الرسالة آنذاك قصيدة للدكتور عزيز فهمى يقول فيها :

هـلا أتـاك حـديثهن النـون ليست نونهـن
هـذا القـرار وثيقـة أفصـح وذكـر جمعهـن
النـون تخـدش سمعهن ومـا أرق شعورهن(١١١)

---

(١٠٩) ديوان أبى سلمى ٥٦ من قصيدة له ألقاها فى مؤتمر للعمال بيـافا فى ١٢ ايلول سنة ١٩٤٧ . وانظر قصيدته (مرحبا بالرفاق) ٥٤ .

(١١٠) جرار : شاعران .... ٣١٣ .

(١١١) السـابق ٣١٢ .

غير ان لعبد الرحيم من الشعر ما ينم على ايمانه بأن عبء الجهاد فى سبيل تحرير الوطن ليس مقصورا على الرجال فحسب ، بل على المراة ان تتحمل نصيبها فى معركة التحرير . يقول عبد الرحيم :

يا ابنة العرب حطمى الاغلالا ارفعى الصوت واطلبى استقلالا
وافتحى مقلتيك للنـــور وامشى فى طريق الجهاد فالليـــل طالا(١١٢)

* * *

وفى مجال هـــذا الأفق الاجتماعى نقرأ للشاعر بعض قصائد المـــدح والرثاء ، ولكنها قليلة اذا قيست بما نظمه فى أغراض أخرى وبخاصة الشعر الوطنى والقومى . وقـــد علل بعضهم(١١٣) هـــذه القله بسببين :

أولهما : أن الشاعر مناضل ثائر ، يتساوى عنده الموت والحياة ، بل وفى كثير من قصائده يؤثر الموت الشريف على الحياة الذليلة ، وهـــو ازاء ذلك كان لا يقف أمام الموت فى مراحل حياته الشعرية ــ الأولى على الأقـــل ــ تلك الوقفة اليائسة الجزينة التى يندب فيها الناس عادة موتاهم بحرقة والم .

وثانيهما : أنفة الشاعر وترفعه عن المدح ، فليس الممدوح فى رأيه الا أحـــد شخصين : اما رجل مجاهـــد يجود بكل ما يملك من أجل وطنه وبلاده ، وعمله هـــذا واجب لا يحتاج معه الى المدح والرثاء . أو رجـــل زعيم ســـاد فى الناس فعظم أمره ، وكثر ماله ، لا يمدحه الا متملق طامع فى رفـــده وعطاياه . وهـــذه صفة أبعـــد ما تكون عن أخلاق الشاعر ومزاياه الثورية .

لذلك لا عجب اذا اكتشفنا أن الشاعر ليس له فى المدح الا قصيدة واحدة فى عالم من علماء نابلس وشيخ من شيوخها الذين تأثر بهم الشـــاعر وهـــو الشيخ « محمود حنون » يثنى فيها على علمه وتقواه ، ويعبر عن حبه لـــــه

---

(١١٢) عن رشيد جبر الأسعد : الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة ٧٢ ، وقـد سبق حـديثنا عن البيتين .

(١١٣) جرار : السابق ٣١٠ .

واعتزاز الناس به . وهى قصيدة بعيدة عن الاسراف فى الثناء والمغـــالاة فى المـــدح(١١٤) .

ورثى الشاعر « داود طوقان » بقصيدة من عشرين بيتا فى ذكرى الأربعين لوفاته . كما رثى آخرين من معارفه وأصدقائه بمقطوعتين قصيرتين(١١٥) .

ورثى الملك غازى ملك العراق الذى قيـــل ان المستعمر الانجليزى دبر حادث مقتله ... وهـــو رثاء أدخل فى باب الشعر الوطنى القومى منه فى شعر المجاملات التقليدية مدحا أو رثاء(١١٦) .

ولكن تبقى قصيدته فى رثاء عبد الرحيم الحاج محمد أشهر قصائده فى الرثاء وأصدقها عاطفة وأعمرها بالحب والوفاء . ولم تقف القصيدة عند ذكر محاسن الشهيد وبطولته والفراغ المر الذى خلفه استشهاده ، ولكن الشاعر — كما ذكرنا من قبل — اتخـــذ منها منطلقا لتمجيد البطولة والأبطال والشهادة والشـــــهداء .

* * *

وعـــودا على بدء نذكر القـــارىء بأن الشعر الاجتماعى — وان نظم الشاعر أغلبه — فى مناسبات معينة — كان انعكاسا أمينا لنفسية الشاعر المؤمنة المتوثبة التى مردت على الـــثورة واباء الـــذل والضيم ، والاعتزاز بالنفس ، والانتصار للقيم الانسانية .

---

(١١٤) أنظر القصيدة فى جرار : شاعران .. ص ٣٠٨ .

(١١٥) أنظر السابق ٣١٠ .

(١١٦) أنظر الديوان ١٣٦ .

أفـــق الغزل والمرأة

الحـــديث عن غزل الشاعر يقتضينا أن نطرح سؤالا عرضنا لـــه من قبل فى الفصل الثانى ومؤداه : هل فى حياة الشاعر المحبوبة الشاغلة الملهمة ؟ وهل كان فى حياته قصة الحب التى استغرقتها استغراقا عنيفا أو سنين منها ؟ وما حقيقة هـــذاالغزل الذى دار فى عـــدد من قصائده ؟

لعـــل باكورة ما نطق به قلبل الغض من الغزل بيتين من الشعر فى الممثلة المصرية فاطمة رشدى عندما زارت نابلس ســـــنة ١٩٣٠ ، وكان الشاعر ابن السابعة عشرة ما يزال طالبا فى كلية النجاح الوطنية ، وقـــد أقامت الممثلة المصرية المشهورة حفلة فى نابلس حضرها جمع كبير من محبى الفـــن والتمثيل ومن بينهم عبد الرحيم محمود واستاذه ابراهيم طوقان، وفى أثناء الحفل أسر الطالب الأستاذه بهـــذين البيتين :

ووجنتاك ورود الروض بللهـــا قطر الندىمن لماك العذبفانفتحت
لهفى على قبلة أطفى بها ظمئى ماضر فاطمة لـــو أنهـــا منحت

ولم يكتم الأستاذ سر تلميذه اذ ذهب الى الممثلة ، وأسمعها ما يقول أحـــد طلابه فيها ، فضحكت ، وطلبت منه أن يحضره اليها فى اليـــوم التالى ، ذهب الشاعر ومعه ابراهيم طوقان ... ولمـــا دخلا بادرته الممثلة قائلة : الا زلت يا أستاذ مصرا على ذلك ؟ فاحمرت وجنتاه خجلا ، وولى هاربا(١١٧) .

ولا نستطيع أن نسمى هـــذا حبا ، انما هـــو من قبيل الغزل اللاهى ، وهـــو أدخل فى عبث الشباب منه فى الغزل المعبر عن عاطفة حب تستغرق قلب صاحبها ومشاعره .

ولكن بعض الذين كتبوا عن الشاعر(١١٨) قطعوا بأنه عاش قصة حب

---

(١١٧) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٣٢٧ .

(١١٨) نافع عبد الله فى : الشاعر عبد الرحيم محمود ٥١ . ووليد جرار فى : شاعران من جبل النار بينما لم يشر ناصر الدين الأســد والسوافيرى ورشيد الأسعد فى كتبهم – من بعيد أو قريب الى قصة حبه للفتاة المسيحية سلمى .

عميق متسعر ، اذ أحب فتاة مسيحية تدعى سلمى ، وكانت « باعثا رئيسيا فى ولادة معظم قصائده فى الحب ، سواء تلك التى تمثل المودة والغرام ، أم تلك التى تتفجر فيها روحه الثائرة غضبا وكبرياء ، أو تخمد فيها نفسه ندما وأسفا ، وقد ذكرها فى شعره قائلا :

سلمى لقد تهت فهذى يدى ... سلمى فقوديني عبر الظلام
أنت بصيص النور فى ناظرى ... والخافق الثائر بين العظام(١١٩)

ولكن الذى يقرأ غزل عبد الرحيم يصعب عليه أن يصدق أن الشاعر قد عاش تجربة حب عميق من ذلك النوع الذى يستغرق النفس ويهز الوجدان : فالحبيبة غزال ابدعه الله حتى أن من يقبلها يترك الجنة من العميقة والانفعال الحار والصورة المبتكرة والكلمة الموحية ، انما هو ترديد لمعان تقليدية تأخذ فى مجموعها طابعا حسيا ، لا يشد النظر ، ولا يهز الوجدان : فالحبيبة غزال أبدعه الله حتى أن من يقبلها يترك الجنة من أجلها ، وهى تفوق الغزال فى حورها وكحلها ... الخ .

يا غزالا صدنى ما أجملك ... مبدع الأكوان ربى عدلك
فيك معنى كل حسن رائع ... يدع الجنة من قد قبلك
هذه الريم فسلها هل لها ... مقل حوراء تحكى مقلك
هى من جنسك طبعا انما ... كحلها ليس يضاهى كحلك

والغرام يكاد « يقضى عليه » وهو راض كل الرضى بأن يقضى عليه هذا « الغرام » ، ويأبى أن يعذله العاذلون على حبه هذا الذى « غرق » فيه لأذنيه ، وهو « نشوان » لا يريد أن يفيق من نشوته وسكره :

قالوا سيقتلك الغرا ... م فقلت ما لكمو وقتلى
ان كنت أرضى الموت فى ... حبى دعوا لومى وعذلى
قالوا الا تصحو لنفـ ... ـسك قلت ان السكر شغلى
نشوان من ريق الحبيـ ... ـب وسحر ألحاظ ودل

---

(١١٩) نافع عبد الله : السابق ٥١ .

هـم يا حبيبى يبتغـو ن فراقنـا تفـديك اهـلى
لقـد اعتصمت بحبـل حبـ ـك فاعتصم حبا بحبلى(١٢٠)

وكلها ـ كما هـو واضح معان مستهلكة تناولها الشعراء القـدماء والمحـدثون آلاف المرات ، وهى بذلك لا تقودنا الى تجربة شعورية عميقـة أصـيلة .

* * *

وقـد سبق أن ذكرنا أن الشاعر فى أغلب « غزلياته » لا تتخلى عنـه سمة « الثائر الرافض المتمرد » ، ولا أغلو اذا قلت انها النغمة العالية الغالبة على هذه الغزليات ، فكثيرا ما تتردد فيها «الأوامر الصارمة» الموجهة الى «جيش الحبائب » ، فليس هناك حبيبة واحـدة انما هناك « جيش » من الحبيبات « يحرقن » القلوب بجمالهن الساحر . أما سلاحهن فهو العيون والسـيقان والأرداف ، وقـد رسمن خطة الهجوم على شكل « الخميس » المشهور ، ويبدى الشاعر رضاءه بأن يكون مصرعه على يد هـذا « الجيش » ، ويختم قصـيدته بقـوله :

رحماك يا جيش الحبائب قد رفعـ ت الراية البيضـا وجئتك تائبـا
لم تنظر العينان جنـدا مثل جنـ ـدك من رأى جندا مها وكواعبـا
أواه لو لى مثل جيشك كنت اقـ ـتتح البلاد مشارقا ومغاربا(١٢١)

ولسنا بصـدد تقييم القـدرة التصويرية عند الشاعر ، فلذلك مكانه من هـذا البحث ، ولكن هـذه الأبيات تقودنا الى شاعر مغرم بالحرب والمعارك ، لا الى شاعر محب عاشـق متيم ، وكان حرصه على توظيف الاصطلاحات الحربية من أمثال « القواضب ـ الكتائب ـ الخطة ـ الكر ـ الفر ـ القنا ـ الهيجاء ـ السهم ـ والراية ... الخ » مما قضى على أى ملمح وجـدانى فيها . وهى تذكرنا ـ فى جـوها العام بقصيدة اسماعيل صبرى المشهورة « لواء الحسن » التى مطلعها :

(١٢٠) الديوان ١٨٦ .
(١٢١) الديوان ١٨٠ .

يا لواء الحسن احزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظـل اللـواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء(١٢٢)

واتساقا مع طبيعة الشاعر النفسية فى خشونة المحارب وتمرد الثائر كان « غزله الناقم الهاجر » أبلغ وأصـدق بكثير من « غزله المحب الواصل » ان صح هـذان التعبيران ، كما نرى فى قصيدته « راح الذى بيننا »(١٢٣) التى ختمها بالمقاطع الآتية :

خلعت من قلبى نبات الهـوى وتحت أقـدامى لقـد دسـته
وخفت من قلبى ضلال الهوى ورجعـة المـاضى فخربته
روحى فقـد راح الذى بيننـا

اذا تلاقينـا فـلا تنظرى أرى وميض الغدر فى ناظريك
ولا تشـيرى لى ولا تومئى وددت لـو تقطع كلتـا يديك
روحى فقـد راح الذى بيننا ولعنـة الحب لقلبى عليـك
روحى فقـد راح الذى بيننـا

روحى شبابى أنت أيأسـته من أمل زاك رجـاه الشـباب
لا تذكرى المـاضى وماذا بـه هل ذقت فى حبيك الا العـذاب
كتـاب ماضـيك أسى كـله لا تقرئى منه بل اطوى الكتاب
روحى فقـد راح الذى بيننـا

فحبه لسلمى — من وجهة نظرنا — لم يكن عميق الأثر بعيد الغور . . . لم يكن هـو الحب المبدع الخلاق كالذى استغرق عاطفة ابراهيم طوقان ، وخصوصا اذا عرفنا أن هـذا الحب « لم يدم طويلا » اذ سرعان ما تغير بعـد غـدر المحبوبة به — على حـد تعبيره — فأخـذ يلوم نفسه ، ويندم على ما جرى منه »(١٢٤) . ويقول وليـد صادق جرار « ومهمـا يكن من أمر فان عبد الرحيم محمود لم يكن موفقا مع المراة طيلة حياته ، اذ كانت علاقته معها

---

(١٢٢) راجع القصيدة فى ديوان اسماعيل صبرى ٣٢ . وانظر تعليق عمر الدسوقى عليها فى كتابه « فى الأدب الحـديث » ٢٧٦/٢ .

(١٢٤) نافع : الشاعر عبد الرحيم محمود ٥١ .

سلسلة لا تنتهى من العـــذاب والحرقة ، فمات شهيدا وفى نفسه ـــ كما قال لى بعض تلاميذه ومعارفه ـــ غصص وآلام منها لا حـــدود لهـــا »(١٢٥) .

وزيادة على اغراق الشاعر فى التقليدية التى سادت هـــذا الغزل نأخذ عليه أنه لم يلتفت الالتفاته الكبرى ـــ كشاعر مقاتل ـــ الى المزج بين موضوع الحب كتجربة فردية ذاتية والواقع النضالى الجماعى ، وكان من الممكن أن يتخـــذه ركيزة ومنطلقـــا للتعبير عن الحب الأكبر حب الوطن وطبيعة المعاناة التى يعيشها بكل جوانبها وطعومها كما فعل شاعر مثل أبى سلمى ، بل كما فعل بعض الشعراء القـــدامى كعنترة بن شداد(١٢٦) .

* * *

تلك هى الآفاق التى حلـــق فيها الشاعر ، وتلك هى الموضوعات التى تناولها والمحاور التى دار حولها شعره . أحيانا يحلق بجناحين قـــويين يهوم بهما فى علياء ، وأحيانا يكون قريبا من السطح ، وأحيانا يأخـــذه الضعف فتخونه قـــوادمه وخوافيه ، وهـــذا يقتضينا وقفة قـــد تطول ... نقيم فيها فن الشاعر وامكاناته فى صناعته .

---

(١٢٥) شاعران من جبل النار ٣٤٣ .

(١٢٦) أنظر معلقته وبخاصة ابتداء من البيت الخامس والأربعين :

هـــلا سألت الخيـــل يا ابنـة مالك ان كنت جاهـــلة بمـــا لم تعلمى

[أنظر : التبريزى : شرح القصائد العشر ٢٠٣] .

وقفــة مــع نثر الشــاعر

اشتهر عبد الرحيم محمود بشعره ، ولم يشتهر بنثره ، ولم يبد وأحــد من الباحثين الذين كتبوا عنه اهتماما بكتاباته النثرية ، وربما كان الباحث نافع عبد الله هــو أول من نشر له نثرا فى دراســة متكاملة . وهــذا النثر محصور فى عملين :

الأول : رسالة موجهــة من الشــــاعر فى ١٩٣٨/١/١٩ الى ابراهيم طـــوقان(١) .

والثانى : مقاله نقــدية مخطوطة حــول الشعر والشعراء يرد فيها على من هاجم الشاعر ابراهيم طوقان ، وعابوا بعض شعره بعــد وفاته ؛ ومن هؤلاء الشاعران مصطفى الدباغ وكمال ناصر . والمقالة من عشر صفحات فقــد منها الصفحتان الأولى والثانية ، وبقى منها ثمانى صفحات(٢) .

* * *

ويقال ان الشاعر كان يكتب مذكراته الخاصة ، وأنه كان يبدى فيهــا آراء صريحة فى قادته ورؤسائه(٣) ، ولكن أحــدا ــ يقــدر ما وصل اليه علمى ، وفى حــدود ما بين يدى من مراجع ــ لم ينشر هــذه المذكرات أو أجزاء منها . ولا شكّ أن ما عرفناه من شعر عبد الرحيم وأخباره وأبعــاد

---

(١) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ١٨٩ .

(٢) نشرها نافع فى المرجع السابق ١٩٣ .

(٣) أنظر السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٣٢ .

شخصيته يمكننا الى حـــد بعيد من معرفة الطابع العام لهـــذه المذكرات وأنها كانت تعبر فى صراحة عن ضيقه النفسى وروحـــه المتمردة الناقمة على أوضاع يراها فاسدة ، وقيادات يرى أنها ليست على مستوى المهام التى اسندت اليها . أقول هـــذا على سبيل الاستفتاح وليس بين يدى سطر واحد من هـــذه المذكرات ، وأرجح أنها فقـــدت دون قصد ، أو حرقت بفعـــل بعض أهله خـــوفا من وقوعها فى أيدى اليهود . وقـــد يؤيد هـــذا الترجيح أن الباحثين اللذين اهتما أكبر اهتمام بشعر عبد الرحيم وأثاره وأخباره(٤) لم ينشرا شيئا منها ، بل لم يشيرا اليها .

مـــع رســـالة الى طـــوقان :

وسنحاول أن نلقى الضوء على نثر الشاعر « لنتبين منهجه وأبعـــاده الفكرية ومعالمـــه الفنية فى نطاق عمليه النثريين الرسالة والمقـــالة النقـــدية بادئين بعرض الرسالة بتمامها :

اخى الحبيب :

أجـــدنى وحياتك ــ مدينا لك بشىء كثير ، فقـــد كنت أول من غرس فى روحى تذوق الجمال ، وأول من أوحى الى سامى التصور والخيال . وانك لا تزال كما كنت ملهمى ، ، والأخـــذ بيدى لآخر الشوط . فبأى لسان أشكرك ؟ أعطنيـــــه !!

وصلنى ــ أى أستاذى ــ ما بعثت ، وقـــد شعرت بغبطة لتذكرك اياى لا تدانيها غبطتى أيام كنت تروض جناحى لأرفرف ، وأيام كنت تدفعنى مشجعا لأتقـــدم . تلك أيام لن أنساها . ولن أنساك ماثلا فى الصف ، ولك فى صورتان : صورة يلذ بها بصرى ، وأخرى تقر بها بصيرتى . وكنت ــ وانا اليقظان ــ كالوهمان ، فأتحسسك ، وأتلمسك لأزيل الشك باليقين ، فمـــا أجـــدك ــ وأنت المـــادة ــ الا خيالا من الخيالات الجميلة التى لا تفتأ تخطر على فـــؤادى .

أنت ــ أيها المخلوق الجميل ــ تخجلنى بما تصنع معى من معروف .

---

(٤) هما الأستاذان نافع عبد الله فى كتابه : الشاعر عبد الرحيم محمود ووليد جرار : فى كتابه : شاعران من جبل النار (ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود) .

وأنت ــ ايها الساحر اللذيذ ــ تقيدنى بأحابيل جميلك ، ولذلك لتؤلمنى بذلك ، لأنه ليس فى استطاعتى ان اجزيك بعض أياديك . ولكن ثق أنى لك دائمـــا أخ من الذين لم تلدهم أمك ، وانى لك دائما سيف ان ضربت به قطعت ، وان امرتنى أطعت ..

ولا انسى فى الختام أن ارفـــع لسيدتى أم جعفر ســـلامى واحترامى . وشكرى للطفها معى . أدامكما الله للخيال مثال ، وفى السعادة أمثال .

أخـــوك

عبد الرحيم محمود

سلم على يوسف الذى ما فيه من الحسن الا ...(٥) .

* * *

واذا نظرنا الى مضمون الرسالة ، وما يعكسه من دلالات وجـــدنا أنها تنطق ــ فى وضوح وصراحة ــ بعمق الصلة بين عبد الرحيم محمود وأستاذه وصـــديقه ابراهيم طـــوقان :

١ ــ فهو يصدر الرسالة باعترافه بأهم تأثيرات ابراهيم طوقان فيه ، وهـــو « التأثير الأدبى » أو « التأثير الفنى الجمالى » ، وهـــو اعتراف صريح بتأثره فى شعره بابراهيم طوقان ، وتشجيعه له فى فنه أيام البدايات ... أيام أن كان يروض جناحه ليرفرف ... أيام أن كان يدفعه مشجعا ليتقدم .

٢ ــ وهـــو يعترف بالفضل المـــادى لابراهيم ، وهـــو بالقطع مبلغ من المـــال أو شىء له قيمة مالية ويتعلق بالمعاش كطعام أو لباس أو ما شابه ذلك . ونستبعد ... بل نقطع أنه لم يكن كتابا أو قصيدة أو شيئا من هـــذا القبيل ، ولو كان كذلك « لقرظه » عبد الرحيم صراحة دون التعبير عنه بقوله (ما بعثت) ولمـــا قال « انت تخجلنى بما تصنع معى من معروف . ويؤيد ما ذهبنا اليه قول أم جعفر ــ زوجة ابراهيم طوقان ــ « كان زوجى يكرمه ، ويقـــدره ويقـــدم له يد العون ... »(٦) .

---

(٥) يوسف هـــو شقيق ابراهيم طوقان وقـــد أشار ناشر الرسالة الى أن المحـــذوف : فكاهه طريفة جـــدا وهى خاصة لا تدخل فى نطاق البحث . نافع عبد الله ١٨٩ .

(٦) من حـــديث لهـــا مع نافع عبد الله فى منزلها بنابلس فى ١٩٧٣/٦/٣ . أنظر كتابه ٦١ .

٣ ــ ويفهم مما سبق كذلك ان هــذا العون أو ذاك الاحسان كان يتكرر على فترات زمنية مختلفة ،فهو عــون جــار لا ينقطع ، يدل على ذلك تعبير عبد الرحيم بالفعل المضارع . تخجلنى ــ تقيدنى ــ تؤلمنى . وكذلك قوله « ليس فى استطاعتى أن أجزيك بعض أياديك » . فهى اذن أياد لايد واحدة .

٤ ــ وعلى الرغم من عبارات التوقير والتعظيم والاجــلال والاعتراف بالأيادى والأفضال نرى عبد الرحيم يخاطب أستاذه مخاطبة النــد للنــد بلا تحفظ ولا « كلفة » كما يقولون ، فهو يبدأ الرسالة بهذا النداء « اخى الحبيب » ويوقعها تحت كلمة « أخــوك » ... ويقول فيها ولكن ثق اننى دائمــا لك أخ وكذلك رفــع ســلامه واحترامه الى « أم جعفر » ، واخيرا تذييله الرســالة بفكاهة طريفة ــ ويظهر انها لاذعة وموضوعها يوسف شقيق ابراهيم طوقان .

ولكن الغريب جــدا أن نلتقى فى الرسالة بعبارات تعــد ادخــل فى باب الغزل مثل : أنت أيها المخلوق الجميل . وأنت أيها الساحر اللذيذ » ولكن هــذه العبارات من جانب آخرتدلعلى ان عبد الرحيم كان يتحــدث الى صــديقه وأســتاذه متحررا .. مسترسلا دون تكلف أو تصنع او شــعور بالحرج أو الاحتراس فى التعبير .

* * *

ويهمنا اكثر من كل أولئك أن ننظر الى الرسالة نظرة فنية لنرى ما فيها من ملامح الجمال . وفىايجاز نقول ان الرسالة « قطعة فنية » من الأدب جاد بها قلم الكاتب ، فهى تتدفق بعاطفة حارة من صــديق الى صــديق ، وقــد انعكست هــذه العاطفــة فى ألفــاظ الرسالة وعباراتها التى تنم فى صــدق على هــذا الحب وذاك الاعتزاز « ... وحياتك ... وصلنى أى أستاذى ... لن انساها ... ولن أنساك .. » .

وفى الرسالة ــ وهــو أجمل ما فيها ــ سمتان لا يخطئهما النظر : براعة التصوير ، ورشاقة الألفاظ وقــوة ايحائها : فخيال الكاتب يتمتع بالجمــال وقــوة الأسر على الرغم من بساطته وقربه وتبرئه من الابعــاد والاغراب ، ومن ذلك :

ـ فقـــد كنت أول من غرس فى روحى تذوق الجمال .
ـ أيام أن كنت تروض جناحى لأرفرف .
ـ ولك صورتان : صورة يلذ بها بصرى . وأخرى تقر بها بصيرتى .

ويعبر الشاعر الكاتب عن المعانى والخواطر النفسية تعبيرا مجسدا مكثفـــا فى صورة حركية رائعـــة « وكنت وأنا اليقظان كالولهـــان فأتحسسك وأتلمسك لأزيل الشك باليقين » وكأنى بعبد الرحيم لم ينفصل عن البحترى حين راى لوحـــة رائعة فى ايوان كسرى تمثل المحاربين فى معركة عاتية فقال :

يفتلى فيهم ارتيـــابى حتى تتقـــراهم يداى بلمس

ويعبر عبد الرحيم عن فرط طاعته لصاحبه واستجابته له فى هـــذه الصورة « وانى لك دائما سيف ان ضربت به قطعت ، وان أردتنى أطعت .. ». ولعل هـــذه الصورة من بصمات القـــديم أيضا ، فعمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ يعبر عن مكانه من رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ واخلاصه العملى له بقوله « .... وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا أن يغمدنى أو ينهانى فأكف عنه »(٧) .

ان هـــذه الرسالة فى اسلوبها المرسل . وكلماتها الرشيقة ، وعباراتها المنسابة فى خفة وتدفق ، وخيالها البارع الجميل ـــ على قرب مأخـــذه ـــ كل أولئك يجعل منها عملا فنيا أقرب الى روح الشعر من بعض قصائد عبد الرحيم نفسه . ولو أنه استرسل فى هـــذا الفن على نحو مطرد على هـــذه الوتيرة لأحيا فن « الرســـالة الشخصية » بعـــد أن مات أو كـــاد يموت فى الأدب العـــربى(٨) .

مقـــالة نقـــدية :

أما مقاله النقـــدى الذى نشر نافع عبد الله أغلبه نقلا عن أصـــل مخطوط فله قصة خلاصتها أن خليل سكاكينى نشر مقالا فى مجـــلة الأديب

---

(٧) عبقرية عمر ٨٥ .

(٨) ننبه القارىء الى أن فى ختام الرسالة خطئين نحويين اذ يقول : « أدامكما الله للخيال مثال ، وفى السعادة أمثال » . والصحيح مثالا ـ أمثالا ..

البيروتية فى آذار ١٩٤٦ عن الشعر وخصائصه والمكانة الشعرية لابراهيم طوقان ، فهاجمه الشاعر مصطفى الدباغ بمقال فى صحيفة « الحرية » اليافية ، وهاجم المقال ابراهيم طوقان ، ونقـــد قصيدته « يا رجال البلاد »(٩) . ونزل المعركة الشاعر كمال بطرس ناصر ، وهاجم ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود بشدة . فاضطر عبد الرحيم من باب الوفاء الى كتابة رد ضاف يذب فيه عن نفسه وعن أستاذه الذى كان آنذاك بين يدى الله(١٠) .

وسنحاول فى ضوء هـــذا المقـــــال اليتيم أن نتبين امكانة عبد الرحيم النقـــدية ، ومنهجه وملامحه فى النقـــد . واذا كنا نؤمن ان المقال الواحـــد أو العمل الواحـــد يصعب أن نستخلص منه فلسفة نقـــدية لصاحبه فالذى لا شك فيه أنه يمكن أن يقـــودنا الى بعض مناحى الكاتب وبعض الملامح انتى تصلح أن تكون أسسا يرتكز عليها فى اتجاهه النقـــدى . وأهم ما يمكن استخلاصه من سمات وملامح وقيم نقـــدية وأدبيـــة فى مقـــال عبد الرحيم ما يأتى :

— غلبة الحماسة والروح الخطابية ، فالكاتب يستخدم جملا وعبارات ذات نبرة عالية جـــدا ، والتكرار اللفظى وسيلة من وسائله التى تصخب بهـــا هـــذه النبرة الخطابية كما نرى فى العبارات الآتية :

— ومصطفى الدباغ رجل جرىء ، ومن جرأته هـــذا الهجوم الكاسح على الشعر الفلسطينى .

— والأستاذ الدباغ جرىء جـــدا لأنه يهاجم جيش الشعراء أوحـــديا ويلوى بهم أيمـــا الواء ...

— والأستاذ الدباغ جرىء لأنه أول ما تناول شاعرا علما ...

— وهو جرىء جدا لأنه تناول فى مقاله أديبا كبيرا جدا وهو السكاكينى .. ».

وهـــذه النبرة العالية قـــد يكون لهـــا تأثيرها فى الخطابة أو شـــعر

---

(٩) ديوان ابراهيم طوقان ٥٨ .

(١٠) أنظر نافع : الشاعر عبد الرحيم محمود ٦٤ .

الحماسة ، ولكنها تفقد هـذا التأثير ـ ولا شك ـ فى مقال نقدى من المفروض أن يعتمد على التأنى والمنطق الهادىء والمناقشة المنتجة . على أن وصف الكاتب ـ أى كاتب ـ بالجرأة لأنه هاجم شعرا أو شاعرا كبيرا أو كاتبا فذا مسألة فيها نظر ،ولم تكن تحتاج من عبد الرحيم هذه الوقفات الطويلة التى استغرقت أكثر من صفحة .

وقد اثار عبد الرحيم فى مقاله هذا عددا من القضايا النقدية ، وناقش هذه القضايا فى أثناء دفاعه عن استاذه ابراهيم طوقان .

وأهم هذه القضايا ثلاث :

الأولى : اقليمية الأدب(١١) .

والثانية : النظرة الشمولية للنص الأدبى .

والثالثة : فحولة الشاعر وعلاقتها بتعدد الأغراض الشعرية .

* * *

(١١) كان أمين الخولى (١٨٩٥ ـ ١٩٦٦) رحمه الله هو أقوى وأشهر من تبنى الدعوة الى « اقليمية الأدب » وذلك فى كتابه عن « الأدب المصرى » ، وتتلخص فكرته وفكرة من دعا هذه الدعوة فى أن لكل بيئة منفردة مزاياها وخصائصها التى تنفرد بها عن الأقاليم الأخرى وتلك المزايا والخصائص هى التى توجه الحياة الأدبية فيها وتؤثر فى سيرها ، وباختلاف هذه الميزات المادية والمعنوية تختلف حياة الأقاليم الأدبية . ويتخذ الأستاذ الخولى سبيله الى المقارنة بين صنيع المؤرخين فى الحياة الفكرية وبين صنيعهم فى الحياة الفنية فيرى أننا فى الحياة الفكرية نسجل خلاف الأقاليم فى ألوان الرأى وأنواع الفلسفة ومختلف العقائد ، ثم لا نحاول أن نسجل كل هذا الخلاف فى الحياة الفنية ، وهى أقرب الى التغيير وأدنى الى المخالفة .

ومن ثم كان على مؤرخى الأدب ـ كما يرى الأستاذ الخولى ـ أن يعدلوا عن توزيع دراسة الأدب العربى الاسلامى على عصور زمنية ، وأن يقدروا الأثر القوى لكل بيئة فيها أدب عربى ، وأن يتبعوا هذا الأثر بالتدريس المستقل ، وأن يدرسوا العربية فى المواطن التى نزلتها موطنا موطنا ، فيكون أساس التقسيم هو اختلاف البيئة وتغايرها ، ووحدة المؤثرات المادية والمعنوية فيها ـ وان لم يسر ذلك مع التقسيم السياسى أو المتعارف عليه للأقطار والبلدان ـ بأن تفرد كل بيئة متجانسة بدرس خاص لا كل قطعة من الزمن ببحث .

[أنظر كتاب أمين الخولى : الى الأدب المصرى . وانظر عرض النظرية ومناقشتها فى كتاب شكرى فيصل : مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى . وخصوصا الصفحات ٦١ ـ ٦٥ . والصفحات ١٧٨ ـ ٢٢٠] .وانظر كذلك أنور الجندى : أضواء على الأدب العربى المعاصر ٢٥٢ ـ ٢٥٥ .

ويتصـــدى عبد الرحيم لمـــا دهب اليه الدباغ من أن « لكل قطر أدبا وشعرا » ولكن عبد الرحيم لم يرتكز فى تصديه على قيم نقـــدية أو استقراء تاريخى سليم لنقض دعـــوى الدباغ أو ادعـــائه ، انما استعان بالشعارات والمبادىء والنداءات السياسية الدائرة فى المنطقة آنذاك ، ويرى أن ما ذهب اليه الدباغ يمثل وجهة استعمارية فيقول :

« ... ونحن نقول بالوحـــدة ، وحـــدة البلاد ، ونبنى ذلك على وحدة اللغة ووحـــدة أدبهـــا . وانه من الانفصاليـــة بمكان ـــ والانفصاليـــة بنت الاستعمار ـــ أن ندعـــو الى الاعتقاد أن لكل بلد أدبا خاصـــا ، فأبو نواس البغـــدادى او البصرى هـــو ملك لـــكل العرب ، وشوقى المصرى ملك لـــكل العرب ، وانتاجه تراث العرب كلهم ليس لمصرى فيه نصيب أكثر من كويتى ولا حضرموتى ولا عسيرى .... » .

ومناقشة القضية بهـــذه الحماسة وتلك الحـــدة لا يجـــدى نفعا ، فانكار « الاقليمية » تماما كالقول « بالوحـــدة الأدبية » دون تميز ، كلاهما غالط . والصواب الذى يشهد به وله ما بين أيدينا من آثار أدبية هـــو أن الأدب العربى فيه من الخصائص العامة والقسائم المشتركة ما لا يستطيع احد أن ينكره . وكذلك فيه ملامح فارقة ، وسمات مميزة هى من فعل « الاقليم » أو البيئة المكانية التى نشأ فيها هـــذا الأدب ، ولننظر الى قصائد وصـــف الطبيعة عند شاعر كذى الرمة وشاعر كابن زيدون أو ابن خفاجة الأندلسى ، بل لننظر الى الشاعر الواحـــد مثل البارودى لنرى الفارق بين ما نظمه فى مصر وما نظمه فى سرنديب ، وشاعر مثل شوقى لنرى الفارق بين شعره فى مصر وشعره فى الأندلس ، وشعراء الشام فى المهجر وكيف كان لشعرهم من السمات والملامح التى اكتسبوها من الحياة الجـــديدة والشعور الحاد بالغربة فى المهاجر الشمالى والمهاجر الجنوبى .

* * *

ويؤمن عبد الرحيم بأن النقـــد السديد لا يكون الا « **بالنظرة الشمولية للنص** » . فيأخـــذ على الدباغ أنه « حين يريد أن يستشهد يلجأ الى أضعف شعر الشاعر ، أو ما يخاله كذلك ، ولا يزال يرى الضعف ويهوله ويكبره حتى يصل الى ما يصبو اليه من املاء رأى واحقاق باطل » .

ومن مظاهر انعـــدام هـــذه النظرة الشمولية كذلك « التغاضى عن كل قصيد للشاعر يجمع القـــوة والمتـــانة والمعنى الرائع » . ومن مظاهر ذلك « أن يحكم على قصيدة كاملة ببيت فيها كمن يحكم على القصر الفخم بحجر واحـــد منـــه » .

ويخلص عبد الرحيم من كل ذلك الى أن الناقـــد العـــدل يجب عليه ـــ حينما ينظر الى القصيدة ـــ أن يراعى مدى ما تتمتع به من « **الانســـجام والوحـــدة** » وأن ينظر « **نظرة اجمالية الى المعانى والأغراض** » .

هـــذا ما يمكن أن يفهم ويستخلص من كلام عبد الرحيم . أقول هذا لأن فى بعض عباراته لونا من الاضطراب الذى قـــد يسىء الى هـــــذا المفوم كقوله : « ... **والحق المعروف بين النقاد الفاضلين أن يحكم للأديب أو للشاعر بأحسن ما عنده ، لا باسوأ ما عنده** » . وهـــو قول ينقض ما دعـــا اليه عبد الرحيم من « النظرة الشمولية » التى تقيم الأديب اعتمادا على كل انتاجه . وهـــذا القول لم يقل به أحـــد من « النقاد الفاضلين » لا فى القـــديم ولا فى الحـــديث ، ولكنها حماسة عبد الرحيم لأستاذه وصديقه .

* * *

أما القضية الثالثة التى ناقشها عبد الرحيم فهى قضية يمكن أن تطرح فى السؤال التالى : هل ترتبط فحولة الشاعرية وجلالها بعـــدد الأغراض التى ينظم فيها الشاعر ؟ أو بتعبير آخر : الا يكون الشاعر شاعرا عظيما الا اذا نظم فى كل الأغراض الشعرية او أغلبها ؟

لقـــد ثارت هـــذه القضية فى سياق هجوم الدباغ على ابراهيم طوقان بمقولة أن ابراهيم لم ينظم الشعر فى شتى الأغراض . وكان عبد الرحيم محمود موفقا هـــذه المرة كل التوفيق فى الرد على الدباغ ، فقـــد قرر قاعدة صحيحة وأيدها من واقع التاريخ الأدبى : « فعـــدم نظم الشاعر فى شتى الأغراض ليس دليلا على ضعف الشاعرية ، وانا نجـــد فى الشعراء ، وفى مقـــدمى الشعراء من اختص بغرض واحـــد . فزهير مثلا مختص بالحكمـــة

والمدح . والأعشى بالهجاء والمدح ، وعمر بن أبى ربيعة بالغزل ، ولكن كل هـذا لم يزر بشاعرياتهم جميعا ، ولم يقـل انسان انهم غير شعراء ، بل أخـذ ما قالوا كعنوان لمـا حواه الغرض من أقوال فيه » .

ولكن عبد الرحيم خـانه التوفيـق حينمـا أراد أن يثبت ان ابراهيم طـوقان ضرب بسـهم فى شتى الأغراض الشـعرية ، ولنقرأ عبـاراته « .. **ومـع هـذا فابراهيم لم يكن مجـدبا بناحية من النواحى الشعرية ، فلديه الوصف و « الحبشى الذبيح »(١٢) و « الراعى »(١٣) وغيرهما دليل قاطع مانع أنه كان وصافا ووصافا ماهرا** » .

وأعتقد أن عبد الرحيم لم يسعفه التمثيل بأسماء قصائد لابراهيم حين أراد أن يثبت أنه نظم فى شتى الأغراض ، فديوان ابراهيم لم يكن بين يديه(١٤) آنذاك ، ولو كان الديوان — أو أصوله المخطوطة بين يديه لعرف أن ابراهيم طوقان لم يكن « وصافا » فحسب حتى لو ادعى عبد الرحيم **أن الشعر ذاته والشعر كله وصف حسب أصول النقـد** » . فابراهيم طوقان لم يترك غرضا من الأغراض الشعرية الا ونظم فيه ، فله فى الوصف والوطنيات والغزل والمدح والرثاء والأناشيد وله شعر قصصى وشعر رمزى .

* * *

ويتعقب عبد الرحيم النقود « الجزئية » فى مقال مصطفى الدباغ ويحاول أن ينقضها . فالدباغ ينقـد البيتين التاليين من قصيدة « يا رجال البـلاد » :

عرف النـاس والمئـابر والأقـلام أفضـالكم فهـاتوا سـواها
كان أولى لكم لو ان مع القو ل فعـالا محمـودة عقبـاها

---

(١٢) ديوان ابراهيم ١٤٦ .

(١٣) ليس فى ديوان ابراهيم قصيدة بهـذا الاسم ، وربما كانت من القصائد التى حذفها ابراهيم من أصول ديوانه الذى أشرف على ترتيبه وتنقيحه وحـذف بعض قصائده بنفسه (انظر ص ٩ من تقـديم شقيقه أحمد لديوانه) .

(١٤) نشر الديوان فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٥ . وبين أيدينا طبعة ١٩٨٤ ومكتوب عليها الطبعة الأولى أيضا .

ويأخـــذ الدباغ على البيتين ما يأتى :

١ ـــ أنهما بيتان باردان لا تأثير فيهما .

٢ ـــ أن بهما بعض الألفاظ التى فقـــدت ايحاءاتها لابتذالها ودورانها على ألسنة العـــامة .

وخلاصة رد عبد الرحيم محمود :

١ ـــ أن الدباغ تجنى على القصـــيدة وظلمها اذ انتزع منها هـــذين البيتين انتزاعا ، فهما جزء فى كل ، وعضو فى بدن ، ومن ثم كان يجب النظر الى القصيدة كـــكل وأحـــد لا يتجزأ .

٢ ـــ ومع هـــذا الخطأ المنهجى فى النقـــد فقـــد ظل للبيتين معناهما وقـــوتهما وقـــدرتهما على السخرية المرة من هؤلاء الزعماء .

٣ ـــ **وما يرى الدباغ أنه مبتذل يدور على السنة العامة ومن ثم لا يجوز** استعماله فى الشعر . مثل هـــذا المذهب مرفوض لأن استعمال العامة للكلمة العربية لا يخرجهـــا عن عربيتها .. وكلمة « **أفضـــالكم** » بالذات أدل على السخرية من هؤلاء القادة والزعماء الزائفين من غيرها . أما تعبير « **أولى لكم** » فليس هناك ما يعيبه ، فهى تعبير قرآنى ، فقـــد قال الله فى ســـورة محمـــد « **فأولى لهم طاعة وقول معروف** » ، وقال تعالى ـــ فى ســـورة القيـــامة ـــ « **أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى** »(١٥) .

* * *

---

(١٥) يقـول نافع عبد الله « أخطـأ (عبد الرحيم) فى فهم الآيتين القرآنيتين » أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى « اللتين استشهد بهما فى دفاعه عن البيت الذى عابه الدباغ . لأن معنى « أولى » فى هاتين الآيتين يدل على التهـديد والوعيد من الله للكافر به المتبختر فى مشيته . بينما هى (أى أولى) فى البيت السابق بمعنى أحـق أو أجـدر أو نحـو ذلك » الشاعر عبد الرحيم محمـــود ٦٦ .

الآيتان جاءتا حقا فى التهـديد والوعيد ، وعلى هـذا المعنى شبه اجماع فى كتب التفسير ، ولكنى أرى أن عبد الرحيم لم يخطىء لأنه يعنى صحة استعمال التعبير حتى لو كان ذا معنى مختلف . كما أن « نافع » أغفل استشهاد عبد الرحيم بآية سورة محمد وفيها استعمل التعبير بنفس المعنى الذى أراده ابراهيم طوقان ، وهـو « أحق وأجـدر وأحرى » .

وفى تضاعيف هـــذا النقـــد لا نعـــدم لعبد الرحيم صـــورا خياليـــه بارعة ، وطابعه الفنى الشاعرى يلازمه أيضا فى هـــذا المقـــام ، ونجتزىء بصورتين من هـــذه الصور :

— « ولكن رأيى أن انتزاع هـــذين البيتين المسكينين من قطيعهما تجن وظلم ، كمن ينزع الابتسامة من فم « الجوكندة » ، ويقول انظر . ما ابشع فم الصـــــورة !!!

— وكمن ينزع المسيح من حضن أمه فى الصورة ، ويقول : انظر ما أنقص الصـــــورة !!!

وكم كنا نتمنى أن يكون بين أيدينا عـــدة مقالات نقـــدية حتى يكون حكمنا وتقييمنا لشخصيته كاتبا وناقـــدا سليما سديدا ، ولكن فى ضـــوء هـــذا المقال اليتيم يمكن أن نقول أن قـــدرة عبد الرحيم النقـــدية لا ترقى الى مستوى موهبته الشعرية وهـــذا لا ينقص من قـــدر عبد الرحيم فهـــــو شـــاعر قبـــل كل شيء .

* * *

وبعـــد هـــذه الوقفة التقييمية مع نثره لنا فى الصفحات الآتية وقفات نقـــدية طويلة مع شعره .. وهـــو أساس هـــذا البحـــث وقطب رحـــاه بادئين ببيان مراحله الأدبية ثم حظه من الاتباع والتقليد .

مرحلتـــان متميزتان

حياة الشاعر ـــ اى شاعر ـــ مثل النهر المتدفق المنساب : أولـــه موصول بآخره مهما كان البعـــد شاسعا بين الأول والآخر ... بين نقطة البداية ونقطة النهاية ، ولكن هـــذه الصلة وذاك الامتزاج لا يمنعان أن يكون من النهر جزء أكثر تدفقا وتجـــددا وحيوية من جزء آخر ... والنهر هـــو النهر ... وأحـــد فى كل .. او كل فى واحـــد .

والشاعر ـــ أى شاعر ـــ يتأثر شعره على مدار مسيرته الفنية ... بعوامل متعـــددة ومتشابكة ، منها ما يرجع الى شخصية الشاعر : كتطور خبراته ، وازدياد ثقافته وقراءاته ـــ وتحـــديد موقفه الفكرى من المجتمع والناس . ومنها ما يرجع الى المجتمع ، وطبيعة الأحـــداث التى تمر به توهجا وتسعرا أو همودا وخمودا ، وطبيعة العلائق التى تربط الشاعر بالمجتمع الذى يعيش فيه . كل أولئك يشكل التجربة الشعورية ويؤثر فيها ، وغالبا ما تكون بداية مرحلة معينة فى مسيرة الشاعر الفنية حـــدثا مهما فى حياة الشاعر نفسه ، فعودة أبى العلاء المعرى (٣٦٣ ـــ ٤٤٩ هـ) الى معرة النعمان من رحلته المنكودة المنكوسة الى بغـــداد وموت أمه وهـــو عائد الى بلده كان بداية مرحلة جـــديدة فى حياة الشاعر وفنه ، فقـــد اعتزل المجتمعات وأصبح « رهين المحبسين » ، واتسم شعره بسمات فلسفية فيها عمق وتأمل وآراء ناضجة فى الحكم والحكام وخلائق الناس وطبائعهم .فكانت « خيبة أمله » فى بغـــداد هى البداية الحقيقية لميلاد « الفيلسوف » أبى العلاء ، وأجزل العطاء للشعر العربى والفكر الانسانى باللزوميات ورسالة الغفران وغيرهما(١٦) .

وما يقال عن أبى العلاء المعرى يقال عن شوقى ، فقد كان نفيه الى الأندلس نعمة كبرى للشعر العربى ، فقـــد بدأت بنفيه مرحلة فنية جـــديدة فى حياته رأينا فيها شوقى « شاعراً فياضا بالحنين الى مصر وأهله وذكرياته بها ، وفى الأندلس رأى آثار مدنية العرب الغابرة ، فكان شعره الاسلامى

---

(١٦) أنظر : دائرة المعارف الاسلامية المجلد الأول ٥٤٨ ـ ٥٥١ .

هـــو شعر الحنين والذكرى لمجـــد المسلمين »(١٧) ومن الناحية الفنية ازداد أسلوبه ارتقاء وخياله خصوبة بعـــد أن زاد اطلاعه وخصبت تجاربه . .

* * *

ولكن علينا ــ بادىء ذى بدء ــ أن نضع نصب عيوننا ــ ونحن نعالج المسيرة الفنية للشاعر ــ الحقائق الثلاث الآتية :

الحقيقة الأولى : أن تقسيم المسيرة الفنية الى مراحل لا يعنى الانفصال الحاد بين المراحل المختلفة ، لأن هـــذه المسيرة ــ كما قلت ــ تشبه النهر أوله موصول بآخره ، كما أن الفوارق بين هـــذه المراحل كثيرا ما تكون فوارق فى الدرجة لا فوارق فى النوع .

والحقيقة الثانية : أن انتقال الشاعر من مرحلة الى مرحلة لا يتم طفرة فى يوم وليلة ، وانما يتم بالتدريج ، وعلى مدى ليس بالقصير ، وهـــذا يجعلنا نؤكد أن الفصل الحاد بين المراحل الفنية فى حياة الشاعر يخالف طبيعة الأشياء وواقعهـــــا .

أما الحقيقة الثالثة : فهى أن المرحلة الواحـــدة لا تعنى خطا فنيا واحدا لا عوج فيه ولا تعرج ولا نتوء ، بل غالبا ما نرى « المرحلة الفنية الواحـــدة » لا تخلو من تفاوت أو اختلاف فى المستوى الفنى للشاعر ، حتى ليعتقد الباحث أنه يتعامل مع مرحلة أخرى . وهـــذه الحقيقة تؤكد بدهية من البدهيات مؤداها أن « التقسيم المرحلى » لفن الشاعر انما تم على أساس « التغليب » لا على أساس « الاطـــلاق » ، بمعنى أن « المرحلة » تمثل « فترة زمنية متميزة » بما « يغلب » عليها من صفات وملامح لا تتوفر كلها أو أغلبها لفترة سابقة أو لاحقـــــه .

* * *

---

(١٧) ماهر حسن فهمى ، شوقى شعره الاسلامى ١٩٢ .

وفى ضـــوء هـــذه الملاحظات أو هـــذه الحقـــائق نستطيع أن نقسم « المسيرة الفنية » لعبد الرحيم محمود الى مرحلتين متميزتين :

المرحلة الأولى : وتستغرق سنوات ما قبل خروجه الى العراق أى من بداياته الشعرية فى سنة ١٩٣٠ أو ١٩٣٥ الى سنة ١٩٣٨ .

المرحلة الثانية : وتبدأ من سنة خروجه طريدا الى العراق ، وتمتد الى أن لقى ربه شهيدا فى معركة الشجرة سنة ١٩٤٨ . وسنحاول أن نتعرف كل مرحلة بسماتها وخصائصها العامة فى ايجاز .

المرحـــلة الأولى

استغرقت هـــذه المرحلة من حياة عبد الرحيم سنتى الطلب اللتين قضاهما فى كلية النجاح حيث كان لقاؤه بأستاذه الشاعر العظيم ابراهيم طوقان الذى شجعه وأيده وسعد به ، ثم سنوات عمله الأولى شرطيا ثم معلما فى كلية النجاح ، ثم نضاله المسلح بعـــد أن قامت الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ بعـــد استشهاد عز الدين القسام سنة ١٩٣٥ . وقـــد ذكرنا فى الفصل الثانى من هـــذا الكتاب أننا لا نستبعد اسهامه فى العمـــل الوطنى السرى فى تنظيم « اليد السوداء » بقيادة عز الدين القسام أثناء عمله شرطيا فى حكومة الانتداب .

وكل ما ذكرناه يمثل ألوانا من العيش والعمل والحياة لم تنفصل فى واحـــد منهـــا عن الهـــدف الوطنى ، فقـــد عرفنا من قبل أن كلية النجـــاح كانت معهدا لتربية الطلاب على روح الوطنية والتضحية والفـــداء بجانب العلوم التقليدية المعروفة . وقـــد تلقى عبد الرحيم هـــذه القيم طالبـــا ، ولقنها طلابه معلما ، وعاش يؤمن أن ميدان التعليم لا يقـــل أهمية عن ساحة النضال المسلح . **وأهم ما جاءت به قريحته من قصائد فى هـــذه المرحلة :**

١ — وعـــد بلفـــور — ١٩٣٥ — ١٥ بيتا (الديوان ١٢٥)

٢ — وعـــد بلفـــور — ١٩٣٥ — ١٩٠ بيتا (الديوان ١٢٦)

التدوير فيها الا بيتان ، ولا تخلو قصيدة وأحـــدة من التدوير بصورة لافتـــه للنظـــر .

وربما كان مرجع ذلك الى محـــدودية « المعجم الشعرى » لعبد الرحيم فى هـــذه الفترة ، فلم تكن ثروته اللغوية آنذاك تسعفه بالكلمة التى تطـــابق التفعيلة ، وتستغرق حروفها بانتهاء الشطر الأول .

والتدوير فى ذاته لا يعـــد عيبا عروضيا ، ولكن العيب فى الاغراق فيه ، لأنه يحرم القارىء الوقيفة القصيرة مع نغمة الشطر مع تمام الكلمة . ومن ثم لا يستساغ هـــذا التدوير الذى يشغل أغلب القصيدة .

٦ ـــ وملامح التقليد ظاهرة فى شكل القصيدة ، فالشاعر لم يخرج على الشكل الخليلى ، وان لجـــأ احيانا الى نظام المقطوعة . والتقليد والاتبـــاع واضح فى كثير من مضامينه الفكرية وأدائه التعبيرى ، وتشكيله التصويرى . وقـــد فصلنا بعضا من ذلك فى صفحات سابقات .

المرحـــلة الثانية

كان عام ١٩٣٩ عاما فاصلا فى تاريخ فلسطين والقضية الفلسطينية ، فقـــد عرفنا أن الثورة الفلسطينية الكبرى قـــد اشتعلت سنة ١٩٣٦ ، واستطاع أبناء فلسطين أن ينزلوا بالانجليز واليهود خسائر فادحة وهزائم نكراء ، وصاحب ذلك عصيان مدنى واضراب استمر لشهور طويلة ، ولم يوقف الفلسطينيون نضالهم المسلح الا بعـــد أن تدخل ملوك العرب وحكامهم ، ووجهوا نداء الى الشعب الفلسطينى بأنهم قـــد تألموا كثيرا للحالة السائدة فى فلسطين ، وانهم اتفقوا والأمير عبد الله على دعوتهم للاخلاد للسكينة حقنـــا للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتهم الحكومة البريطانية « ورغبتها المعلنة لتحقيق العـــدل »(٢٠) . وانخـــدع ملوك العرب بوعود بريطانيا ، وانخـــدع الفلسطينيون بوعود ملوك العرب ... ثم توالت النكبات .

---

(٢٠) أنظر نمر الخطيب : أحـداث النكبة ١٦٥ .

كما كان هـــذا العام عاما فاصلا ومؤثرا فى حياة عبد الرحيم : فقـــد استشهد صـــديقه وقائده عبد الرحيم الحاج محمد أنقى وأتقى قائد كان فى الساحة الفلسطينية آنذاك . والثورة الفلسطينية لم تحقق ما استشرفته وما تطلعت اليه وان كان حبل النضال لم ينقطع على الرغم من ارتخائه . وبدأت حكومة الانتداب فى أثناء هـــذا الهدوء النسبى الذى ساد الأرض الفلسطينية بعد نداء الملوك والحكام العرب تطارد الأحرار والمناضلين، فتسلل عبد الرحيم ملبل الى دمشق ومنها الى بغـــداد . وها هى ذى القضية الفلسطينية تتسع دائرتها ، وتتعـــدد أطرافها وتأخـــذ بعـــدا عربيا وبعـــدا عالميا زيادة على البعـــد المحلى ، وبدأت بوادر نجاح التآمر على أرض فلسطين وشعبها تلوح فى الأفق بعـــد عرض التقسيم حلا للقضية .

كل أولئك ـــ ولا شك ـــ عمق احساس الشاعر بمأساة شعبه ، ومأساة ذاته انسانا يبحث عن الحـــق والعـــدل والأرض . ومع اتساع دائرة نظره باتساع دائرة القضية عاش الشاعر حيوات ثلاثا :

ـــ حياة أدبية باختلاطه ومساجلاته مع الأدباء والشعراء من أمثال الرصافى والزهاوى والجواهرى وغيرهم .

ـــ حياة علمية عملية فى مجال التدريس والتعليم والتربية .

ـــ حياة عسكرية باستكمال ثقافته الحربية واشتراكه فى ثورة رشيد عالى الكيـــــلانى ..

وبعـــد ثلاث سنوات عاد الى فلسطين لتكون حياته فيها امتدادا لطبيعة حياته فى الغربة .. عاد معلما يكافح بالكلمة والتوجيه ثم محاربا فى ســـبيل الوطن الى أن نال الشهادة التى ظل يسعى اليها طيلة حياته .

وفى هـــذه المرحلة التى امتدت قرابة عشر سنوات اتسم شعره بأبعاد وملامح جـــديدة تمثلت فيما يأتى :

١ ـــ اتسعت دائرته الشعرية وغزر افرازه الشعرى الى حـــد بعيد ، وتنوعت موضوعاته فزيادة على شعره الوطنى الفلسطينى عالج الشاعر موضوعات جـــديدة لم يطرقها من قبل وأهم هـــذه الموضوعات :

(أ) الحنين الى الوطن والشعور الحاد بالغربة ، كما نرى فى قصيدتيه : **حنين الى الوطن** — وحجر فى كثبان رمل .

(ب) الاجتماعيات : مثل قصيدة الى العمال — وتمور البصرة .

(جـ) شعر القومية العربية ، فلم يعد الشاعر محصور النظرة فى حدود الوطن الفلسطينى . فنظم عددا من القصائد العربية مثل : **ذكرى الجامعة العربية** — ثورة دمشق — رثاء الملك غازى — يقظة النيل ... الخ .

(د) الانسانيات : وقد دعا فيها الى القيم الانسانية العليا من عدل **وحق ومحبة وأخوة** ومساواة مثل قصيدة : طريق الحياة — وقصيدة : أبو العلا المعرى — وقصيدة أنشودة التحرير .

(هـ) الاسلاميات : مثل : ذكرى الهجرة النبوية — كتاب أضاء دياجى الظلم — ليلة ذات فجرين — القرآن الكريم .

٢ — كما قل أو انعدم فى شعره الغراميات أو الغزليات ، كأنما يرى أن المرحلة التى يعيشها وتعيشها أمته مرحلة جاده لا تتسع لمثل هذا الشعر .

٣ — أثرى معجمه الشعرى وزادت ذخيرته اللفظية . وقل فى شعره الغريب ، وبد أكثر تمكنا من لغته وأسلوبه .

٤ — أصبح أطول نفسا من ذى قبل كما نرى فى قصيدتيه « الى العمال » و « أحاجبى فى ذكرى وعد بلفور » فقد تجاوزت كل منهما السبعين بيتا .

٥ — انعكس فى شعره آثار لقروءاته الحديثة ، واستجابته لبعض التيارات الفنية السائدة فظهر فى بعض قصائده طوابع رومانسية وملامح رمزية وقصصية ، مما سنعرض له فيما بعد .

* * *

وبعد اجمال الملامح الفنية لهاتين المرحلتين نتعرف فى الصفحات التالية حظ شعره من التقليد قبل أن نخلص الى عناصر شعره بالتفصيل .

بصمات التاثر والتقليد

يحضرنى فى هـذا المقام كلمة أحـد العلماء الحكماء « أخبرنى ماذا تقرأ أخبرك من أنت » . فالأديب « ابن مقروءاته » ان صح هـذا التعبير . وما يقرؤه يؤثر فيه على نحو من الأنحاء ــ أراد أو لم يرد ، يؤثر فيه فكرا وأسلوبا وسلوكا . وهـذا التأثير له وجوده وحضوره حتى لو تعمد أن يسلك سلوكا معاكسا مناقضا لمـا قرأ ، « فالضدية » ــ كما يقول المناطقة علاقة من العـلاقات .

وعبد الرحيم محمود كانت « مناهله الثقافية » عربية فى أغلبها كما ذكرنا من قبل . فقـد قرأ الأدب العربى القـديم : شعره ونثره ، كما كان يقرأ كثيرا مما تخرجه المطابع لا فى فلسطين فحسب ، بل فى الوطن العربى بأقطاره المختلفة(٢١) ، كما عرفنا من قبل أنه قرأ القرآن وحفظه حفظ فهم وادراك وايمان وكان لكل هـذه المقروءات آثار وبصمات على شعره : فكرا وتصويرا وتعبيرا كما سنرى فى السطور الآتية :

أولا ــ القرآن الكريم :

ولا غرابه أن نجـد بصمات القرآن الكريم فى شعره أوضح وأكثر من غيرها فذلك راجع لطبيعة نشأته فى بيت دين وفقه وعلم ، وعلاقته بصفوة

---

(٢١) نشرت له مجلة الرسالة القاهرية قصيدة « شعب فلسطين فى ١٩٣٦/٨/٣١ ، أما أغلب شعره فنشرته له مجلة « الأمالى » البيروتية الأسبوعية . وحين كتب العقاد فى احـدى المجـلات القاهرية مقالا عن « الوجود والحق » أبدى فيه تشاؤمه وشكه فى امكانية انتصار الحق هجاه الشاعر هجاء مرا فى قصيدة عنوانها : « جاهل يتعالم » [أنظر بعض أبياتها فى جرار ص ٣١٢] . وحينما يقرر المؤتمر النسوى المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٤٤ « حـذف نون النسوة » مساواة بالرجل ، ونشر « عزيز فهمى » قصيدة فى « الرسالة » بهـذه المناسبة نظم عبد الرحيم قصيدة طـويلة عنوانها « نون النسوة الحزينة » . وكل ذلك يدل على متابعة الشاعر ما ينشر من أدب وما يدور من أحـداث خارج فلسطين .

من المتدينين الأنقياء الأنقياء من أمثال عز الدين القسام وعبد الرحيم الحـــاج محمد والشيخ محمود حنون . وطبيعة الاستعمار الصهيونى تستند الى أساس دينى ــ كما بينا فى الفصل الأول ــ وهو عـــدوان صارخ على مقـــدسات اسلامية حيث مسرى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم . كل أولئك كان عوامل ــ منها الظاهر ومنها الخافى ــ لتأثر عبد الرحيم بالأسلوب القرآنى والكلمات الدينية فى شعره بعامة وشعر الحماسة والجهاد بخاصة . ومن الشواهد الى اقتطفناها للتدليل على هـــذه الظاهرة ما يأتى :

١ ــ قوله عن الاستعمار الانجليزى فى قصيدته « وعـــد بلفـــور »(٢٢) :

لمـــا قضى وطرا بفضل سيوفنا نسى اليد البيضا ولم يتذكر(٢٣)

اقتبس بداية البيت من قوله تعـــالى « **فلمـــا قضى زيد منهـــا وطرا زوجناكهـــا ... »(٢٤)** .

٢ ــ وقوله فى قصيدته نداء الوطن :

ولا تجموا اذا اربدت ســـماء ولا تهنوا اذا ثارت بوادى(٢٥)

متأثرا بقوله تعالى « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعـــلون ان كنتم مؤمنين »(٢٦)** .

٣ ــ ونرى أثر قوله تعالى : « **واعتصموا بحبـــــل الله جميعـــــا ولا تفرقـــوا .. »(٢٧)** .

فى أكثر من موضع ، كما نرى فى الأبيات الآتية :

لقـــد اعتصمت بحبـــل حبـــ ـــك فاعتصم حبـــا بحبلى(٢٨)

---

(٢٢) الديوان ١٢٦ .

(٢٣) الديوان ١٢٦ .

(٢٤) الأحزاب ٣٧ .

(٢٥) الديوان ١٤٧ .

(٢٦) آل عمران ١٣٩ .

(٢٧) آل عمران ١٠٣ .

(٢٨) الديوان ١٨٦ .

وقال لنـــا اعتصموا يا عبـــا د وليس سوى حبله معتصم(٢٩)
لهم بالله والقـــرآن حبـــــل به اعتصموا ولا يحكيه حبل(٣٠)

٤ ــ وقول الشاعر فى قصيدته (موت بطل)(٣١) .

ســـور قـــد فصلت آياتهـــا ثم تزل تتلى على الدهر الأبيد

متأثر بقوله تعالى : « **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** »(٣٢) .

٥ ــ ونرى أثر قوله تعالى : « ... **وخر موسى صعقا ..** »(٣٣) .

وقوله تعالى : « **وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** »(٣٤) .
فى بيت الشاعر :

وهـــوى الباطـــل صـــــعقا انـــه كـــان زهـــــوقا(٣٥)

٦ ــ ويقول الشاعر :

« وأعـــــدوا » لم يقلهـــا ربكم عبثا،فلتحسنوا فى الذكر نظره(٣٦)

وواضح أنه متأثر بقـــوله تعـــالى : « **وأعـــدوا لهم ما أستطعتم من قـــوة ...** »(٣٧) .

٧ ــ ويقول الشاعر :

قال يا انسان لا تزهد ولكن بين أخراك ودنياك قـــواما(٣٨)

---

(٢٩) جرار : شاعران ٢٦٩ .
(٣٠) الســـابق ٢٧٣ .
(٣١) الديوان ١٣٤ .
(٣٢) فصـــلت ٣ .
(٣٣) الأعـــراف ١٤٣ .
(٣٤) الاسراء ٨١ .
(٣٥) الديوان ١٣٨ .
(٣٦) الديوان ١٥٠ .
(٣٧) الأنفـــال ٦٠ .
(٣٨) جرار . ٢٧٠ .

وفيه أثر من قوله تعالى : « .. **وكان بين ذلك قواما** .. »(٣٩) .

٨ ــ أما مضمون قوله تعالى : « **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** »(٤٠) فقد الح عليه الشاعر أكثر من مرة وهــو يوازن بين الرعيل الأول فى صــدر الاسلام وعصور القوة والعزة وبين جيله الحاضر بما فيه من وهن وضعف بسبب اهمــال كتــاب الله وأحكامه ، والتفريط فى ميراث الآباء والأجــداد :

وجاء وراءهم نسل أضاعــوا جنى أتعابهم فلبئس نسل(٤١)
وأتينــا نحــن من بعــــدهم وأضعنا ما جنوا طيشا وغره(٤٢)

٩ ــ ويتأثر الشاعر كذلك بقوله تعالى : « **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقــدامكم** »(٤٣) .

فى قوله عن الرعيل الأول من المسلمين :
نصروا الله فلم يخــذلهمــــو بل جزاهم ربهم فوزا ونصره(٤٤)

* * *

ومن الكلمات القرآنية فى شعر عبد الرحيم : **الحرور(٤٥) ــ الحور(٤٦) ــ الجنة وسقر(٤٧) ــ الفاسق(٤٨) ــ حبل من مسد(٤٩)** .

---

(٣٩) الفرقان ٦٧ .

(٤٠) مريم ٥٩ .

(٤١) جرار : ٢٧٤ .

(٤٢) الديوان ١٥١ .

(٤٣) محمــد ٧ .

(٤٤) الديوان ١٥٠ .

(٤٥) الديوان ١٦٦ وأنظر سورة فاطر الآية ٢١ .

(٤٦) الديوان ١٣٢ . وأنظر الدخان ٥٤ ، والطور ٢٠ والرحمن ٧٢ ، والواقعة ٢٢ .

(٤٧) الديوان ١٤٠ وأنظر القمر ٤٨ والمدثر ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٢ .

(٤٨) الديوان ١٦٣ . وأنظر الفلق ٣ .

(٤٩) جرار : شاعران من جبل النار ٢٥٤ .

ويغص شعر الشاعر بكثير من الألفاظ والعبارات الدينية وخصوصا القصائد التى نظمها فى المناسبات الدينية ، وجاء ذلك نتيجة طبيعية ــ كما ذكرنا ــ بطبيعة نشأة الشاعر ، وطبيعة قراءاته واعتزازه بالدين وحفظه للقرآن حفظ محبة وتمسك والتزام ، زيادة على طبيعة الأغراض الشعرية التى يزيد جمالها وتأثيرها بتطعيمها بمثل هذه الكلمات من الدعوة الى الجهاد ، وتمجيد الأبطال ورثاء الشهداء واحياء ذكرى الأيام الاسلامية المتوهجة المنتصرة .

ثانيا ــ الأدب القديم :

وفى شعره من آثار الأدب العربى القديم كثير من الصور والعبارات والألفاظ فيقابلنا فى شعره اشارات وتلميحات الى الأمثال العربية القديمة كما ترى فى حديثه عن جيل الضعف والتفريط والضياع :

يدوس حرامهم طير بغاث ويقهرهم من الأقوام سفل(٥٠)

ففيه تلميح الى المثل العربى المشهور « **ان البغاث بأرضنا يستنسر** »(٥١) ويقول الشاعر فى القادة والزعماء الذين شغلوا بأنفسهم عن قضية الوطن :

لعمرك ما نووا يوما صلاحا وهم فى الناس أشباه القرلى

والقرلى طائر شديد الحذر يضرب به المثل فى الأثره ، فيقال **كالقرلى ، ان رأى شرا تعلى ، وان رأى خيرا تدلى** »(٥٢) .

* * *

ومعجم الشاعر غاص بالألفاظ التقليدية التى تدور فى الشعر القديم ، فيتردد فى شعره ــ وخصوصا شعر الحماسة ــ كثير من هذه الألفاظ ،

---

(٥٠) جرار السابق ٢٧٤ .

(٥١) مجمع الأمثال للميدانى ١٢/١ والبغاث ضرب من الطير صغير ضعيف . وذكر الميدانى أن هذا المثل يضرب للضعيف يصير قويا ، وللذليل يعز بعد الذل ، ولكن يجوز فى رأينا أن يعطى المثل عكس هذا المعنى ، فيدل على ضعف أصحاب الأرض وذلتهم . وهذا هو المعنى الذى قصد اليه الشاعر .

(٥٢) أنظر جرار : السابق ٢٥٢ .

ولننظر الى قصيدة واحـــدة هى قصيدة « وعـــد بلفـــور »(٥٣) لنرى الألفاظ الآتية : **الأسنة ــ القنـــا ــ السمهرى ــ الفوث ــ العتاق ــ الفضنفر ــ العجاج ــ النجيع ــ هصر .**

* * *

وكالشعراء القـــدامى يجنح الشاعر أحيانا الى افتتاح بعض قصائده بالغزل الصناعى كما نرى فى قصيدته « الى كل متهاود »(٥٤) التى يستهلها بقـــــوله :

يا مـــــن تـــوله بالحبيب هناك قـــــد رجـــع الحبيب
لقـــــد انتظـــــرت ايابه شـــوقا فها هـــو ذا يؤوب
فى جيبه لعـــــب الهـــــوى يلهـــو بهـــا الصب اللعـــوب

ثم يخلص من ذلك الى الحـــديث عن نكبة شعبه ، وتهافت وعـــود المســـــــتعمرين .

* * *

وبصمات الشعر القـــديم واضحة جـــدا فى كثير من أبيات الشاعر ، ونجتزىء ببعضها أمثلة للتدليل على طوابعه التقليدية فى أدائه التعبيرى بصـــفة خاصـــة .

١ ــ يقـــول عبد الرحيم محمود :

وأحمى حياضى بحـــد الحسا م فيعلم قومى بأنى لفتى(٥٥)

---

(٥٣) الديوان ١٢٦ .
(٥٤) الديوان ١٢٩ .
(٥٥) الديوان ١٣١ .

ونحس فى هـــذا البيت بروح الشاعر الجاهلى طرفه بن العبد اذ يقول :

اذا القوم قالوا من فتى خلت أننى عنيت فلم أكسل ولم أتبلـــد(٥٦)

كذلك تنعكس فيه كلمات بيت زهير المشهور :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم(٥٧)

٢ ــ ويقول عبد الرحيم فى مجال الفخر :

وســـل الذى خضـــع الهـــوا ء لـــه وذل لـــه العباب(٥٨)

فيكاد يكرر نفس الفكرة التى عبر عنها عمرو بن كلثوم فى معلقته بقوله :

ملأنا البر حتى ضـــاق عنـــا ونحـــن البحر نملؤه سفينا(٥٩)

ويقول عمرو بن كلثوم :

اذا ما الملك سام الناس خسفا أبينـــا أن نقر الـــذل فينا(٦٠)

ويظهر أثره فى بيت عبد الرحيم التالى :

قـــد أبينـــا حـــين شئتم أن نقـــر الـــذل فينا(٦١)

٣ ــ ويظهر تأثره ببشار فى أثر من موضع :يقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسهم وأسيافنا ليل تهاوى كواكبـــه(٦٢)

فيقتبس عبد الرحيم الصورة نفسها فى قوله :

واذ السـيوف كأنهن كواكـــب تهوى تلامع فى العجاج الأكدر(٦٣)

---

(٥٦) شرح المعلقات السبع للزوزنى ٥٧ ٠

(٥٧) الســـابق ٨٨ ٠

(٥٨) الديوان ١٢٨ ٠

(٥٩) شرح المعلقات السبع ١٣٥ ٠

(٦٠) شرح المعلقات السبع السابق ٠

(٦١) الديوان ١٣٨ ٠

(٦٢) ديوان بشار ٣١٨/١ ٠

(٦٣) الديوان ١٢٦ ٠

ومن قصيدة « نجـوى المحتضرة » يقول عبد الرحيم :

لقـد قـدتنى لسبيل الفنـا ء ومن كان هاديه أعمى عثر(٦٤)

وهـو يردد الحكمة الخالدة التى نطق بها بشار فى قوله :

أعمى يقود بصيرا لا أبالكـم قد ضل من كانت العميان تهديه(٦٥)

ويقول عبد الرحيم :

ان من صـعر خـده نتـولى نحـن رده(٦٦)

ويقول بشار :

اذا الملك الجبار صعر خـده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه(٦٧)

٤ — وفى الشعر القـديم نرى بعض الشعراء الغزلين المحبين قـد يبلغ بهم الحب اقصى درجات الأثرة والغيرة حتى ليتمنى الشاعر المحب أن تكون حبيبته على صورة مشوهة دميمة كيلا يعلقها واحـد من الناس غيره ، كما ترى فى قول جميل :

رمى الله فى عينى بثينة بالقـذى وفى الغر من أنيابها بالقوادح(٦٨)

أما كثير عزة فيتمنى أن تصيبه الآفة هـو وحبيبته ، وأن يتحولا الى بعيرين أجربين معزولين مطاردين لا يشغلهما الا الحب المتبادل بينهما(٦٩) .

---

(٦٤) الديوان ١٨٣ .

(٦٥) بشار بن برد : شعره وأخباره ص ١٠٥ .

ولهـذا البيت قصة تتلخص فى أن رجلا سأل بشارا عن منزل رجل ذكره له ، فجعل يفهمه والرجل لا يفهم ، فلما يئس منه بشار أخـذ بيده ، وقام يقـوده الى المنزل الذى يبتغيه ، وجعل بشار ينشد فى طريقه هـذا البيت وظـل يقوده حتى وصـل الى المنزل ثم دفعه الى داخله ، وقال هـذا هـو المنزل يا أعمى .

(٦٦) الديوان ١٣٨ .

(٦٧) ديوان بشار ٣١٨/١ .

(٦٨) ديوان جميل ٣٢ . وأنظ رجميل بثينة للعقاد ٦٥ ـ ٦٦ .

(٦٩) أنظر الأبيات وتعليق العقاد عليها فى « جميل بثينة » ٦٧ ـ ٧٠ .

هـــذه « الأثرة الشاذة » وهـــذه « الغيرة القاتلة » التى تجعل المحب يتمنى لحبيبته الدمامة أو الموت حتى لا يتمتع غيره بها ابرزها عبد الرحيم فى أبيات له على لسان « نجـــوى المحتضرة » وهى تخاطب حبيبها ابراهيم بقـــــولها :

وددت لو انـــك بين اليـــدين ... أضمك للصـــدر ضـــــما عسر
وألتف لـــف الأفاعى عليـــــك ... وأنظر سمى فيـــــك انتشر
ويجمعنـــــــا ميتين السـرير ... وبا طالمـــــا جمعتنـــا السرر
وتقضى ويقضين حزنا عليـــك ... وما نال منك سواى الوطـــر(٧٠)

٥ ــ وفى قصيدة « موت بطل »(٧١) التى نظمها فى رثاء رفيق كفاحـــه وقائده عبد الرحيم الحاج محمد نلمس تأثره الواضح بدالية ، أبى العـــلاء فى رثاء أبى حمزة الفقيه الحنفى فى بعض صوره وتراكيبه اللغـــوية يقـــول عبد الرحيم مصورا حزن الناس على البطل الشهيد ولوعتهم لفراقه :

صعدوا من لوعـــــة زفراتهم ... فأذابت قاسى الصخر الصـــلود
جعلوا من كل صـــدر مسكنا ... لارتفاع بك عن سكنى اللحود
كل قلب لك فيـــــه مصحف ... فيه من ذكرك قرآن خلـــــود

وهى صورة تسبح فى جـــو أبيات المعرى التالية :

ودعا أيها الحفيان ذاك الشـــخ ... ـــــص ان الـــوداع أيسر زاد
واغسلاه بالدمع ان كان طهرا ... وادفنـــاه بين الحشا والفؤاد
واحبواه الأكفان من ورق المصـ ... ـحف كبرا عـــن أنفس الأبراد(٧٢)

٦ ــ ولم يخل شعره من الاتباع والتقليد لنماذج شعرية قـــديمة كاملة ،

---

(٧٠) الديوان ١٨٤ ٠
(٧١) الديوان ١٣٤ ٠
(٧٢) المعرى : شروح سقط الزند ــ السفر الثانى : ٩٨٩ ــ ٩٩١ ٠

وهو ما يطلق عليه اسم « المعارضة »(٧٣) . ولكن انتفاء عنصر **التحدى** يدخله فى باب الاتباع أو التقليد ، ويكون ذلك لأسباب وعوامل كثيرة أهمها الاعجاب الذى يتناول شخصية المقلد ، كما يتناول الأثر الفنى الذى أنتجه .

وشخصية المقلد أو شخصية الأصيل ذات أثر كبير فى تتبع الأدباء آثاره واحتذائهم عمله ، وشيوع مذهبه ، فقد يجيد الأديب فى ناحية من النواحى ، أو ينجح فى موقف من المواقف ، فتكون تلك الاجادة وذلك النجاح سببا من أسباب الاعجاب بشخصه وفنه فيعمد كثير من المتبعين الى تقليده حتى يظفروا بالنجاح الذى ظفر به(٧٤) .

ولعبد الرحيم قصيدة بعنوان « **جيش الحبائب** »(٧٥) ، وهى قصيدة يستهلها الشاعر بقوله :

حى الظباء البادیات کواکبا ... المورثات العاشقين مصائبا
المحرقات بنارهن قلوبنا ... والآخذات من اللحاظ قواضيا
والسارقات من الرياض لدانها ... ورضابها وشذا الورود الساكبا

وقد اتبع فيها شاعرين : الأول هو المتبنى فى قصيدته التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلابيا
المنهبات قلوبنا وعقولنا ... وجناتهن النابهات النابيا
الناعمات القاتلات المحييا ... ت المبديات من الدلال غرائبا(٧٦)

---

(٧٣) المعارضة فى أغلب أحوالها أن ينظم الشاعر قصيدة ، وينظم آخر مثلها يريد بها مغالبة الأول والتقدم عليه ، وعلامتها أن تتفق القصيدتان موضوعا ووزنا وقافيه ، وكان الشاعر المعارض يريد بهذا التوافق أن يقطع على خصمه وعلى نصرائه معه كل سبيل الى التعال والتماس المعاذير عند الحجاج والمفاضلة ، وأن يقصر الرأى والخلاف فيه والاستدلال له على مدى الاحسان فى العرض ومبلغ القدرة على التوليد والابتكار [أنظر : الدين والأخلاق فى شعر شوقى : على النجدى ناصف ٣٤ – ٣٧] .

(٧٤) د. بدوى طبانه السرقات الأدبية ١٠٢ .

(٧٥) الديوان ١٨٠ .

(٧٦) ديوان المتنبى ٢٥٠/١ .

أما الشاعر الثانى فهو صفى الدين الحلى الذى يقول فى مطلع قصيدته :

أسبلن من فوق النهود ذوائبـــا فجعلن حبا ت القلوب ذوائبـــا
وجلون من صبح الوجوه أشـــعة غادرن فود الليل منها شائبـــا
بيض دعاهن الغبى كواعبـــا ولو استبان الرشد قال كواكبا(٧٧)

وقصيدة المتنبى كانت فى مدح على بن منصور الحاجب ، أما قصيدة صفى الدين الحلى فهى فى مدح الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قـــلاوون وقـــد قصد الحلى أن تكون قصيدته معارضة لقصـــيدة المتنبى بعـــد أن « اقترح عليه أرباب الدولة هـــذه المعارضة » ، وقـــد توفر له كل شروط المعارضة : من ارادة التحدى ووحـــدة الغرض أو الموضوع وهـــو المدح ووحـــدة القافيه والبحر وهو الكامل ، كما يتفقان فى المنهج وهو الخلوص من الغزل الى الغرض الأصلى وهو المدح ، وكذلك فى كثير من المعانى الجزئية .

أما عبد الرحيم محمود فيقف بقصيدته عند الغزل متبعا القصيدتين فى الوزن والقافيـــة والمطلع الغزلى وفى فكرة أساسية هى « القـــدرة الفائقـــة الغلابة القهارة للمحبوبات الجميلات الفاتنات » . ومن عجب أن تكون قصيدة عبد الرحيم من أربعة عشر بيتا ، وهـــو نفس عـــدد أبيات المطلع الغزلى عند الحلى ، وهـــو قريب من عـــدد أبيات المطلع الغزلى للمتنبى وقـــد بلغ أحـــد عشر بيتا .

* * *

ثالثا ــ الشـــعر الحـــديث :

ذكرنا من قبل أن عبد الرحيم محمود كان ينشر بعض قصائده فى بعض المجلات العربية مثل « الأمالى » البيروتية ، و « الرسالة » القاهرية ، وأنه كان على صلة بما تخرجه المطابع فى حياته ، وقـــد رأينا من قبل كيف تأثر

---

(٧٧) ديوان صفر الدين الحلى ٦٢ .

فى بعض شعره بخليل مطران وايليا ابى ماضى . والسطور الآتية ضميمة تؤكد هـــذا التاثر فى الفكر والتصوير والتعبير . ومن امثلة ذلك قوله :

لا ارى الجنـــــة ان أدخلتها وهى خلو منك الا كسقر(٧٨)

وواضح أن لروح شوقى حضورا هنا ، وذلك فى بيته المشهور :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى(٧٩)

من الصور الجميلة لعبد الرحيم هـــذا المشهد للشهداء فى العالم الآخر وهو من قصيدته « موت بطل » التى رثى بها عبد الرحيم الحاج .

هـــذه اعراسهم صـــــــغابة نقرة الدف بها قصف الرعود
فيروون الثرى من دمهـــــم ويحنون بهـــا كف الصـــــعيد
ويزفـــون عليهم حـــــــلل من نجيع الحرب تزرى بالبرود

وهـــذا المشهد الجميل يكاد يسبح فى نفس الجـــو التصويرى الذى تسبح فيه أبيات عمر أبى ريشه مخاطبا فيها البطـــــل السورى « ابراهيم هنـــــــانو »(٨٠) :

ذكراك عرس المجد لم يكسر له دف ولم يحطم لـــــه مزمار

---

(٧٨) الديوان ١٤٠ .

(٧٩) الشوقيات ٤٦/٢ .

(٨٠) ديوان عمر أبى ريشة ٥٥٥ من قصيدة طويلة نظمها الشاعر سنة ١٩٣٧ فى ذكرى البطل ابراهيم هنانو . أما قصيدة عبد الرحيم فقد نظمها كما عرفنا فى رثاء عبد الرحيم الحاج سنة ١٩٣٩ .

وابراهيم هنانو (١٨٦٩ ـ ١٩٣٥) قاد المتطوعين بعد احتلال الفرنسيين دمشق ، وأنزل بالجيش الفرنسى هزيمة منكرة فى سبع وعشرين معركة ظفر فيها جميعا ، والف حكومة وطنية ولقب بالمتوكل على الله . زار فلسطين فاعتقله الانجليز وسلموه للفرنسيين فحوكم محاكمة شغلت سوريا عدة شهور ، وانتهت باعتبار ثورته « سياسية مشروعة » فاشتغل بالعمـــــل السياسى ، واجتمعت على زعامته سورية كلها ، وقـــادها فأحسن قيـــادتها [انظر الزركلى : الأعـلام ٤١/١] .

تشدو بنات النور لحن جـــلاله وعلى سواعدها اللدان الفـــار
ونقاله الزاهى ضـــحايا حرة وبساطه الضـــــافى دم مدرار

* * *

ولكن كل أولئك لا يعنى أن الشاعر قـــد أهـــدر « شخصيته الفنية » فى امتصاص القـــديم فذابت امكاناته وقـــدراته فيه ، ولم يكن له « حضوره الخاص » فيما ينظم من الشعر ، بل كان للشاعر ملامح تجـــديدية ووجـــود ذاتى له قيمة بقـــدر استعداده وقـــدراته وامكاناته الثقافية والفطرية ، وذلك ما سنعرفه فى تضاعيف حـــديثنا عن عناصره وأدواته الفنية .

الصـــورة الشعرية

الصورة الشعرية فى أبسط معانيها « رسم قوامه الكلمـــات »(٨١) . والألوان البيانية المجازية ــ ولا شك هى من أهم الوسائل فى تشكيل الصورة الشعرية ، ولكن هـــذه الألوان بذاتها لا تخلق مثل هـــذه الصورة ، انمـــا الاعتماد الأساسى فى هـــذا المجال يكون على القوة الخيالية لاستجابة الشاعر أولا ، وعلى المدى الذى استوعب به وعى الشاعر المشهد الذى يراه أو يحس به(٨٢) . وهـــذه السمة تضع الفارق الفاصل بين الصورة الآسرة والصورة الساقطة ، فالأولى من أهم خصائصها قوة الايجاد حيث لا تقف عند المظاهر الخارجية والتعبير المباشر ، وبذلك فرق الرومانتيكيون بين الذاتية المباشرة فى الشعر الغنائى ، والدلالة الايحائية بالصور الشعرية(٨٣) .

وقد يخلط البعض بين « الأبعاد » فى الخيال « وقوة الايحاء » ، وهـــذا الخلط لا يتفق مع طبيعة الصورة الشعرية » : فقوة الايحاء مصدرها الباطن النفسى دون التصريح به ، كما أن الصورة فى ذاتها قد تكون بسيطة العناصر ، بريئة من « التعقيد الفنى » كما نرى فى هـــذين البيتين المشهورين للشـــاعر العربى ذى الرمة :

عشية ما لى حيلة غير اننى ... بلقط الحصا والخط فى الترب مولع
أخط وامحو الخط ثم أعيده ... بكفى والفربان فى الدار وقـــع

فهـــذه الصورة الشعرية تتوالى للدلالة على الحيرة واللوعة وشرود اللب ، ووحشة المكان التى تتجاوب مع أحاسيس الشاعر دون تصريح بهذه المشـــاعر(٨٤) .

---

(٨١) دى لويس : الصورة الشعرية ٢١ .

(٨٢) أنظر السابق ١٠٢ .

(٨٣) أنظر غنيمى هلال : قضايا معاصرة فى الأدب والنقـد ٦٠ .

(٨٤) السابق : نفس الصفحة .

وقوة التخيل تمكن الشاعر من افراز الصور ذات الايحاء القوى الآسر ، وذلك يقتضى الشاعر أن « يعيش » المواقف والمشاهد بشعور مرهف ووجدان قوى ، لأن عملية « الميلاد الفنى » تقتضى « **الانفصال** » من ناحية ، « **والمعايشة** » من ناحية أخرى ، أى الانفصال عن « الواقع العادى » بأبعاده المرئية المحسوسة ، والمعايشة لواقع جديد بامكانة خيالية مبدعة تعطى هذا الواقع ــ كما يقول النقاد ــ أبعادا جديدة وعلائق قد لا تكون له فى الحقيقة ، فيصبح كل ذلك « **واقعا نفسيا** » تغذيه الملكة الخيالية الابداعية للشاعر ، فتولد صورة ذات ايحاء آسر يشد القارىء ، بل يعيشه فى « عالم الشاعر » حتى يصير المبدع والمتلقى شيئا واحدا .

والطبيعة ــ بمفهومها الشامل وبكل ما تنطوى عليه من اشياء وجزئيات وظواهر ــ هى المصدر الأساسى لامداد الشاعر بمكونات الصورة ، ولكنه لا ينقلها الينا فى تكوينها وعلاقاتها الموضوعية ــ كما اشرنا آنفا ــ « بل انه يدخل معها فى جدل فيرى منها أو تريه من نفسها جانبا يتوحد معه بادراك حقيقة كونية وشخصية معا »(٨٥) .

وحتى يكون للصورة فى الشعر هذا المقام الرفيع يجب أن تبرأ من السطحية أو « **التسجيلية البصرية** » ، وهو ما تبنى العقاد الدعوة اليه من عشرات السنين فى حديثه المشهور يخاطب به شوقى « **... فاعلم أيها الشاعر العظيم : أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ، ويحصى أشكالها وألوانها ، وليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه ، انما مزيته أن يقول ما هو ، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به .... واذا كان وكدك من التشبيه أن تذكر شيئا احمر ، ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على ان ذكرت اربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شىء وأحد . ولكن التشبيه ان تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان ، فان الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس الى نفس** »(٨٦) .

---

(٨٥) د. محمد حسن عبد الله : الصورة والبناء الشعرى .

(٨٦) عباس العقاد : الديوان ٢٠ .

كذلك يجب أن تكون الصورة الشعرية **أصيلة بعيدة عن تعمد الاحتذاء والتقليد** بحيث تبدو فيها بصمات الشاعر ونفثـاته الخاصـة . والشاعر العبقرى هـو الذى يستطيع أن يجـدد « نسيج القـديم » ، ويمنحه من العلاقات أو الاضافات الجزئية ما يجعل الصورة ـ على الرغم من قـدم « خامتها ونسيجها » تبـدو وكأنهـا جـديدة تماما ، ويحضرنى فى هـذا المقام بيت شوقى وهـو يصف محاكمة « عمر المختار » :

وأتى الأسير يجر ثقل حـديده أسـد يجرر حيـة رقطاء(٨٧)

فتشبيه البطل بالأسـد ورد فى الأدب العربى ـ وخصوصا الشعر ـ مئات المرات ، ومن ثم أصبح مستهلكا لا يهز مشاعر القارىء ، ولا يلفت نظره . أما تشبيه البطل وهـو يجر قيوده التى تعض يديه ورجليه بأسـد يجرر حية رقطاء فصورة أو « تركيبة تصويرية » تنم على خيال بارع ، وابداع رائع بهـذه « الاضافة » البسيطة التى أعطت للصورة بعـدا جـديدا وطعما جـديدا .

كذلك يجب أن تكون الصورة **متسقة الأجزاء متوازنة العناصر** فـلا تناقض جزئية أخرى ، أو يتعارض عنصر مع عنصر آخر . هـذا فى نطاق الصورة الواحـدة ، فاذا كانت القصـيدة من صـور متعـددة فيجب أن يتحقق لهـا هـذا الاتساق وذاك التوازن لأنها جميعا تمثل أجزاء وعناصر فى معمار واحـد . وهـذه الوحـدة الفنية أو التصويرية بالاضافة الى الوحـدة الفكرية أو الموضوعية ، وبالاضافة كذلك الى الوحـدة الشعورية ... كل أولئك يمثل **وحـدة عضوية شاملة** تجعل من القصيدة بنية حيـة متكاملة متناسقة .

وأخيرا يجب أن تبرأ الصورة من **الاغراق فى المبالغة** لأن هـذا الاغراق يعـد تزييفا للشعور ، وانسلاخا من الصـدق الفنى ، ومن أشـهر نماذج الاغراق فى المبالغة قـول المتنبى متحـدثا عن اثر الحب فيه :

---

(٨٧) الشوقيات ٣/١٩ .

روح تردد فى مثل الخـــلال اذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولا أننى رجل لــولا مخاطبتى اياك لم ترنى(٨٨)

فصورة المحب هنا وقــد اضناه الحب واضواه ، وبرى جسده وأنحله حتى لا يرى الا اذا صــدر منه صوت .. هــذه الصورة المغرقة فى الخيال تثير — ولا شك — الضحك والسخرية ، لأنها تزييف للشعور يقودنا الى حقيقة مؤداها انه لا حب ولا محب .

ولانقاد كلام كثير فى هــذه الشرائط وتلك السمات لا يتسع المقــام لتفصيلها ومناقشتها ، ولكن السؤال الذى بلح بعــد هــذه التوطئة وذاك البيان هــو : **ما أبعاد الصورة الشعرية ، وما ألوانها ومكانها فى شــــعر عبد الرحيم محمود ؟**

* * *

خيــال عفــوى :

خيال عبد الرحيم — بصفة عامة — خيال قريب ، برىء من الاسراف والشطط . اذا حلق فى سماء قريبة منا ، فهو لا يسرف على نفسه فى التحليق والتهــويم ، ولا يبعــد بحثا عن الصور الشاردة ، ومن ثم يحس القارىء أن بينه وبين هــذا الخيال الفة وقربة وكأنه لم يفارق الواقع كثيرا .

وصوره لا تكلف فيها ولا تصنع ولا تعمد للزخرفة والتزيين حرصا على « التشكيل الفنى الراقى » ، بل هــو يسير سيرا عفويا بريئته ، وهــذه العفوية التصويرية واضحة بصفة خاصة فى المرحلة الأولى من مسيرته الفنية.

خيــال تقليــدى :

والشاعر — فى هــذه المرحلة الأولى — بصفة خاصة — كان يعتمد بصفة أساسية فى تشكيل صوره على ذخيرته من الأدب القــديم يستمد عناصره

---

(٨٨) ديوان المتنبى ٣١٨/٤ .

التصويرية منه به يضمن شعره ــ كما رأينا ــ كثيرا من صور الشعر القديم ، وقل أن نجــد له فى هــذه المرحلة صورة مبتكرة تبرز فيها شخصيته الفنية . وذلك واضح فى قصــائده الأولى التى نظمها ســنة ١٩٣٥(٨٩) ولننظر الى قصيدته المشهورة « نجم السعود »(٩٠) لنرى أن كل صورها تقليدية مسبوقة . ومنها على سبيل التمثيل (مخاطبا الأمير سعود) .

سهلا وطئت ولو نزلت بممحل ... يوما لأمرع من نزولك بلقعــه
وغــدا وما أدناه لا يبقى سوى ... دمــع لذا يهمى وسن نقرعه

ففى البيت الأول كناية عن اليمن والتفاؤل بنزول الأمير .

وفى البيت الثانى كناية عن الحزن والأسى والندم . وكلها صور جزئية تقليدية مكرورة آلاف المرات فى الأدب العربى .

وقــد مر بنا فى حــديثنا عن **بصمات التاثر والتقليد** عند الشاعر كيف احتذى كثيرا من الصور القــديمة للشعراء المشاهير فى الجاهلية والعصور الاسلامية . كما يغلب على خيال هــذه المرحلة أنه **خيــال جزئى تفسيرى** يعتمد ــ اكثر ما يعتمد على الألوان البيانية وخصوصا الاستعارة والكناية . وان كنا لانعــدم فى هــذه المرحلة بعض الصور الممتدة كصورة الفــدائى المناضــل وقــد سقط فى ميدان القتــال وهــو يودع ارض الدنيا الى سماء الشــهادة :

يلذ لأننى سماع الصــليل ... ويبهج نفسى مســيل الدمــا
وجسم تجدل فى الصحصحان ... تناوشــه جارحات الفــلا
فمنــه نصيب لطــير السماء ... ومنه نصيب لأســد الشرى
كسا دمه الأرض بالأرجــوان ... واثقــل بالعطر ريح الصــبا
وعفــر منــه بهى الجبين ... ولكن عفــارا يزيد البهــا

---

(٨٩) ذكرنا من قبل استبعادنا أن تكون سنة ١٩٣٥ هى البداية الفنية للشاعر وذكرنا أسباب هــذا الاستبعاد .

(٩٠) الديوان ١٢٥ .

وبان على شفتيه ابتسام معانيه هزء بهذى الدنى
ونام ليحلم حلم الخلود ويهنأ فيه بأحلى الرؤى(٩١)

انه مشهد متكامل يرسم ملامح « البطل » فى هذه اللحظات التى سيلج بعدها عالم الخلود بعد أن أدى ضريبة هذا الخلود دما وجسدا تقاسمته جوارح الطير وكواسر الأسود . وهذا المشهد البارع يشد منا حواسنا كلها على وجه التقريب : ففيه صوت الصليل الذى يلذ لأذن البطل . وفيه الحركة السريعة التى تناسب جو المعركة وذلك فى « تناوش جارحات الفلا » . وفيه الحركة أو الحركات البطيئة التى توافق جو الرضا مثل حركة الابتسام .. وحركة النوم والحلم ، والحركة الفعلية أو المادية الحسية هنا متوافقة متناسقة مع الحركة النفسيه التى **أطر** بها هذه الصورة الممتدة ما بين بهجة النفس بمسيل الدماء والهناءة بأحلام الخلود فى العالم العلوى . أما اللون ففى الدماء والأرجوان والعفار . وحاسة الشم مشدودة كذلك بذلك العطر الذى يثقل ريح الصبا . كما أن الشاعر جسد هذا الرضى النفسى الذى تفيض به نفس الشهيد فى ذلك الابتسام الذى بان على شفتيه يحمل ــ زيادة على الرضا والسعادة بهذه النهاية ــ « الهزء بهذى الدنى » .

دائرة المحسوسات :

والشاعر فى تشبيهاته لا يجاوز دائرة المحسوسات ، فهو يشبه المحسوس بالمحسوس ، وهو لا يكاد يجاوز هذه الدائرة فى تشبيهاته . ونجتزىء عن عشرات الأمثلة بمثال واحد من قصيدته « بينى وبين قلبى »(٩٢) .

وقلبها كالريشة الحائرة تنأى على ريح وتدنو بريح
تبيع للسانح كالتاجرة وتنثنى تطلب بيع البريح
بل هى عندى زهرة ناضرة وكل ما فيها جميل مريح

* * *

(٩١) الديوان ١٣١ .
(٩٢) الديوان ١٧٩ .

التجسيم والتشخيص(٩٣) :

للتجسيم هـــدف يتعلق بالمعنى لأنه يجعل المعنوى غير المحسوس محسوسا يدرك بحاسة من الحواس الخمسة ، وغالبا ما تشترك اكثر من حاسة فى ادراك هـــذا المعنوى الذى صـــار محسوسا بالتجسيم . وهـــذا يجعل المعنوى أقـــوى حضورا كما يجعل احساسنا بوجوده أقـــوى . والشىء بالتشخيص يصبح بعـــد « جموده » أو غيابه عن الحواس حيا ذا نبض ونفس وحركة مما يجعل الصورة أقوى ايحاء وأقـــدر على هـــز المشاعر والتأثير فى الوجـــدان .

ومن أمثلة التجسيم عند الشاعر : تجسيم **العـــــلا** فاذا هى نصب يبنى ، وتجسيم **الحقـــوق** كأنها شىء مملوك يسترد بعـــد أن سلب ، وتجسيم **الجهـــاد** فى صورة نار متسعرة ، وتجسيم **الأمانى** فى هيئة معمار :

وأقم على الأشلاء صرحك انما ... من فوقـــه تبنى العـــلا وتقام
وأغصب حقوقك قط لا تستجدها ... ان الأولى سلبوا الحقوق لئام(٩٤)
وتذيب فى نـــار الجهـــــاد ... د وحرها عنا الصـــــفائد(٩٥)
ان تجـــد باب الأمانى مغلقـــا ... لا تكثر أو تلم من سكره(٩٦)

* * *

---

(٩٣) يقصد بالتجسيم ابراز المعنوى فى صورة حسية ، كقولنا « تحطم اليـأس على صخرة الأمل » . اما التشخيص فيعنى منح المـادى الجماد صفات وملامـــــح انسانية كقولنا « تتحـدث الأهرام بعظمة من بناها » . وقـد يجتمع التجسيم أو التجسيد والتشخيص فى عبارة واحـدة ، وذلك بابراز المعنوى فى صورة حسية انسانية ، كقولنا : « تنفس الصبح » وقـولنا « انتصر الايمان على الكفر » .

(٩٤) الديوان ١٤٣ .
(٩٥) الديوان ١٥٦ .
(٩٦) الديوان ١٦٠ .

ومن أمثلة التشخيص قول عبد الرحيم :

فرح الكون حيث لاحت على الده ر وريعت ممردات القصور(٩٧)
دعا الوطن النبيح الى الجهـاد فطار لفرط فرحته فـؤادى(٩٨)

* * *

وكثيرا ما يجمع الشاعر بين التجسيم والتشخيص ، فيبرز المعنوى فى صورة حسية مشخصة ، فهو يجسم الموت ويشخصه فى قوله :

حبـك السل لقـد أوديـا بهيبـة الموت الوقـور المهيب(٩٩)

وظاهرة التشخيص فيما سبق لا تكاد تخلو منها قصيدة من القصائد فى أبيـات مفردة فى تضاعيف القصيدة ، ولكن الشاعر فى قصيدته **حجـر فى كثبان رمل** »(١٠٠) يبلغ مقاما عاليا من الشفافية والوجـد الفنى ، فتشف رؤيته الشعرية ، وتذوب مشاعره ونبضاته وبصيرته فى ذلك الحجر المنفرد بلا أنيس فى القفر المخيف والحر الحارق ، وهـو فى صمته جلد صبور يعيش وحـدة الراهب وعزلة الفيلسوف . ويتدرج الشاعر فى حـديثه الى الحجر ، ويطيل فى هـذا الحـديث ، كأنما يقصد الى ذلك قصدا ليذهب الوحشة عن هـذا الثاوى فى الصحراء بلا أنيس فى هـذا القفر المخيف ، أو ليذهب عن ذاته هـو هـذه الوحشة بالحـديث الى رفيق ولو كان حجرا . وتتوالى اسئلة الشاعر على هـذا الحجر الرهيب الفيلسوف :

فيـم انفـرادك لا أنيـ س تراه فى القفر المخيـف ؟
هـل كنت يوما فى القصـو ر وعفت ضافيـة القصـور ؟
هـل كنت قـط مجنـة من كيـد باغ ظـالم ؟

---

(٩٧) الديوان ١٤٥ .

(٩٨) الديوان ١٤٧ .

(٩٩) الديوان ١٦١ .

(١٠٠) الديوان : ١٦٦ .

وفى النهاية يصل الشاعر الى التجاوب والالتقاء النفسى الصادق مع هذا الحجر الوحيد ، فقد جمعت بينهما الوحدة والعزلة :

انت الوحيد هنا وما لى لا أقول انا الوحيد

وتكاد ظاهرتا التجسيم والتشخيص تطردان فى شعر عبد الرحيم فى المرحلة الثانية من مسيرته الفنية بصفة خاصة .

بين النفس والطبيعة :

وترتبط بالسمة التصويرية السابقة سمة فنية تصويرية اخرى هى « المزج بين النفس والطبيعة » . وهى سمة توسع فيها الرومانسيون الذين هاموا بالطبيعة ، وفزعوا الى أحضانها يستلهمونها ، ويستوحونها أسرارها ، ليكون أدبهم صدى للشعور الصادق بما يتجلى لاحساسهم من مناظرها(١٠١) .

ولم نقع للشاعر على قصيدة مستقلة فى وصف مشهد من مشاهد الطبيعة انما أتى ذلك عرضا فى قصائد الأغراض الأخرى فى أبيات معدودات لم تعدم هذه السمة ... سمة « المزج بين النفس والطبيعة » . ففى قصيدة « **روض وانى عندليبه** »(١٠٢) يستلهم الشاعر الروض معانيه وألحانه ، فيقول عن « روضه » الذى انطلق فيه « عندليبا » :

لى كل يوم فيه شعر سائر شتى ضروبه
ويرن فى جنباته من لحنى الموحى طروبه
نور قبست قصائدى منه فشاع بها لهيبه

ولكن الشاعر فى هذه الظاهرة التصويرية القليلة فى شعره كان أبرع وأقدر حين مزج بين مشاهد الطبيعة وبين الشباب : فنا وكفاحا ونضالا ، وكان بارعا كذلك حين أبرز فى تصوير رومانسى بارع أن الحاضر بهذه الصفة هو عنوان الغد الجليل المنتصر :

---

(١٠١) أنظر د. محمد غنيمى هلال : الرومانتيكية ١٦ ، ١٢٢ ـ ١٤٢ .

(١٠٢) جرار : شاعران من جبل النار ٢٩٩ .

خذوا ريشة الفن خطوا بهـا ... سهول البـلاد ووديانهـا
من العرق العـذب رووا السهول ... وروض البـلاد وبستانهـا
من الدم رشوا رءوس الجبـال ... وهـام الرواسى وكثبانهـا
هـو « الغـد » لوحتكم يا شباب ... فخطـوا من العـزم عنوانهـا
غـد لوحـة بين أبديكمـو ... فـلا تسلموا الأمر عميانهـا(١٠٣)

* * *

المفـارقة التصـويرية :

وهى ملمح تصويرى كثير الورود فى شعر عبد الرحيم فى مرحلته الثانية ، وفى شعره الاجتماعى بصفة خاصة . والمفارقة تعنى — فى ايجاز — وضـع الصورة وجها لوجـه أمام نقيضتها حتى يظهر الفـارق الشاسـع بينهما ، فبضـدها تتميز الأشياء . وقصيدة« **يا عامل** »(١٠٤) تعتبر من أحفل قصائده بهـذه الظاهرة ومنها الأبيات التالية :

يـا عـامل

هـذى القصـور وأنت را ... فـع سمكها هـل هـن لك ؟
والـدوح أنت زرعتـه ... من حـولها هـل ظـلك ؟
والنـور فى يدك الصـنا ... ع فما حيـاتك فى الحـلك ؟
الحسن أنت خلقتـه ... لـكن سـواك لـه مـلك .

فالشاعر يوقفنا على صورتين متناقضتين : صورة العامل .. ذلك الانسان المضنى المعنى ، وصورة المستغل الناهب . الأول يبنى ، والثانى يسكن ويستقر . الأول يزرع ، والثانى يحصـد ويأكل . الأول يفجر النور والثروة ، والثانى يحتجـن كل ذلك لنفسـه . الأول يشـقى ويعيش على الحرمان ، والثانى لا يبذل من عرقه حبة ، ولا من جهده قطرة ، ومع ذلك فله كل شىء ... نعم .. كل شىء .

---

(١٠٣) جرار : السابق ٢٩٨ .

(١٠٤) الديوان ١٥٥ .

وهـــذه المواجهة بين هـــذه وتلك تمثل محاكمة واتهاما صارخا يدين هـــذا الظلم الفادح الذى يناقض طبيعة الوجود وناموس الحياة الذى يقرر أن من زرع حصـــد ، وأن الجزاء من جنس العمل .

وقـــد طرح الشاعر هـــذه المفارقة بصورة أوضح فى قصيدته الطويلة : « **الى العمال** »(١٠٥) وفيها يقول :

وما الحق فى أن يأكل الجنى قاعد ... ويحرمه يـــوم الحصادة باذره
ايعمر ذو الاجهـــاد قصرا ممردا ... ولا يسكن القصر الممـــرد عامره ؟
أيحمل وزر الناس من عف مطعما ... لينجو من وزر على الدهر وازره ؟

* * *

وتكون هـــذه « المفارقة التصويرية » أعمق ابعادا ، وأقوى ايحاء حين يتوهج وجـــدان الشاعر ، فيخلع نفسه من مجتمع يتمرد هـــو على أوضاعه الغالطة ليعيش مأساة « الحمال » الذى قضى فى سوق « حسبة الخضر » فى حيفا ، وبجانبه حبله وسلته ، والناس يمرون به دون أن يلتفت اليه أحـــد . هـــذا الحمال بثوبه الرث الخلق ، وجسده الخامد اليابس ، وصمته الرهيب ، كل أولئـــك جعـــل من الشاعر انسانا ناقما رافضا لأوضاع هـــذا المجتمع الظالم رفض كاره ناقم ثائر حتى أنه ليغلق نفسه عن كل مظهر من مظاهر الجمال والرفاهية فى دنيا الناس . يقول الشاعر مخاطبا هـــذا الحمال الذى قضى دون أن يهتم به أحـــد :

يا موقظ النقمة فى أضـــلعى ... بشعت فى عينى الجمـــال العجيب
لثوبك الرث واخـــلاقه ... كرهت اثواب الحرير القشيب
والجسد الجامد فى يبســـه ... كره لى الغصن الطرى الرطيب
وصمتـــك الرائع يا موحشى ... بغض لى الصوت الحنون الطروب(١٠٦)

---

(١٠٥) جرار السابق ٢٩٤ .

(١٠٦) الديوان ١٦٢ .

ان المفارقة التصويرية هنا عناصرها النفسية أو فى من عناصرها الظاهرة المشهودة ، ولكنها تنتهى بنا الى المقابلة بين من يموتون فى صمت وهـــدوء ضحية للظلم الاجتماعى وبين هؤلاء الذين يتفيئون جمال الحياة وسحرها ، ويلبسون الحرير القشيب ، ويتمتعون بطراوة الحياة ، ويشنفون أسماعهم بكل صوت حنون طروب . انهم هؤلاء الذين أجـــدبت قلوبهم من الرحمـــة فكانت المـــأساة التى وقعت وتتكرر ما قام للظلم قائمة ، وبقى المجتمع ما بين طاحن ومطحون ، وآكل ومأكول ، وناهب منهوب .

وقـــد لا تكون المفارقة التصويرية فى قصيدة كاملة ـــ كما رأينا فيما سبق ـــ بل تكون فى البيت والبيتين كما نرى فى البيتين الآتيين :

متى أرى الحـــق وأصـــــحابه يعلون من ادنى الى شـــاهق
وابصر الشر وأربـــــابه يهوون من أعلى الى ســـاحق(١٠٧)

* * *

التصـــوير القصصى :

والمقصود بالتصوير القصصى ما يتوفر فى شعر الشاعر من عناصر قصصية مثل السرد والحوار والتشخيص(١٠٨) وغير ذلك من العناصر والطوابع القصصية التى أفاد منها الشعر الحـــديث على نطاق واسع .

والقصيدة القصصية غير القصة الشعرية فالأولى قصيدة لا تخلو من عناصر قصصية ، أما الثانية فهى عمل قصصى متكامل يتوفر له كل عناصر القصة النثرية ، زيادة على ما يتمتع به الشعر من موسيقا وخيال بديع .

والعنصر القصصى فى الشعر يتوافر فيه الايحاء ، وتكتسب به العواطف الذاتيـــة مظهر الموضوعية ، ثم أن العنصر القصصى لا يتفـــق بطبيعته مـــع

---

(١٠٧) الديوان ١٦٣ .

(١٠٨) المقصود بالتشخيص هنا فن رسم الشخصيات .

« النغمة الخطابية التى قد توجد فى الشعر الغنائى غير القصصى ، فتضعف من قوته . هذا الى أن الشعر الوجدانى متى كان ذا طابع قصصى كانت الوحدة العضوية فيه أظهر ، وبدا متماسكا لا تستقل أبياته كما كانت فى الشعر القديم »(١٠٩) .

والتصوير القصصي ملحوظ فى بعض قصائد عبد الرحيم فى مرحلته الفنية الثانية ، وهو ليس كثيرا فى شعره ، ولكنه ملحوظ على أية حال . والاتجاه القصصى فى الشعر يعد أثرا من آثار التجديد كثر عند شعراء أبولو وشعراء المهجر ، وكان لخليل مطران القدح المعلى فى هذا المجال .

والتصوير القصصى عند عبد الرحيم ينعكس فى شكلين : المقطوعة القصصية والقصيدة القصصية :

والشكل الأول يتمثل فى مشهد يراه الراوية رأى العين ويحكيه ثم ينتهى منه الى حكم مكثف فى صورة استفهام استنكارى صارخ كأنه « لحظة التنوير » فى الأقصوصة . أو « القرار الحاسم » فى المسرحية .

وفى المشهد التالى ــ وهو احد هذه المشاهد ــ يوظف الشاعر هذا الأسلوب القصصى فى النقد الاجتماعى والسياسى ، فهو يبرز جناية **الزعماء الجوف** على الأمة ، وكيف يضحون بها وبقيمها فى سبيل الزعامة والجاه والسلطان :

رايت يوما للخطابات زعيما قائما
قد جمع الناس لكى يسمعهم شتائما
وصب فى آذانهم من عنده مزاعما
وراح يهوى معولا للكرامات هادما
أيقظ فيهم فتنة هيج حقدا نائما
وبث فى نفوسهم من نفسه سخائما
وقسم الناس لدى خوض الوغى قسائما

---

(١٠٩) د. غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ٤٥٥ .

ولم يبـــال ان يمـــوتوا كـــى يظـــل ســـالمـا
فقـــلت ختـــام ســـيبقى الشعب أعمى هائمـــا ؟(١١٠)

أما الشكل الثانى فهو « القصيدة القصصية » ومثالها فى شعر عبد الرحيم قصيدته « **أحاجى فى ذكرى وعـــد بلفور** »(١١١) ، وهى قصيدة طويلة من اثنين وسبعين بيتا ألقاها فى فندق فلسطين سنة ١٩٤٧ . وهى تتكون من مقطوعات كل مقطوعة تصور أبعاد شخصية من الشخصيات التى كان لهـــا دور ايجابى فاعـــل فى مأساة فلسطين دون أن يصرح بالشخصية ، بل يلبسها الشـــاعر قناعا رمزيا روائيا ، ويجعل ذلك على هيئة « أحجية » يحلها احـــد الطلاب . ففى هـــذه المطولة نلتقى بالشخصيات الرمزية الآتية :

- **البخيل** الذى يجود بما لا يملك ، ويعنى الشاعر به الانجليز .
- **المعوز** الذى لا يملك الا كسرات من الخبز ، ويعنى به شعب فلسطين .
- **الكسيح المقعد** ويعنى به الرئيس روزفلت .
- **الصاعدون على اكتاف الناس** ، ويعنى بهم الزعماء النفعيين .

ويرمز بأبيات الى **الثورة** ، وبأبيات أخرى الى **صندوق الأمة** .

ولنقرأ هـــذه الأبيات التى تصور شخصية الزعيم النفعى ، وكيف صعد على اكتاف الشعب المحروم لتحقيق مآربه الخاصة . وصور الشاعر الشعب فى صورة محروم يمشى فى بستان ، ولا يستطيع أن يجنى ثمرة واحدة من أية شجرة ، لأن أشجار الروض كانت أعلى من قامته ، فاضطر أن يحمل على هامته فتى آملا أن يقطف له ما يحتاج اليـــه من ثمـــار . ولكن هـــذا « الراكب » لم يحقق طلبـــــة هـــذا المحروم . ليس هـــذا فحسب ، بل استطاب هامة هـــذا المحروم وظهره ، فرفض النزول عن « هـــذا المركب الوثير » . يقول عبد الرحيم :

---

(١١٠) جرار السابق ٢٥٤ .

(١١١) جرار السابق ٢٥٦ .

ومشى المحروم فى روض المنى ... واشتهى لو نال من بعض الثمار
كلما مد يدا يجنى انثنت ... يده ملأى بفرم وخسار
قال : فلأصعد على هامى فتى ... يقرب القاصى ويحمى لى ذمارى
فامتطى ذاك الفتى أكتافه ... واستوى مثل مليك فى اغترار
واستطاب القعدة العليا فلم ... يجن شيئا غير صيت واشتهار
قال فانزل أنت لم تجن جنى ... ولقد طال اصطبارى وانتظارى
لا أرى لى فيك جدوى انما ... أنت مضاغ كلام وفخار
فأبى الراكب أن ينزل عن ... عرشه وهو كما تعلم عار
من ترى يعرف هذا ؟ لكلكم ... عالم بعض الذى أعنى ودار
يحكم الأمة من أسياده ... حسب ما يؤمر يمشى ويجارى
ايها القوم وهذى قصة ... وبها وجه لفكر واعتبار
فسروها مثلما شئتم ولا ... تسالونى،واقبلوا منى اعتذارى(١١٢)

والشاعر كذلك يستعير فى تصويره عنصرا روائيا آخر هو عنصر الحوار الذى نلتقى به فى تضاعيف بعض القصائد . وخصوصا قصائد الغزل وقد يطغى هذا الحوار على قصيدة كاملة فيستغرق أغلبها مثل قصيدة « **مخلوقة أنت** »(١١٣) ، وهذا ما سنقف عنده فى الصفحات التالية ... فى سياق حديثنا عن ألفاظه وأدائه التعبيرى .

---

(١١٢) جرار : السابق ٢٥٩ .

(١١٣) الديوان ١٧٦ .

اللغـــة والأداء التعبيرى

اذا كان العمل الأدبى ـــ بعامة ـــ يتوقف على الدقـــة فى الصياغة ، فان أولى مميزات الشعر هى استثمار خصائص اللغـــة بوصفها مادة بنائه . فعلاقة تجربة الشاعر بلغته أوثق وأهم من علاقة تجربة القاص أو مؤلف المسرحية فى العصر الحـــديث . وذلك أن الشاعر يعتمد على ما فى قـــــوة التعبير من ايحاء بالمعانى فى لغته التصويرية الخاصة به . وفى لغـــة الشعر يخضع التعبير لقوانين اللغة العامة ، ولكنه يفيد مع ذلك من اعتماده على دلالات القرائن ، وما يمكن أن تضيفه هـــذه الدلالات على التصوير عن طريق موسيقية التعبير ، وموقعه ، وتآزر كلماته وأثر ذلك كله فى التصوير(١١٤) .

والألفاظ فى العمل الأدبى يجب أن تكون حية نابضة ذات نظام ونسق « يسمح لها بأن تشع اكبر شحنها من الصور والظلال والايقاع ، وأن تتناسق ظلالها وايقاعاتها مع الجـــو الشعورى الذى تريد أن ترسمه ، وألا يقف بهـــا الأديب عند الدلالة المعنوية الذهنية ... فوصول اللفظ الى الحالة التجريدية معناه أنه مات وأصبح رمزا فحسب ، والأديب الموهوب هـــو الذى يرد عليه حياته فيجعله يشع صورة وظلا ، ويرسم حالة ومشهدا(١١٥) .

واذا كانت هـــذه هى قيمة الكلمة فى العمل الأدبى ـــ بصفة عامة ـــ فانها فى الشعر ـــ بصفة خاصة ـــ يجب أن تكون أقوى دلالة ، وأكثر ايحاء واشعاعا اذا ما توفرت لهـــا الشرائط السابقة ، وأخـــذت مكانها الذى خلقت لـــه فى البناء الشعرى . لذلك يفقد الشعر ـــ كما يرى اليوت ـــ كثيرا جـــدا من روائه وروحه بالترجمة ، بعكس النثر الفنى الذى لا يفقد بالترجمة الا قـــدرا قليلا من جماله ، أما الانتاج العلمى فلا يكاد يفقد بالترجمة شـــيئا يذكر من قيمته(١١٦) .

---

(١١٤) د٠ غنيمى هلال : النقـد الأدبى الحـديث ٤٠٩ ٠

(١١٥) سيد قطب : النقـد الأدبى : أصوله ومناهجه ٤٣ ٠

(١١٦) انظر T. S. Eliot : On Poetry and Poets P. 18 — 19.

والشاعر العبقرى المطبـــوع هـــو الذى لا تكون الكلمات عنده مجرد وسيلة أداء وتعبير فقط ، بل تكون الكلمات ذات كيان خاص لخلق ما يتجاوز المدلول اللغوى . يقول سارتر « أما الشاعر فانه بعـــد أن يصب عواطفه فى شعره ينقطع عهده بمعرفتها ، اذ تكون الكلمات قد سيطرت عليها ، ونفذت خلالها ، والبستها أثوابا مجازية ، فلم تعـــد الكلمات تدل عليها حتى فى نظر الشاعر نفسه ، فقـــد أصبح الانفعال شيئا له كثافـــة الأشياء ، وبدت عليه مسحة الغمـــوض ، اذ اكتسب الخصائص الغامضـــة للألفـــاظ التى صـــار حبيســـها »(١١٧) .

* * *

والظاهرة اللافتـــه للنظر فى شـــعر عبد الرحيم محمود **هى التفـــاوت الصارخ ، وهـــو تفاوت شامل فى التصوير والتعبير والوجـــدان** حتى يخيل لقارئه أنه أمام شاعرين أو شعراء مختلفين فى المستوى الفنى . ويرجـــع اختلاف المستوى الفنى للشاعر ـــ أى شاعر ـــ الى مجموعة متشابكة من الأسباب منها موقفه النفسى ومدى تفاعله وتوهج وجدانه واستجابته لموضوعه وتطور تجاربه ونموه الثقافى وثراء معجمه الشعرى . وقـــد رأينا من قبـــل كيف أن شعره فى المرحلة الثانية (سنة ١٩٣٩ وما بعـــدها) انضج بكثير من شعره فى المرحلة الأولى .

ومن أهم ملامحه فى أدائه التعبيرى حرصه على الكلمة العربية الأصيلة والقوالب المـــأثورة ، وكان فى شعر المرحلة الأولى بصفة خاصة يضمن شعره كثيرا من العبارات والألفاظ القرآنية وأساليب الشعر العربى وصوره . وهو أحرص على اللفظ العربى الأصيل فى شعر الحماسة بصفة خاصة ، واعنى به الشعر الوطنى والشعر القومى ، وما كان فخرا بالأمجاد العربية والاســـلامية الأولى ، وما كان استنهاضا للهمم ، واثارة للعزائم ، حتى أن القارىء ليشعر أنه أمام فحولة المتنبى ، وجزالة بشار ، وجلال ابى فراس الحمدانى . كما نرى فى قصيدته « **ذكرى الزمان** »(١١٨) وفيها يقول :

---

(١١٧) سارتر : ما الأدب ١٦ .

(١١٨) ديوان عبد الرحيم ١٣٧ .

غضبة للحق كانت حبذا ... عيشة المرء مخوف الغضبات
هبة للثأر كانت اننا ... لذوو بطش شديدو الفتكات
لم نطق خسفا ولم نصبر على ... عيشة الذل ولا كبر العداة
نحن اذللنا الوجودا ... نحن للكبر مثل
واذا رمت شهودا ... فسل التاريخ سل

غضبة للحق ــ هبة للثأر ــ لم نطق خسفا ــ البطش ــ الفتكات ... كلها كلمات وقوالب تسبح فى جو الأنفة العربية الموروثة بما فيها من قوة وجزالة وجرس قوى قارع .

وفى قصائد للشاعر تأخذ الكلمات مكانها المناسب فى السياق بحيث تعطى .. بل تفرغ فى سياقها ما فيها من ايحاء ، وكثيرا ما يلعب جرس الكلمة دورا كبيرا فى اشاعة الجو المطلوب كما نرى فى الأبيات التالية :

اذا رق احساسنا فى الوجود ... واضحت نفوس لنا شاعره
اذا ما صهرنا قيود العبيد ... بنار من القوة القاهره
اذا ما نعمنا بلقيا المنى ... وقرت رغاب لنا حائره
اذا كان هذا فثمة عيد ... وتلك مظاهره الساحره

فالكلمات فى البيت الأول هامسة بجرسها ، وترية الوقع ، فيها رقة ووضوح تسبح فى جو رقيق صاف حالم ، والأمر كذلك فى البيت الثالث . اما البيت الثانى فكل ما فيه يوحى بالقوة والعنف : الصهر ــ القيود ــ النار ــ القهر . وجرس الكلمات هنا جرس نحاسى صاخ ، زاده قوة توالى « القافات » فى البيت : قيود ــ قوة ــ قاهرة . وواضح أن جرس القافات هنا عكس جرسها فى « رق » فى البيت الأول ، و « لقيا » فى البيت الثالث .

* * *

ومن الملاحظ اللافته للنظر أن الشاعر **كثير الاستعمال للأساليب الانشائية** ، بل ان الأساليب الانشائية قد تستغرق أغلب القصيدة وخصوصا

---

(١١٩) الديوان ١٥٩ .

ما كان منها طلبيا . ويكثر استعماله هـــذه الأساليب فى حالة ارتفاع درجة انفعال الشاعر وتوهج عاطفته ، وأكثر ما يستعمله أفعـــال الأمر والنهى . ولنقطر الى قصيدة واحـــدة هى قصيدة « **يا حيـــاتى** »(١٢٠) وهى قصيدة من أربعة عشر بيتا ، وقـــد استعمل فيها الشاعر أربعة عشر من هـــذه الأفعال وهى على الترتيب :

[انظرى ــ اجعلى ــ أغمزينى ــ ابسمى ــ دعى ــ لا تناســـينى ــ افرضينى ــ انظرى ــ اتركينى ــ اجتلى ــ انظرى ــ أغرزى ــ اذبحينى ــ ادفنينى] . وكثرة من هـــذه الأفعال تطرد فى كثير من قصائده .

وأعتقد أن هـــذه السمة الفنية انما هى انعكاس لطبيعـــة الشـــاعر النفسية ... طبيعه الرجل العسكرى ، والمعلم الموجه ، وكلاهما وجهـــان أو جانبان لشخصية تؤمن بوجودها وحقها فى « اصدار » التوجيه والارشاد .

ويقول نافع عبد الله(١٢١) « ويخيل الينا انه (عبد الرحيم) كان يحاول ايجاد التعادل بين عـــدد الأفعـــال الواقعة فى القصيدة الواحـــدة ، وبخاصة بين الفعلين المـــاضى والمضارع ، فهنـــاك ما لا يقـــل عن احـــدى عشرة قصيدة فى ديوانه يتقارب عـــدد الأفعال المـــاضية فيها من الأفعال المضارعة وتتراوح النسب بينها على نحـــو قريب ، كأن تكون مثلا ١٦ ــ ١٧ (وعـــد بلفـــور) ، أو ١٨ ــ ١٥ (شعب فلسطين) أو ٦ ــ ٧ (الى كل متهاود)

وهو استنتاج غالط من وجهة نظرى :

١ ــ لأن الشاعر الذى يتعمد ذلك لا يكون شاعرا ، وما ينظم اعتمادا على ذلك لا يكون شعرا .

٢ ــ وليس هناك أيه قيمة فنية لتحقيق هـــذا التناسب او التقـــارب بين عـــدد هـــذه الأفعال .

---

(١٢٠) السابق ١٧٠ .

(١٢١) نافع : الشاعر عبد الرحيم محمود ١٠٨ .

٣ — والكاتب لم يكن دقيقا فى هـذا الاحصاء . فاذا ما نظرنا الى قصيدة « الى كل متهاود »(١٢٢) وجـدنا فيها ٤ أفعال ماضيه — ٦ أفعال مضارعه ، وفعل أمر واحـدا . والخطأ أفـدح فى احصاء الأفعال فى قصيدة « شـعب فلسطين » ففيها : ٢٧ فعلا ماضيا — ١٥ فعلا مضارعا — فعلا أمر . على أن الفعل المضارع المنفى بلم يدل على النفى فى المـاضى وفى هـذه الحال يجب أن يحصى ضمن الأفعال المـاضية ، وفى القصيدة ثلاثة أفعال منفية بلم فتكون الأفعال الدالة على المـاضى ٣٠ فعلا والدالة على المضارع ١٢ فعلا . والفرق واضح بين هـذه الاحصائية واحصائية نافع السابقة .

* * *

والشـاعر يكثر من اسـتعمال التضـاد من طبـاقات ومقـابلات وهـو يستعمل هـذا اللون البديعى استعمالا ناجحا دون تكلف أو تصيد . وقـد وفينا هـذه السمة حقها فى سياق حـديثنا عن « المفارقة التصويرية » فى شعره ، فالمعروف أن المفارقة التصويرية تعتمد على أسلوب التضاد .

* * *

ويستخدم الشاعر فى بعض قصائده **اسلوب الحوار** ، والحوار عنده يأتى من ناحيتى الكم والكيف على مستويات متعـددة على النحو التالى :

١ — فقد يكون فى أبيات قايلة من قصيدة طويلة ، كذلك الحوار الداخلى فى آخر قصيدة « **الشهيد** »(١٢٣) .

٢ — وقد يستغرق القصيدة كلها كما نرى فى قصيدة «**مخلوقة أنت**»(١٢٤)

٣ — ومنه الحوار الخارجى كالقصيدة السـابقة ، وهـو ما يسمى

---

(١٢٢) السـابق ١٢٩ .

(١٢٣) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

(١٢٤) السـابق ١٧٦ .

« بالديالوج » . ومنه الحوار الداخلى أو « المونولوج » كقصيدة « **بينى وبين قلبى** »(١٢٥) .

يلاحظ أن أغلب حوار الشاعر يأتى فى القصائد الغزلية وكان موفقا فى بعضه ، ولكن قصيدته الحـــوارية « **نجوى المحتضرة** »(١٢٦) دون المستوى الفنى بكثير .

* * *

ومن المـآخـذ التى تسجل على لغة الشاعر وأدائه التعبيرى :

١ ــ هبوط اسلوبه وتهافته احيانا حتى يكاد يكون أسلوبا عاميـا . ومن الشواهد على ذلك :

يعـــلو عليـــك واو ... وأنت منـــه دون
واغمزينى فلقـد طـــا ... ل انتظـــارى غمـــزاتك
قابلى الحسنى بعطـــف ... هـكذا تقضى المحبـــة
ان تجـد باب الأمانى مغلقـا ... لا تكشر أو تلم من ســكره
يا رب ذى وجـد لقـد ضمها ... فارتاح بالضمة ممـا وجـد
اغضضى او ســعرى خدك لى ... وخـذى غيرى عشاقا جـدادا
وهـل ارتاحت قـلوب شغفت ... من سخيمات هبـابا وسخاما
ألم تر أن الوحش يهبر بعضـه ... وتعدو على مستضعفيه كواسره
وقالوا ثائر يبغـــى اهتزاما ... لعالمهم فهـل هـــذا كلام ؟(١٢٧)

٢ ــ أخطاء لغوية ونحـوية . ومن ذلك :

واذا الضـــلال له هنـــاك سرادق ... مضروبة عبـدت بهـا الأصنام

---

(١٢٥) السـابق ١٧٩ .

(١٢٦) السـابق ١٨٢ .

(١٢٧) انظر بالترتيب الديوان ١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٦٠ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، جرار ٢٧٠ ، ٢٩٧ ، الديوان ١٥٧ .

(انث كلمة : سرادق مع أنها مذكرة) .

غـــدا أرى غيرك لى وافيـــــا وأبدل الحب بحب جـــديد

[يقصد انه سيحل حبا جـــديدا بدل القـــديم ، ولكن الباء فى هـــذا الاستعمال لا تدخل ـــ فى الأفصح الأغلب ـــ الا على المتروك] .

من رأى أمى قـــد ساد على كل هـــذى الناس عدلا وذماما

[والصحيح أميا . وعـــدم صرف المصروف ضرورة قبيحة] .

واذا نحن خرجنا فى غـــــد هل يرجى النـــاس للأقصى بزورة

[والفعل يرجى عداه الشاعر بحرف مع أنه يتعدى بدون حرف] .

وما باريس الا دار عهـــــــر بهـــا وهـــن ومـــين لارشادا

[والصحيح لارشاد : يضم الدال لأن لا هنا نافية عاطفة] .

وطاوع نفسه وبهـــــا غرور وتاه عن الهدى المثلى وحادا(١٢٨)

[والصحيح الأمثل ، لأن الموصوف وهو : الهدى مذكر] .

* * *

ويجنح الشاعر فى أسلوبه نحو السهولة والوضوح ، وان لم يخـــل شعره من بعض الألفاظ الغريبة ، وقـــد يلتوى بأسلوبه فى بعض الأحيـــان حرصـــا على الوزن والقافيه ـــ كما سنعرف فى صفحات تالية . ولكننـــا نستطيع أن نقول ـــ بصفة عامه ـــ أن فكر الشاعر ومعانيه أعلى مستوى من أسلوبه ولغته ، وأن معجمه الشعرى أضيق حـــدودا وأقصر مدى من معجم صاحبيه : ابراهيم طوقان وأبى سلمى .

---

(١٢٨) أنظر بالترتيب الديوان ١٤١ ، ١٧٦ ، جرار ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

موسـيقى الشـعر

كان القـدماء من علماء العربية لا يرون فى الشعر أمرا جـديدا يميزه من النثر الا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافى ، وكان قبلهم أرسـطو فى « كتاب الشعر » يرى أن الدافع الأساسى للشعر يرجع الى علتين : أولاهما : غريزة المحاكاة أو التقليد ، والثانية غريزة الموسيقا أو الاحساس بالنغم(١٢٩) .

ويرى صاحب العمدة أن الوزن أعظم أركان حـد الشعر وأولاها به خصوصية ، وهـو مشتمل على القافية وجالب لهـا ضرورة(١٣٠) . وبلغ من اعتزاز القـدماء بهـذا الجانب أن عرف بعضهم الشعر بأنه الـكلام الموزون المقفى ، ولكن « ابن طباطبا » ـ على الرغم من اعترافه بأهمية الوزن يرى ـ بحق ـ أنه لابد أن ينضاف الى هـذا العنصر المهم عناصر أخرى هى صحة المعنى ، وعـذوبة اللفظ(١٣١) . فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى الحلو اللفظ التام البيان المعتدل الوزن مازج الروح ، ولاءم الفهم ، وكان أنفـذ من نفث السحر ، وأخفى دبيبا من الرقى ـ وأشـد اطرابا من الغناء(١٣٢) . ثم بدأ النقاد فى العصور المتأخرة يرون فى الشعر أمورا أخرى يعبرون عنها بالصـور والأخيلة حينا ، ويصفونها بالعاطفة والانفعال النفسى حينا آخر(١٣٣) .

واذا كان هناك خلاف ضار بين أصحاب الشعر الخليلى ودعاة الشعر الحر ، فالذى لا ينكره أحـد ، ويتفق عليـه الجميع أن الشعر لا يمكن أن يسمى شعرا ما لم يتوفر له عنصر الموسيقى وينحصر الخلاف بعـد ذلك ـ

---

(١٢٩) د. ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ١٤ .

(١٣٠) ابن رشيق : العمدة ١/١٣٤ .

(١٣١) عيار الشعر ٢١ .

(١٣٢) السـابق ٢٢ .

(١٣٣) د. أنيس : السابق نفس الصفحة .

فى « حدود » هذه الموسيقا ومداها : وهل أساسها « البحر » أم التفعيله ، والقافية الواحـــدة ؟ أم القافية المختلفة المتعـــددة ، على ما هـــو معروف ، مما يخرج عن نطـــاق بحثنا .

* * *

وقـــد استخدم عبد الرحيم محمود أغلب البحور الشعرية ، وكان البحر الكامل هـــو صاحب « النصيب الأوفى » فى شعره . ولسنا مع الذين يعطون كل بحر أبعادا معنوية ونفسية وايحائية يختص بها دون البحور الأخرى « **فالـــكامل** مثلا له نغمة خطابية ، وحلاوة انشاد . **والرمل** له رقة وعذوبة ، ونغم خفيف مطاوع يحلو لك ترويده والترنم به بخاصة اذا كان الشعر فى الصبابة والوجـــد والحرقة . **والمتقـــارب** تحس بموسيقاه الداخليـــــة ، وشحنته المؤثرة ، وطاقته الايحائية القادرة على نقل المشاعر والانفعالات ، بحيث يسهل عليك غناؤه . **والبسيط** فيه شىء من الانكسار ، وهـــــدوء النفس لا سيما اذا كان الموضوع عن الحزن أو التحسر والفراق . **والخفيف** يشتمل على السلاسة والسهولة وليونة المقاطع ... الخ »(١٣٤) .

ومثل هـــذه الأحكام مبالغة بل تهويل لا يعتد به نقـــديا ، وليس له قيمة عملية **لعـــدة أسباب نتلخص فيما يأتى :**

١ ــ أن الخلوص الى هـــذه الأحكام جاء من النظر الى بعض القصائد ، فهى ملامح مستخلصة من « القصيدة » لا « البحر » ، لأن البحر مجردا لا يمكن أن يعكس هـــذه الصفات .

٢ ــ أنه حتى على الاعتبار السابق ، يقوم الحكم على استقراء ناقص . ففرض شعرى كالحماسة مثلا ــ وهـــو غرض يعتمد فى شكله على القـــوة والجزالة ــ استغرق على مدار التاريخ العربى كل بحور الشعر .

---

(١٣٤) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ١١٤ .

٣ ــ والشاعر المطبوع لا يضع البحر نصب عينيه ، وينسج عليـــه قصيدته ، انما الأمر ــ فى الأغلب الأعم ــ أن عملية النظم أو الابداع الفنى تتم « فى غيبة البحر » الذى « توزن » به القصيدة بعـــد تمام عملية « الميلاد الفنى » ، « فالمطبوع ــ من الشعراء ــ مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان ، وأسمائها ، وعللها لنبو ذوقه عن المزاحف منها والمستكره . والضعيف الطبع محتاج الى معرفة شىء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هـــذا الشأن »(١٣٥) ، وذلك كالخطيب المطبوع يتدفق فى خطبته ببيان سليم ساحر ، دون أن يكون فى ذهنه القواعـــد النحوية التى تؤكد سلامة منطقه ، وصحة بيانه .

فمناسبة البحر للغرض ، ومدى اتساعه أو انقباضه ، وقـــوته أو رقته ، كل أولئك لا يقاس بهـــذا المعيار الحسابى الصارم ، انما مرجعها للشاعر ذاته ، والى شعره وعناصره الفنية وما فيه من صـــدق فى الاحساس وبراعة فى الخيال وعـــذوبة فى الألفاظ . .

ولنعـــد الى عبد الرحيم محمود ، ولنقطتف أبياتا مفردة من شعره فى غرض وأحـــد هـــو **الفخـــر** ــ جماعيا كان أو فرديا ــ على أوزان مختلفة ، ومن قصائد متعـــددة :

العرب ما خضعوا لسلطة قيصر ... يوما ولا هانوا أمام تجبر(١٣٦)

غايتى ألقى المنايا عاجـــــلا ... فى مجالى العلم أو ساح النضال(١٣٧)

فانا الفخور بأننى لا ينتمى ... للعجم اخوالى ولا أعمامى(١٣٨)

ومن للحرب ان هاجت لظاها ... ومن الا كم قـــــح الزناد(١٣٩) ؟

---

(١٣٥) العمـدة ١/١٣٤ .
(١٣٦) ديوان عبد الرحيم ١٢٦ .
(١٣٧) الســـابق ١٣٢ .
(١٣٨) الســـابق ١٣٣ .
(١٣٩) الســـابق ١٤٧ .

فهـــذه الأبيات من بحور أربعة مختلفة هى بالترتيب : الكامل ــ الرمل ــ الرجز ــ الوافر . ومع ذلك فكلهـــا تلتقى فى قـــوة الجرس ، وجزالة الألفاظ وجلال العبارة وقـــدرة الايحاء . وكلها شواهد تؤيد ما ذهبنا اليه من أن البحر ــ أى بحر ــ ليس له « خصوصسة » فنية مجردة ، انما الحكم لكل قصيدة على حـــدة . **فالرمـــل** الذى للحماسة عند عبد الرحيم ، اتسع كذلك للغزل فى بعض قصائده(١٤٠) .

* * *

وللقافية قيمة موسيقية فى مقطع البيت ، وتكرارها يزيد فى وحـــدة النغم ، ولدراستها فى دلالتها اهمية عظيمة . فكلماتها ــ فى الشعر الجيد ــ ذات معان متصلة بموضوع القصيدة ، بحيث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية ، بل تكون هى المجلوبة من أجله . ولا ينبغى أن يؤتى بهـــا لتتمة البيت ، بل يكون معنى البيت مبنيا عليها ، ولا يمكن الاستغناء عنهـــا فيه ، وتكون كذلك نهاية طبيعية للبيت ، بحيث لا يسد غيرها مسدها فى كلمات البيت قبلها(١٤١) .

وما قلناه عن البحور نقول مثله عن القافية ، فليس هناك حرف من حروف الروى له « خصوصية ذاتية مطلقة » كالقول مثلا بأن حروفا كالميم والراء والسين هى أنسب الحروف رويا للغزل ووصف الطبيعة . وحروفا كالقـــاف والصاد والضاد . هى الأنسب للحماسة والهجاء .

واستقراء الشعر العربى ــ قـــديمه وحـــديثه ــ يرفض مثل هـــذه المقولة : فالميم مثلا كانت قافية أرق قصيدة للبحترى فى وصف الطبيعة ، وهى التى مطلعهـــا :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتـــكلما

---

(١٤٠) أنظر فى ديوان عبد الرحيم قصيدة يا غزالا ١٧٨ ــ وقصيدة : كبرياء الحب ١٨١ .

(١٤١) د. غنيمى هلال : النقـد الأدبى الحـديث ٤٧٠ .

كما كانت رويا لأقـــوى قصائد المتنبى وأجزلها وأعمرها بالمعـــــانى الجليلة فى مدح سيف الدولة وشجاعته وحروبه ومنها ميميته المشهورة التى مطلعهـــــا :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم(١٤٢)

* * *

وقـــد رأينا عبد الرحيم محمود يعتد بالشكل التقليدى للقصيدة ذات الوزن الواحـــد والقافية الواحـــدة ... وأن خروجه عن هـــذا الشـــكل كان فى نطاق المقطوعة وهـــو لا يعـــد تمردا أو تجـــديدا بالمفهوم الحـــاد . ولكنه من ناحية أخرى استخدم الألف اللينة رويا فى قصيدتين طويلتين همـــا قصيدة « الشهيد »(١٤٣) وقصيدة « طـــوفان سورية »(١٤٤) ، فوجـــدنا أبياته تنتهى بالكلمات الآتية : الردى . العـــدى . المنى . الحمى . الخطى . الصبا . البها . الثرى . الرؤى . فـــذا . لظى ... الخ .

واتخاذ الحروف اللينة رويا نادر فى الشعر العربى ، « والذى قـــد يضعف من اعتبارها رويا ، ويقلل من موسيقاها فى أسماعنا طبيعة القافيـــة العربية ، ومجيئها متحركة الروى فى غالب الأحيان ، فآذاننا قـــد تعودت أن تسمع بعـــد الروى حركة ، وحركة الروى قـــد تكون ضمة ، وقـــد تكون كسرة ، وقـــد تكون فتحة ، وقـــد اعتبرت هـــذه الحركة فى الوزن الشعرى بمثابة حرف مد »(١٤٥) .

ويرى الدكتور أنيس أنه ليس هناك ما يمنع من وقوع حروف المد رويا لأنها تقـــوم مقام الحروف الأخرى وتؤدى الغرض الموسيقى منها(١٤٦) ولكن

---

(١٤٢) ديوان المتنبى ٩٤/٤ .

(١٤٣) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

(١٤٤) جرار : شاعران من جبل النار ٢٨١ .

(١٤٥) د. أنيس : موسيقا الشعر ٢٥٧ .

(١٤٦) الســـابق ٢٥٦ .

الواقـــع يقـــول غير ذلك فشعور القارىء يكون دائما بالحرف السـابق على الحرف اللين . ولنقرأ هـــذه الأبيات للشاعر :

بنفسى عقـدا نظيمـا يفض وشملا تبـدد يلقـى الردى
فمن صـائح : يا أبى يا ابى ومن صارخ : وأاخا .. وأاخا
ومن لائذ بذيول الفـــرار ولات فرار يزيل القضـــا

فالقارىء يحس أنه أمام ثلاث قوافٍ مختلفة حروفها الدال والخاء والضاد لا قافية واحـدة ... وذلك يجعل هـذا اللون اقرب ما يكون من الشعر المرسل الذى رفع لواءه أو كبره الشاعر عبد الرحمن شكرى ولم يعمـر طويلا . وربما لجـأ عبد الرحيم محمود الى هـذه القافية « الألفية » حلا .. أو مخرجا من مشكلته مع القافية . كما ستعرف بعد قليل .

* * *

وموسيقا عبد الرحيم وان كانت ترتبط جهارة وهمسا بطبيعة الفكرة أو الموضوع فى بعض الأحيان كما رأينا فى الأبيات التى تمثلنا بها من قصيدة فى « العيد » ، الا أن موسيقاه ــ بصفة عامة يغلب عليها الجهارة والرنين العالى ، ومثل هـذا الشعر يروق فى الأسماع والمشاعر ملقى منشورا اكثر منه مقروءا ، وهـذه الجهارة ملحوظة حتى فى شعر الغزل ، وجرس الألفاظ يلعب دورا كبيرا فى هـذا المجـال . وترجـع هـذه الجهـارة الى طبيعته الشخصية التى شرحنا أبعادها فى الفصل الثانى ، ويضيف أحـد النقاد(١٤٧) عاملا آخر وهـو طبيعة المرحلة التى عاشها الشاعر ، تلك المرحلة التى كان الشعر فيها هـو ميدان الخطابة الأمثل ، وسلاحا مهما من أسلحة النضال .

ومن أهم الوسائل والأدوات الموسيقية عند عبد الرحيم أسلوب المقابلة وحسن التقسيم .. والأمثلة على ذلك كثيرة منها قوله :

---

(١٤٧) الياس خورى فى مجلة « فلسطين الثورة » السنة الثانية العدد ٣١٤ سنة ١٩٨٠ .

فاما حيـــاة تسر الصـــديق واما ممات يغيظ العـــدا(١٤٨)
أشاع الجمـــال بقبح الحيـــاة وافشى الحياة ببالى الرمم(١٤٩)
كـــلام العظيم عظيم الـــكلام فعـــز العظيم وعـــز الكلم(١٥٠)

* * *

ويظهر أن عبد الرحيم كان يحاول النظم أحيانا دون أن يتوفر له النجو النفسى المناسب والتوهج العاطفى المطلوب ، فكان الشعر يستعصى عليه ، أو كان يشعر أنه بما نظم لم يف بالمنشود المرجو . وهـــو يرجـــع ذلك الى هزيمته أو ضعف قـــدرته أمام القافية ، فهو يشكوها فى حسرة ومرارة فى أكثر من موضـــع ، فأحيانا يصف قوافيـــه بالقحط(١٥١) . ويرى أن عجزه أمام القافية هـــو سر عجزه وامتهانه ، فيقول :

انظم الشعر من عـــذابى فابكى والقوافى مذلتى وامتهـــانى(١٥٢)

ويشرح سر عـــذابه هـــذا بشىء من التفصيل فيقول :

أرى المعنى بقلبى جـــد واف وان انظمه يصبح غـــير وافى
فابحث عـــن بقـــاياه فالقى بقـــاياه بأسنان القـــوافى(١٥٣)

ان معانيه حبيسة فى نفسه ، وهى معان وافية قيمة ، وهـــو يحرص على التعبير عما فى نفسه ، ولكنه أمام قهر القافية وعجزه أمامها مكره الى التضحية ببعض ما عنده من أفكار ومعان .

وهـــو نقـــد ذاتى يعتمد على صراحة تحمد للشاعر ، فهو يعبر عن واقع فنى فعلى عاشه وعانى منه . وهـــذا الواقع **يقرر انه لم يكن موفقـــا**

---

(١٤٨) الديوان ١٣١ .
(١٤٩) وليد جرار ٢٦٧ .
(١٥٠) الســـابق ٢٦٩ .
(١٥١) انظر قصيدته : رثاء حمال فى ديوانه ١٦٢ .
(١٥٢) الســـابق ١٦٤ .
(١٥٣) الســـابق ١٥٨ .

فى كثير من قوافيه ، وأن شاعره لم يتنزه عن عيوب القافية ، ومن هـــذه العيـــوب :

١ ــ كلمات مجلوبة للقافية : وهى كلمات تنتهتك البلاغة العربية ، بل غالبا ما تكون تافهه المعنى متهافتة المضمون . كما نرى فى مدحـــه للشيخ « محمـــود حنـــون » .

وان به لمـــا يجـــــدى بلادا وان به لمـــا يهـــدى ضـــلالا
نودعـــه وفى المرغـــــوب ألا نودعـــه ولكن لا مـــلالا(١٥٤)

ويقول فى حـــديثه عن دمشق :

انسلم للعـــداة وقـــد اقاموا قيـــامة جلق ودع البـــــلادا
هبيهم دمروا ورموا شـــــواظا فهل يجدى توحشهم مفادا(١٥٥)

ويقول فى قصيدته عن النيل :

من فنـــه كمـــل الجمـــال ورام عن نقص يشوبه(١٥٦)

ويقول عن سياسة الزعماء ولجوئهم الى الكلام والخطب :

وما الخطب الطوال الحمس الا مصايد للظهـــور وليس الا(١٥٧)

* * *

٢ ــ الاقـــواء وهـــو مخالفة حركة القافية . كما نرى فى البيت التالى :

ان فيكم لبقـــايا طيبـــــــات لم يزل فى الدم مجراها وخيره(١٥٨)

---

(١٥٤) جرار ٣٠٨ .
(١٥٥) الســـابق ٢٨٤ .
(١٥٦) الســـابق ٢٨٥ .
(١٥٧) الســـابق ٢٥٣ .
(١٥٨) الديوان ١٥١ .

فلابد نحـــويا من رفع الراء فى كلمة (خيره) وهـــذا يخالف النصب وهـــو حركة الراء فى كل القصيدة(١٥٩) ومطلعها :

يوم مجد فات ما أحمل ذكره فيه لو نفطن آيات وعـــبره

* * *

٣ ــ السناد : وهـــو اختلاف القوافى نحو : نقيب وعيب ــ قريب وشـــــيب(١٦٠) .

وهـــذا العيب فى القافية كثير الورود فى شعر عبد الرحيم . ومنه :

ويسجد طائعـــــا لله زورا نظيف الردن مسبول اليـــدين
وليس يعف عن مال اليتـــامى ولا عن عرس مسكين مدين(١٦١)

ومن ذلك ما جاء فى قصيدته « **أنشودة التحرير** »(١٦٢) :

من جـــديب الصـــحراء أوفى علينـــا الخصب من فيض حـــق وخـــير

على الرغم من المد بالواو أو الياء قبل حرف الروى وهـــو الراء وذلك على النحـــو التـــالى :

ان أيامنا ابتسامة ثغـــــر لم يدر مثلهـــا بثغر الدهـــور
نشرت ميت الأمـــانى وأحيت أملا عارما بقلب كســـــير

* * *

وبعـــد هـــذه المسيرة مع فن الشاعر الشهيد ... لا ازعم أننى قـــد قلت الكلمة النهائية فى هـــذا الفن .. فذلك ما يختلف فيه التقـــدير ، وتختلف فيه زوايا النظر ووجهاته . غـــير أنى أعتقـــد أن هـــذا الجانب التقييمى لا يستوفى حقة الا بوقفة متأنية مع الشاعرين مجتمعين ... مع الأســـتاذ والتلميذ .. مع الصـــديق والصـــديق .. مع ابراهيم طوقان وعبد الرحيم .. فى الفصل السادس والأخير ... وبه ينتهى البحث .. ولكن لا ينتهى الـــكلام .

---

(١٥٩) الهاء هنا ليست رويا لعـدم توفر شرطيها وهما : أن تكون أصلا من أصـــول الكلمة وجزءا من بنيتها (مثل يتوجه ــ يتأوه ــ يقهقه) وأن يسبقها حرف مد (مثل : نكراه ــ أنساه) والا صار الحرف الذى قبلها هـو الروى [أنظر أنيس ٢٥٣ ــ ٢٥٦] .

(١٦٠) المرزبانى : الموشح ١٨ .

(١٦١) جرار ٣٢٦ .

(١٦٢) الديوان ١٤٥ .

الفضل السادس

بين الشاعرين عبد الرحيم وابراهيم طوقان

وجــوه شــبه والتقــاء ...

لا يستطيع دارس لعبد الرحيم محمود وشعره أن يمر مرورا عابرا بما بين الشاعرين : عبد الرحيم محمود وابراهيم طوقان من تلاق واضح فى كثير من الاتجاهات والطوابع النفسية والاجتماعية والظواهر الموضوعية . ولاعجب فى ذلك فقــد تتلمذ عبد الرحيم على أستاذه ابراهيم فى كلية النجاح ، وكان الأستاذ معجبا بتلميذه وما ينظمه من شعر ، وارتقت الرابطة بينهما الى صداقة حميمة لم تنقطع .

وعاش كلاهما اهم الأحــداث وأخطر الظروف التى هبت على وطنهما الحبيب ، وكان شعرهما شاهدا على العصر .. يعكس أهم ما وقــع على الساحة الفلسطينية . ومن عجــب أن يعيش الشاعران عمــرين يكادان يتساويان(١) . وكان ابراهيم ملء الأسماع والأبصار وخصوصا بعــد قصيدته « الثلاثاء الحمراء » .

ولا نكاد نجــد كاتبا يؤرخ للشعر الفلسطينى قبل النكبــة الا وذكر عبد الرحيم محمود مرتبطا بابراهيم طوقان ، وقــد تتسع الدائرة قليــلا

---

(١) ولد ابراهيم طوقان سنة ١٩٠٥ ، ومات سنة ١٩٤١ . وولد عبد الرحيم سنة ١٩١٣ واستشهد سنة ١٩٤٨ . فابراهيم عاش ٣٦ سنة ، وعاش عبد الرحيم ٣٥ سنة .

لتشمل أبا سلمى (عبد الكريم الكرمى) . وعبد الرحيم « يأتى فى المرتبة الثانية بعد ابراهيم طوقان فى هذا الباب من القول ، ولكنه فوق جميع الذين قالوا لأنه كان من المجاهدين الشهداء »(٢) .

وقد رأينا كيف كانت فلسطين وطنا وشعبا وكفاحا ومعاناة هى المحور الأساسى الذى دار حوله شعر عبد الرحيم ، كذلك كان الشعر الوطنى هو الغرض الغالب على الأغراض الأخرى عند ابراهيم طوقان . وكان شعره الوطنى — كما تقول شقيقته فدوى طوقان : يحمل طابعا فلسطينيا خاصا كان حتما أن تطبعه به أحوال بلاده المضطربة فى هذا العهد المظلم من عهود فلسطين ، وما كان ابراهيم ليفوز بلقب شاعر الوطن وشاعر فلسطين لو لم يسجل قضية بلاده فى شعره القومى الذى يمتاز بذلك الطابع الفلسطينى الخاص ، ولو لم تنعكس فى ذلك الشعر أصدق صورة لهذا الوطن فى ذلك العهد(٣) . فكان شعره بحق سجلا تاريخيا للأحداث ، وتعبيرا صادقا عن الشعب وارادته ، وتمجيدا لبطولته وبذله وفدائه(٤) .

فى هذا الجو الاجتماعى والسياسى الواحد عاش الشاعران بمنازع ومشارب تتشابه وتلتقى فى كثير من المناحى والوجهات . وطبيعة البحث تقتضينا شيئا من تفصيل هذه الوجوه بعد هذا التعميم وذاك الاجمال .

* * *

بيئة البيت وطبيعة التربية :

نشأ كل منهما فى بيئة دينية محافظة ، ونهل كل منهما فى صباه من مناهل الأدب العربى الأصيل ، وبيان القرآن الكريم والبلاغة النبوية ، والتراث العربى . فكان من أكبر الأسباب التى أعانت ابراهيم طوقان على أن يقول الشعر فيجيده بالقياس الى صغر سنه هو كثرة حفظه للشعر المنتخب ، واحتفاله الكبير بالقرآن الكريم ، فقد كان كثير التلاوة له ، عميق النظر فيه ، وذلك يرجع بدواعيه وأسبابه الى بيئة فى البيت يعنى أصحابها بتنشئة

(٢) عمر فروخ : شاعران معاصران ، هامش ١٠٤ .

(٣) أخى ابراهيم (فى صدر ديوان ابراهيم طوقان) ٣٢ .

(٤) هارون هاشم رشيد : الكلمة المقاتلة فى فلسطين ١١ .

أطفالهم على تلاوته ، والتشبع بروحه ، ولم ينفك ابراهيم منذ صغره يقرأ القرآن ، ويطيل التأمل فيه حتى أصبح له ذلك دينا لا يعوقه عنه عائق ، ولا يصرفه عنه تقلبه فى مختلف معاهـــد العلم الأجنبية فيما بعـــد . ولم تكن تلاوته للقرآن الكريم تلاوة سطحية عابرة ، بل كان يتجه اليه بقلبه وروحه ، ويحس له فى نفسه وقعا عجيبا ، وأثرا بعيدا ، فيهزه اعجازه هزا ، وتفعل فيه بلاغته فعل السحر ، ويستولى عليه خشوع عميق يصرفه عن كل ما يحيط به(٥) .

وحينما عمل مراقبا للقسم العربى باذاعة القـــدس سنة ١٩٣٦ ، وعلى مدى أربع سنوات كانت كل أحاديثه تعتمد على محاور ثلاثة : الآية القرآنية ، والحـــديث الشريف ، والمثل المشهور(٦) . وكان من الطبيعى ـــ وقـــد نشأ ابراهيم مثل هـــذه النشأة ، وعاش بمثل هـــذا الحب للقرآن ، والعكوف عليه ـــ أن نسمع وجيب القرآن ، ونشهد بصمات أسلوبه العظيم وتراكيبه وتشبيهاته وصوره فى كثير من قصائده ، ونسوق فيما يأتى بعضا من هـــذه الشـــواهد :

فمن الصور القرآنية الرائعة التى صورت جمود الكفار وتبلد شعورهم ، وصـــدهم عن الاستجابة للحق قوله تعالى :

« .. **ثم قست قلوبكم من بعـــد ذلك فهى كالحجارة أو أشـــد قسوة ، وان من الحجارة لمـــا يتفجر منه الأنهار ، وان منها لمـــا يشقق فيخرج منه المـــاء ، وان منها لمـــا يهبط من خشية الله** »(٧) .

ونرى بصمات هـــذه الصورة الأخاذة فى قول ابراهيم طوقان مصورا قساوة المستعمر وظلمه الغاشم :

أنى لشاك صـــوته أن يسمعا ... أنى لباك دمعه أن ينفعـــا
صخر أحس رجاءنا فتصـــدعا ... وأتى الرجاء قلوبهم فتقطعـــا

---

(٥) انظر فـدوى طوقان السابق ١٥ ـ ١٦ .
(٦) السـابق ٣٣ .
(٧) البقـرة ٧٤ .

لا تعجبوا فمن الصخور نبع يفور
ولهم قلوب كالقبور بلا شعور(٨)

وهؤلاء الذين لا يحسون بما يعانيه وطنهم من مواجع وآلام ، بل كل همهم الحرص على دنياهم والمظهر الكاذب ... هؤلاء يراهم ابراهيم غير جديرين بشرف الرجولة بعد أن ماتت قلوبهم ومشاعرهم ، فهم :

حسبوا فى الرجال هل كانت الأنعام الا لمثلهم اشباها(٩)

وهو تشبيه ورد كثيرا فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون(١٠)

ومن الألفاظ والعبارات القرآنية فى شعره ما نراه فى الأبيات الآتية :

اليوم يشرب موطنى كأس الهناء لكم دهاقا(١١)
بالعاديات لدية ضبحا والأسنة فى اللبان(١٢)
وثم وحش فمه دامى الزبد فى جيده حبل غليظ من مسد(١٣)

وأوضح من ذلك وأدل ما نراه من هيمنة سورة كاملة هى « **سورة الرحمن** » على قصيدة طويلة كاملة تزيد على الأربعين بيتا هى قصيدة « **حطين** »(١٤) . ونحس بعبق السورة يسرى فى أعطاف القصيدة : فقافيتها هى النون ، وهو الحرف الذى تنتهى اليه الفواصل فى السورة ، وآيات السورة قصيرة ، والشاعر قد اختار لقصيدته بحرا مجزوءا وكلمات ذات جرس متنوع فى رسم النجو المنشود .

---

(٨) ديوان ابراهيم ٤٥ .
(٩) السابق ٥٨ .
(١٠) الأعراف ١٧٩ . وأنظر الفرقان ٤٤ ـ ومحمد ١٢ .
(١١) ديوان ابراهيم ٥٢ ـ وأنظر النبأ ٥٤ .
(١٢) ديوان براهيم ٧٣ ـ وأنظر العاديات ١ .
(١٣) ديوان ابراهيم ٢١٠ . وأنظر المسد آية ٥ .
(١٤) ديوان ابراهيم ٧٢ .

وتتدفق الكلمات والعبارات القرآنية فى القصيدة تنطق بتمكن الشاعر من لغته بشاعرية فـــذة فائقة . ونقتطف من القصيدة بعض الأبيـــات الدالة على هـــذا التأثر وهيمنة السورة على القصيدة بجوها وجرسها وألفاظها(١٥) .

يا باكى الفيحاء(١٦) حيـــــ ـــن أبت تقيم على الهوان
ايـــام كانـــت وردة بدم البواســل كالدهـــان
البيت مـــا قلتـــه فيـــه تخـــايل جنتـــان
أبـــدا رثاؤك فبهمـــا عينـــان دمعـــا تجـــريان
هـــذا وان جنـــاهما للصعب فاعجب وهـــو دان
ترمى بمارجهـــا ومـــا غير العجاجة من دخـــان
وســـيوفهم ماء الحميـ ـــم على مضـــاربهن آن(١٧)

وهيمنة السورة بروحها وتراكيبها وجرسها على القصيدة تنم ــ كما تقول فـــدوى طوقان ــ على أن معرفة ابراهيم بالقرآن كانت معرفة بعمق ومعايشة ، وأن تلاوته له « لم تكن تلاوة سطحية عابرة ، بل كان يتجه اليه بقلبـــه وروحـــه » .

وللأثر النبوى الشريف كذلك بصمات على شعره ، ونجتزىء هنـــا بمثال وأحـــد . يقول ابراهيم مخاطبا أحمد شوقى :

جـــبريل ينفـــخ فى فـــؤادك ما يفيض على اللســـان
وامد بالنفحـــات روحـــك حين طـــوف بالجنـــان(١٨)

فهو فى هـــذين البيتين يشير الى ما جاء فى الأثر من اختيار النبى ــ عليه الســـلام ــ لحسان بن ثابت لكى يكون الشاعر الـــذى يذب عن الاســـلام

---

(١٥) المخاطب بهـذه القصيدة هـو أحمد شوقى . وقـد نظمها ابراهيم يوم عزم شوقى على زيارة فلسطين ، ولكن الزيارة لم تتم . وفى القصيدة يحاول ابراهيم اثارة شوقى لينظم شعرا فى فلسطين وقضيتها

(١٦) يشير الى قصيدة شوقى القافية فى نكبة دمشق .

(١٧) ارجع الى سورة الرحمن وبخاصة الآيات ١٥ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٤ .

(١٨) ديوان ابراهيم ٧٢ .

بلسانه ، ويهجو الكفار ، ويبرز مثالبهم ونقائصهم قائلا له « **أجب عنى ، اللهم أيده بروح القـــدس** »(١٩) .

وفى تضاعيف شعر ابراهيم غير قليل من الطوابع والقيم والعبارات الدينية كما نرى فى الأبيات التالية :

لا ترج عفـوا من سـواه هـــــو الالـــــه
وهــو الذى ملكت يداه كـــــل جـــاه
جبروته فوق الذين يفرهم جبروتهم فى برهم والأبحر(٢٠)

* * *

وأخيرا نرى فى شعر ابراهيم آثارا من مقروءاته فى الأدب العربى القديم لفحول الشعراء . فقوله :

بالعـاديات لـــديه ضجـــا والأســـنة فى اللبـــان(٢١)

يذكرنا بقول عنترة فى معلقته :

يدعون عنتر والرماح كأنهـــا أشطان بئر فى لبـــان الأدهم(٢٢)

كما نحس بروح أبى فراس الحمدانى اذ يقول :

معللتى بالوصل والموت دونه اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر(٢٣)

---

(١٩) انظر تاريخ الأدب العربى للزيات ١٥٢ . وانظر كذلك : صحيح مسلم كتـــاب « فضائل الصحابة » المجلد الخامس ١٥٣ .

(٢٠) ديوان ابراهيم ٤٩ .

(٢١) ديوان ابراهيم ٧٣ .

(٢٢) شرح المعلقات السبع للزوزنى ١٥١ (والأشطان : الحبال ـ جمع شطن . واللبـان هـو الصـدر) .

(٢٣) ديوان أبى فراس الحمدانى ٢١٠ .

تسرى فى أعطاف قـــول ابراهيم طوقان :

ايا وادى الرمـــان لا طبت واديا اذا هى لم تنعم بطلك سرمدا
ويا وادى الرمان لا ساغ طعمه اذا انا لم أمدد لذاك الجنى يدا(٢٤)

* * *

وكذلك نشأ عبد الرحيم محمود ـــ كما عرفنا ـــ فى بيت أدب وعلم ودين من أب فقيه متدين شاعر ، وعاش عبد الرحيم متدينا يعتز بذوى العلم والدين والجهاد من أمثال عز الدين القسام وعبد الرحيم الحاج محمد ومحمود حنون ، وقـــد رأينا كيف تأثر بالقرآن الكريم ، وكيف رصع شعره بكلماته وعباراته الوضـــيئة . فكان هـــذا وجـــه الشـــبه الأول بين الشـــاعرين ابراهيم وعبد الرحيم .

الشاعران وقضية العصر :

وكما المحنا من قبل كانت قضية فلسطين شغلا شاغلا للشاعرين ، وقـــد استغرقت كثيرا من قصائدهما ، وتعـــددت الجوانب والموضوعات التى تناولها الشاعران مرتبطة بهـــذه القضية ، وكان شعرهما مطبوعا بالطابع الفلسطينى الحاد ، وان لم يعـــدم الطوابع الانسانية العامة التى تجعل من قضية فلسطين جزءا من كيان انسانى مظلوم .

وارتبط شعرهما فى القضية بالأحـــداث التى كانت تتوالى تترى على الأرض الفلسطينية ، فكان سجلا للواقـــع الفلسطينى بجوانبه السياسية والاجتماعية والنضالية . ويلتقى الشاعران ويتشابهان فى غير قليـــــل من القصائد تشابها يكاد يكون توأميا فى تناول هـــذه الموضوعات ، وفى المضامين الفكرية ، وفى القيم الشعورية ، فنرى عبد الرحيم محمود قبل النكبة بثلاثة عشر عاما ، وقبل سقوط القـــدس فى يد اليهود باثنتين وعشرين سنة يرى

---

(٢٤) ديوان ابراهيم ١١٠ .

ببصيرة نافـــذه ، وشعور عميق ضياع المسجد الأقصى ، واستباحة اليهود لحرمه ، وسلبهم أرض فلسطين فيقول مخاطبا الأمير سعود سنة ١٩٣٥ :

المســـجد الأقصى أجئت تزوره ... أم جئت من قبل الضياع تودعه ؟
حرم تبـــاح لكل أوكع آبـــق ... ولكل أفاق شريد أربعـــــــه

ويعيش ابراهيم طوقان برؤية شعرية قادرة هـــذا المستقبل الفاجع الذى ينتظر وطنه ، ويلح على المعنى نفسه فى عـــدد من القصائد محـــذرا ومنذرا وقارعا ناقـــوس الخطر الذى يؤذن بالنكبة المـــاحقة فهـــو يرى أن المستقبل القريب :

فيـــــه الرحيـــــل غـــــــدا ... الى وادى الفنـــــــــاء
فاليـــــوم أمرح كاســـــيا ... وغـــدا سانبذ بالعـــراء(٢٥)

ويصرخ الشاعر بقومه النوم اللاهين الذى شغلوا عن القضية بالخلافات والصراعات من أجل حزبية بغيضة ومناصب تافهة :

يا قـــوم ليس عـــــــدوكم ... ممـــــن يلـــــين ويرحم
يا قـــوم ليس أمامـــــــكم ... الا الجـــــلاء فحـــزموا(٢٦)

وقـــد اتسعت رؤية الشاعر فتنبأ بهـــذا المصير الأسود لا للفلسطينيين فحسب ، بل للعرب جميعا بعـــد أن شغلوا عن الجـــد بالعبث ، وعن أعدائهم بأنفسهم ، فكان ما كان ممـــا نعرفه جميعا :

أمامك أيهـــــا العربى يوم ... تشيب لهوله سود النـــواصى
وأنت كما عهدتك لا تبالى ... بغير مظـــاهر العبث الرخاص
مصـــيرك بات يلمسه الأدانى ... وســـار حـــديثه بين الأقاصى
فلا رحب القصور غـــدا بباق ... لساكنها ولا ضيق الخصائص(٢٧)

---

(٢٥) ديوان ابراهيم ٦٠

(٢٦) السابق ٨٨

(٢٧) السابق ٩٣ . وانظر كذلك ٥٥ ، ٥٧ ، ٨٩ .

ولعل نبوءة الشاعر هنا قد تحققت فيما نراه من تمزق الصف العربى ، والصراع الدامى بين العرب بعضهم بعضـــا ، وانشغالهم بعبث الحياة ورفاهتها ممـــا جعل اسرائيل تعربد كمـــا تشاء ، وتضرب كيفما وأينما تريد .

الزعماء الجـــوف ومسئولية الضياع :

وكلا الشاعرين كان صرخة مدوية ، وروحا رافضة متمردة على كل ما يسيء الى القضية الأم ... قضية فلسطين التى ظهرت مقـــدمات نكبتهـــا وارهاصات ضياعها فى حياة الشاعرين ، فحمل كل منهما حملات ضـــارية على المتواكلين من ابنـــاء الشعب ، ولكن الحملة كانت أشـــد واعتى على الزعماء الذين شغلوا بأنفسهم ، وبالتفاهات وبالتطاحن والمظهرية الجـــوفاء عن الوطن الذى كان يذبح على مرأى منهم(٢٨) دون تقـــدير عملى لخطورة الموقف الذى كان يجب أن يلقى من هؤلاء الزعماء نفوسا متماسكة ، وقلوبا متحدة لمجابهة العـــدو ، ولكن كان الوضع المؤسف كما يقول عبد الرحيم محمـــــود :

انا بأيدينا جرحنـــا قلبنـــــا وبنـــــا الينا جاءت الآلام
والخطب فرقنـــا قبائل جمـــة والخطب عند عـــداتنا لمـــام(٢٩)

ويصور ابراهيم طوقان ملامح هـــؤلاء الزعماء الجوف : فهم رجال خطابات منمقة ، وأبطال احتجاجات ومظاهرات وهتافات(٣٠) . وهم قـــد فرطـــوا باهمالهم فى قضية الوطن ، وضرموا الأحقاد بين أبنائه(٣١) . لذلك يتهكم الشاعر تهكما مرا على هؤلاء الزعماء « المخلصين !! » و « أفضالهم !! » الجمة على الوطن من اجتماعات واحتجاجات ، ويعترف لهم بهـــذه « الأيادى » وتلك « الأفضـــال » :

ما جحـــدنا افضالكم غير أنا لم تزل فى نفـــــوسنا امنيه
فى يدينـــا بقيـــة من بـــــلاد فاستريحوا كى لا تطير البقيه(٣٢)

---

(٢٨) انظر ديوان عبد الرحيم محمود ١٤١ ، ١٤٧
(٢٩) السمـــابق ١٤٢ ٠
(٣٠) أنظر ديوان ابراهيم ٧٩ ٠
(٣١) أنظر الســابق ٨٢ ٠
(٢٢) الســابق ٨٣ ٠

وكأنما قد يئس الشاعر يأسا مطلقا من تقويم هؤلاء الزعماء ، وسيرهم على جادة الصواب ، واحساسهم بآلام الشعب وخطورة القضية ، فانصرف بكل قوته الى تحذير أبناء الشعب منهم حتى لا يظلوا ضحية منكوبة بهم :

فالى متى يا ابن البلاد ... وانت تؤخذ بالحماسة
والى متى زعماء قو ... مك يخلبونك بالكياسة
ولكم أحطنا خائنا ... منهم بهالات القداسة
ولكم اضاع حقوقنا ... الرجل الموكل بالحراسة
والله ليس هناك الا ... كل قناص الرياسة
تأتيه من بيع البلا ... د وما اليه من الخساسة(٣٣)

انها نفس الصورة التى أبرزها عبد الرحيم محمود فى شعره وخصوصا قصيدته « الى كل متهاود »(٣٤) والتى كثف خلاصتها فى النهاية مخاطبا شعبه المنكوب :

يا شعب يا مسكين لم ... تنكب بنكبتك الشعوب
قلدت أمرك من بهم ... لا يرجع الحق الفصيب(٣٥)

وقد تعرض أغلب الشعراء الفلسطينيين آنذاك لهؤلاء الزعماء بقوارص القول ، غير أن ابراهيم طوقان كان أكثرهم الحاحا على هذا الموضوع من غيره(٣٦) .

وتتوالى المؤامرات والأحداث الدامية على الشعب الفلسطينى تنفيذا للمخطط الاستعمارى الصهيونى الذى دبر وخطط بليل ، وكان من استهلالاته الغادرة الخسيسة « وعد بلفور » فى ٢ من نوفمبر ١٩١٧ ، والذى بمقتضاه أعطى من لا يملك حقا لمن لا يستحق » وذلك على حساب اصحاب الأرض والبلاد الأصليين .

---

(٣٣) السابق ٦٣ .
(٣٤) ديوان عبد الرحيم محمود ١٢٩ .
(٣٥) السابق نفس الصفحة .
(٣٦) خالد على مصطفى : الشعر الفلسطينى الحديث ٢٩ .

وكان لشاعرينا ما نعيابه على غـــدر المستعمر الانجليزى بهذا الوعد بعـــد أن ضحى العرب ما ضحوا فى الثورة العربية الكبرى ضـــد الأتراك ســـنة ١٩١٦(٣٧) .

البطـــولة والأبطـــال :

وكان للبطولة والأبطال والتضحية والفـــداء مكانها الأسمى فى شعر الشاعرين ، فينظم ابراهيم طوقان قصيدته الملحمية الرائعـــة « الثـــلاثاء الحمراء » فى الشهداء الثلاثة حجازى وجمجوم والزير الذين شنقهم الانجليز لاشتراكهم فى ثورة ١٩٢٩(٣٨) وينظم قصيدة « الشـــهيد »(٣٩) فى الذكرى الرابعة لهؤلاء الشهداء(٤٠) وينظم كذلك رائعته « الفـــدائى »(٤١) . وهى تدور فى نفس الفلك الذى تسبح فيه قصيدته « الشهيد » .

وينظم عبد الرحيم قصـــيدته « الشـــهيد »(٤٢) ، وقصـــيدته « مـــوت البطـــل »(٤٣) .

وكانت كل هـــذه القصائد تعبيرا صادقا عن احساس عميق بقيمة البطولة والفـــداء والتضحية بالنفس ، والوفاء للوطن ، والاستهانة بالأخطار فى سبيل تخليصه . وعلى الرغم من أن هـــذه القصائد قـــد نظمها الشاعران فى مناسبات تاريخية معروفة الا أنهما استطاعا ببراعة ان ينطلقا من هـــذا المحـــدود التاريخى الى آفاق انسانية عليا أوسع مدى من « الحدث المحدود » والواقع المشهود بحيث تصبح « واقعة » الفـــداء او الاستشهاد مثلا أعلى ،

---

(٣٧) انظر ديوان ابراهيم طوقان ٨٢ . وانظر قصيدة « وعد بلفـور » لعبد الرحيم محمود فى ديوانه ١٢٩ .

(٣٨) ديوان ابراهيم ٤٢ .

(٣٩) الســـابق ٤٠ .

(٤٠) فـدوى طوقان : أخى ابراهيم : السابق ٢٩ .

(٤١) ديوان ابراهيم ٦٩ .

(٤٢) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

(٤٣) الســـابق ١٣٤ .

ومبدأ جليلا تحتذبه الشعوب التى تتطلع للحرية وتشتشرف حياة الكرامة والشرف :

لعمرك هـــذا ممات الرجال ومن رام موتا شريفـــا فـــذا(٤٤)

ولا يعـــد الممات شهادة ما لم يرتبط بسمو الهـــدف ونبل الغاية ، ومن يحرص على الفـــداء وسلوك طريق الشهادة يجب أن تكون :

نفســـــه طـــوع همـــة وجمـــت دونهـــا الهمم
وهى من عنصر الفـــــدا ء ومن جـــوهر الـــكرم
ومن الحـــق جـــذوة لفحهـــا حـــرر الأمم(٤٥)

ليس هـــذا فحسب ، بل يلتقيان فى كثير من المعانى والأفكار الجزئية . منها على ســـبيل التمثيل :

يقول ابراهيم طوقان فى قصيدته « الشهيد » :

عبس الخطب فابتســـــم وطغى الهـــول فاقتحم(٤٦)

ويقول عبد الرحيم فى قصيدته « الشهيد » :

وبان على شفتيه ابتســـام معانيه هزء بهذى الدنى(٤٧)

ويقول ابراهيم طـــوقان :

ورمى النـــــار فى القـــلو ب فمـــا تعرف الضغن(٤٨)

ويقول عبد الرحيم محمود :

بقلبى سارمى وجـــوه العـــدا وقلبى حـــديد وارى لظى(٤٩)

---

(٤٤) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

(٤٥) ديوان ابراهيم ٤٠ .

(٤٦) الســـابق ٤٠ .

(٤٧) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

(٤٨) ديوان ابراهيم ٤١ .

(٤٩) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

ويقول ابراهيم طـــوقان :

صـــعد الـــروح مرســـلا لحنـــــه ينشـــد المـــلا(٥٠)

ويقول عبد الرحيم :

اذا قلت اصغى لى العـــالمون ودوى مقـــالى بين الورى(٥١)

ويستهل ابراهيم قصيدته « الفـــدائى » بهـــذا البيت :

لا تســـل عـــن ســـلامته روحـــه فـــوق راحتـــه(٥٢)

ويستهل عبد الرحيم قصيدته « الشهيد » بالبيت انتالى :

ساحمل روحى على راحتى وألقى بها فى مهاوى الردى(٥٣)

* * *

العربية الفصحى :

ويلتقى الشاعران كذلك فى عشق العربية الفصحى ، والوفاء لهـــا ، والدفاع عنها ضـــد المؤامرات التى حيكت وتحاك لهـــا بأيدى الأعـــداء من المستعمرين،وأيدى الأدعياء من أبنائها الذين يترسمون خطا الغرب والفرنجة. وقـــد أشرنا فى معرض حـــديثنا عن مسيرة الشاعر عبد الرحيم محمود الى مدى اعتزازه بالفصحى ، ودفاعه عنها ، ونعيه على « العربى » الذى يطعم كلامه ببعض الكلمات الأجنبية ، مـــع أن العربية غنية كل الغنى بألفاظها التى تلبى حاجات الحياة والعلم والحضارة . ويبلغ اعتزاز عبد الرحيم بالعربية الفصحى أنه يرى أن استعادة العرب لمجـــدهم ومكانتهم السلبية تتـــوقف بادىء ذى بدء ـــ على تمسكهم بلغتهم ، واعتزازهم بهـــا ، ودفاعهم عنها ضـــد من يقصدها بسوء :

---

(٥٠) ديوان ابراهيم ٤١ ٠

(٥١) ديوان عبد الرحيم ١٣١ ٠

(٥٢) ديوان ابراهيم ٦٩ ٠

(٥٣) ديوان عبد الرحيم ١٣١ ٠

لن يستعيد العرب سالف مجدهم ولسانهم غرض لرمى سهام
ان يرفعوا ما انقض من بنيانهم فالضاد أول حائط ودعام(٥٤)

وفى حياة ابراهيم طوقان صفحة مجيدة فى هذا المجال ، فقد عمل باذاعة القدس عندما تاسست سنة ١٩٣٦ ، ووقع الاختيار عليه ليكون مراقبا للقسم العربى فيها ، فاحتضن هذا القسم ، وتعهده بعنايته مدة أربع سنوات(٥٥) .

ولعل من أهم ما قام به هناك تصديه لفئة غير عربية كانت تسعى سعيها لتنشيط اللغة العامية ، وجعلها اللغة الغالبة على الأحاديث العربية المذاعة — وكانت حجتها فى ذلك أن الاذاعة لا يمكنها أن تحقق الغرض الذى هدفت اليه وهو نفع الطبقة المتوسطة اذا جرت على استعمال اللغة الفصحى لأن هذه الطبقة من اهل المدن والفلاحين لا تحسن اللغة الفصحى ، على حد تعبير أصحاب القول بتنشيط اللغة العامية ، ولا تفهم اللغة العربية القديمة التى جرى عليها المذياع .

وقف ابراهيم وقفة حازمة أمام هذا الرأى ، ونقضه يومئذ بحجج دامغة ، وأظهرهم فيها على ان المذياع لم يجر على اللغة العربية القديمة ، وانما هى لغة عربية سهلة صحيحة يفهمها المتعلم والأمى على السواء ، وان الفلاحين لتقرأ عليهم الجريدة فيناقشون القارىء فى افتتاحيتها ، ولا يعقل أن يناقش المرء فى شىء لم يفهمه . هذا وان العرب — مسلمين ومسيحيين — يدينون بالقومية ، وهذا مشروع غايته القضاء على اللغة العربية ، وهى عندنا كل ما بقى من ذلك التراث الطويل العريض الذى اجتمع لنا من الفتوحات والحضارات والعلوم والآداب والفنون . فما من عاقل اليوم يعرف قدر نفسه ، ويعتز بعربيته يرضى عن العبث بهذا التراث الباقى والقضاء عليه بيده(٥٦) .

---

(٥٤) السابق ١٣٣ .

(٥٥) فدوى طوقان : أخى ابراهيم . الديوان ٣٢ .

(٥٦) أنظر السابق ٣٣ — ٣٤ .

... وملامـــح الاختـــلاف

ولكن هـــذه المشابه فى كثير من المشارب النفسية ، والاتجاهات الفكرية والموضوعية والطوابع الفنية ... كل ذلك لا يعنى أن احـــدهما ذاب فى الآخر ، فثمة فروق بينهما فى السمات الشخصية والفنية كما سنرى :

الاســـتعداد الجســـدى :

فاذا نظرنا الى البعـــد الحسى راينا عبد الرحيم شابا قـــوى البنية ، جلدا ، قادرا على الحركة وتحمل أعباء العيش والكفاح والحياة ، ومن ثم رفـــع القلم والسلاح ، وكان جهاده بالكلمة والبندقية ، وتجسد ايمانه بوطنه فى صورة عملية تطبيقية تتمنطق بالقوة والنضال المسلح لتحرير الوطن من اعـــــدائه .

أما ابراهيم طـــوقان فلم يكن مهيئا جسديا لمثل هـــذا اللون من الكفاح المسلح ، فاكتفى بالكلمة الشاعرة تتفجر بالنقمة ، وتتدفق فى مواجهة الأعداء سعيرا . لقـــد عاش حياته مضعوفا محروما من نعمة العافية وهـــو فى ريعان الشباب(٥٧) . ولاحقته الأمراض فى فجر شبابه ، واشتد به المرض سنة ١٩٢٤ وهـــو طالب فى العام الدراسى الثانى بالجامعة الأمريكية ببيروت مما اضطر معـــه الى العـــودة الى نابلس قبـــل انتهاء الفصل الدراسى الأول(٥٨) . وفى أواخر سنة ١٩٣٢ ألح عليه السقم ، ولازمته العلة ، واجريت له عملية خطيرة فى معـــدته تعرض فيها لموت محقق حتى أقر الطبيب يومذ أن « ســـلامة مريضه كانت من معجزات الله ، لا شأن لفن الطب فيها ، ولا لخـــدمة الطبيب ، اذ كانت حال ابراهيم فوق هـــذين كليهما »(٥٩) .

---

(٥٧) فـــدوى طـــوقان : السابق ٢٧ .

(٥٨) الســـابق ١٧ .

(٥٩) الســـابق ٢٦ .

ولم يرحمه المرض بعد ذلك فلاحقته فى العراق بعد أن ترك عمله بالاذاعة سنة ١٩٤٠ ، ولم يتركه الى أن لفظ آخر أنفاسه فى الثانى من مايو سنة ١٩٤١(٦٠) .

مثل هذا الجسد النحيف الهش ، ومثل هذه الصحة المنهوبة المنهوشة لم يهيأ صاحبها للكفاح والنضال المسلح على عكس عبد الرحيم محمود ، بل لم يهيأ صاحبها لأى عمل شاق . واذا كان عبد الرحيم محمود قد عاش مناضلا مقاتلا حتى جاد بروحه فى سبيل وطنه كما كان معشوقه الثانى — بعد الكفاح المسلح — هو التعليم حتى كان يرى أن الشهادة فى ميدان العلم والتعليم صنو الشهادة فى ميدان القتال ... فان ابراهيم طوقان — وقد عمل معلما فى مدرسة النجاح بنابلس لمدة عام ، وفى الجامعة الأمريكية ببيروت لمدة عامين ثم استقال وعاد الى فلسطين معلما فى المدرسة الرشيدية بالقدس — لم يحتمل جسمه المضعوف المنهوك مشاق هذه المهنة ، فضاق بها وهجرها بعد رأى من المسئولين فى هذه المعاهد التى عمل بها ما يناقض مثله العليا فى تحقيق العدل ، ونبل الغايات(٦١) . وقد عبر عن ضيقه بهذه المهنة ، وكراهيته لها بقصيدة يعارض بها لامية شوقى المشهورة فى المعلم والتى استهلها بقوله :

قم للمعلم وفه التبجيلا — كاد المعلم أن يكون رسولا(٦٢)

يقول ابراهيم طوقان :

شوقى يقول وما درى بمصيبنى — قم للمعلم وفه التبجيلا
أقعد فديتك هل يكون مبجلا — من كان للنشء الصغار خليلا
ويكاد يفلقنى الأمير بقوله — كاد المعلم أن يكون رسولا
لو جرب التعليم شوقى ساعة — لقضى الحياة شقاوة وخمولا
حسب المعلم غمة وكآبة — مرأى « الدفاتر » بكرة وأصيلا

---

(٦٠) ناصر الدين الأسد : الشعر الحديث فى فلسطين ١٤٣ .

(٦١) انظر : عمر فروخ : شاعران معاصران ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٦٢) الشوقيات ٢٢٤/١ (والقصيدة ألقاها أحمد شوقى فى حفل قام به نادى المعلمين العليا) .

فطوقان اذن كان يمتح من معينين ثقافيين : المعـــين العربى والمعـــين الغربى وخصوصا الأدب الانجليزى ، وكان لهـــذا وذاك آثار فى شـعره تكاد تتساوى ، أما عبد الرحيم محمود فحظ الجـــديد فى شعره ـــ شكلا وموضوعا ـــ أقـــل من حظ ابراهيم بكثير . وليس من حقنا أن نطلب من الشاعر فوق ما تتحمله طاقاته وامكاناته واستعداده الثقافى والفنى .

الخيـــال والرومانسية :

وكان من الطبيعى أن يفيد ابراهيم طوقان ـــ على نطاق واســـع من مقروءاته فى الأدب العالمى ، وأن يتأثر بالاتجاهات والمبادىء والقيم الفنيـــة الرومانسية وخصوصا فى ذلك الخيال الابتكارى المحلق البعيد ، والمزج بين أبعاد النفس وعناصر الطبيعة ، على نطاق واسع . ولننظر الى قصـــيدة « **الشـــهيد** » لعبد الرحيم محمود وقصيدة « **الشـــهيد** » لابراهيم طوقان ، وهما قصيدتان تحملان عنوانا وأحـــدا ، وتكادان تتساويان فى عـــدد الأبيات ، ولنجتزىء ببعض الأبيات من كل منهما :

يتحـــدث عبد الرحيم بلسان الشهيد معتزا بعزيمته القـــوية وابائه الضيم وقـــوته الفائقة فى مقاومة الأعـــداء فيقول :

فكيف اصطبارى لكيد الحقـــود ... وكيـــف احتمالى لســـوم الأذى
أخـــوفا وعندى تهـــون الحياة ... وذلا وانى لرب الابـــا ؟
بقلبى سأرمى وجـــوه العـــدا ... وقلبى حـــديد ونارى لظى
وأحمى حياضى بحـــد الحسام ... فيعلم قـــــومى بأنى الفتى

فالصورة هنا محـــدودة الجوانب ، والخيال ضيق المدى مقصوص الجناحين ، يكاد يقترب من الواقع دون أن يواصل التحليق فى آفاق عليـــا ، وكل ذلك فى قوالب تقليدية مطروقة .

ويصور ابراهيم طوقان شخصية البطـــل الشهيد وأبعـــادها النفسية فيقـــول :

ويستعرض فى هـــذه القصيدة المتاعب والمشاق التي يعانيها المعلم ، والجهود الجبارة التى يبذلها بلا ثمرة ، ثم يختمها بقوله :

يا من يريد الانتحار وجـــدته ان المعلم لا يعيش طويلا(٦٣)

والخلاصة أن الاستعداد الجسدى مكن عبد الرحيم محمود من أن يضطلع برسالتين : النضال المسلح والتعليم ، بينما عجز ابراهيم طـــوقان ببنيته الضعيفة التى هـــدها المرض أن يرفع السلاح دفاعا عن وطنه . كما عجز عن مواصلة مهمته معلما لمـــا تتطلبه هـــذه المهنة من قـــوة وجلد وصبر وتحمل ، وهـــو الذى عاش محروم الصحة مسلوب العافية .

الثقافة : مصادرها ومداها :

ومن وجـــوه الاختلاف كذلك فى عناصر الشخصية وأبعـــــادها أن عبد الرحيم وقفت به ثقافته عند الدائرة العربية ـــ كما عرفنا ـــ فقد أطلع على الأدب العربى وخاصة القـــديم منه ، كما كان القرآن الكريم من مصادره الثقافية الأساسية ، وانفتح الى حـــد ما على الثقافة والتيارات الأدبية التى عاصرته ، أما معرفته بالانجليزية فلم تكن بالدرجة التى تمكنه من ملاحقة آداب هـــذه اللغة أو الوقوف عندها طويلا أو الافادة منها على نطاق واسع ، وقـــد عرضنا لذلك فى الفصل الثانى من هـــذا البحث .

أما ابراهيم طوقان فقد كان يتقن الانجليزية ، ويعرف الأدب الانجليزى معرفة صحيحة ، وكان له اطلاع واسع على آثار اصحاب المذهب الوجـــدانى (الرومانتيكى) أمثال كولريدج (١٧٧٢ ـــ ١٨٣٤) وكيتس (١٧٩٥ ـــ ١٨٢١) وشيلى (١٧٨٢ ـــ ١٨٢٢) وبيرون (١٢٨٨ ـــ ١٨٢٤) . وكذلك كان له المـــام يسير بالفرنسية من تعلمه فى الجامعة الأمريكية ، ويبدو أنه كان يعرف شيئا يسيرا أيضا من التركية ، كما انه حرص مدة على تعـــلم الألمـــانية ... ثم انه تعلم بضع دروس من اللغة الأسبانية(٦٤) .

---

(٦٣) انظر القصيدة كلها فى ديوان ابراهيم ١٤٨ ـ ١٤٩ .

(٦٤) انظر : فروخ : شاعران معاصران ٧ وناصر الدين الأسد : الشعر الحديث فى فلسطين والاردن ١٤٤ .

نفسه طـــوع همـــة ... وجمـــت دونهـا الهمم
تلتقى فى مزاجهـــا ... بالأعاصـــير والحمم
تجمـــع الهـــائج الخضم ... الى الراســـخ الأشـــم
وهى من عنصر الفـــدا ... ء ومـــن جـــوهر الـــكرم
ومن الحـــق جـــذوة ... لفحهـــا حـــرر الأمم

فالصورة هنا ممتدة الأرجاء ، ليس فيها ملمح تقريرى مباشر ، والخيال هنا خيال رومانسى ابتكارى من أدواته تجسيم المعنوى ، وتشخيص المادى ، وكذلك المزج بين هـــذه النفس العظيمة ... نفس المجاهد الفادى ومظاهر الطبيعة المختلفة مزجا يصل الى درجة الحلول : فهمته تفوق كل الهمم قـــدرة وقـــدرا ، وقـــد تجسدت فى نفسه مظاهر « **الوجود المتمرد** » و « **الطبيعـــة الثائرة** » فى عنفوانها المتفجر فى أعاصير وحمم ، وبحر هائج ، وراسخ أشم . وكلها مظاهر تشد منا النظر والسمع والمشاعر النفسية : فالمتحرك الموار منها يوحى بملمح فريد فى أبعاد الصورة من قوة وثورة وغلية ، والثابت منها يضيف الى أبعاد الصورة بعـــدا آخر يتمثل فى الصمود والاباء والشمم ، لأن مثل هـــذه النفس قـــد صيغت من جـــوهرين عزيزين : جـــوهر الفـــداء والتضحية وجـــوهر الكرم والجـــود : لا بالمـــال ولكن بالنفس ، والجـــود بالنفس أقصى غاية الجـــود .. بل ان جـــوهر الكرم ليستوعب ما هـــو أكثر من ذلك ــ انه يستوعب « النزول » عن كل ما يشد نفوس الناس الى دنيا الناس مما يحرصون عليه من مال وبنين وزخرف وزينـــة . والبطـــل الشهيد يسلك هـــذه السبيل دفاعا عن **حـــق مشروع** ، وكل أولئك يجعل منه « مثلا أعلى » تحتذيه الأجيال فى الكفاح والنضال لتحقيق الحرية والحياة الكريمـــة .

ومن الأدوات الفنيـــة فى هـــذا التصـــوير أيضـــا **الكلمـــة الراســـمة** لا بمضمونها المعنوى فحسب ، ولكن بجرسها القارع الصارخ الذى يناسب هـــذه النفس فى مزاجها انقوى الجبار مثل : **الأعاصير ــ الحمم ــ الهائج ــ الخضم ــ الراسخ ــ الأشم ... الخ .**

وساعد على خلق هـــذا الجـــو : الوزن القصير المتلاحق النغم وقافية الميم الساكنة فكأنها قرع طبـــول الحرب فى معركة عاتيـــة . فالصورة عند

طوقان كما هى عند الرومانسيين « وسيلة للكشف عن الحقائق النفسية والخلجات الشعورية عن طريق الحدس والخيال ، فترتسم الحقيقة واضحة محسوسة لا منطقية مجردة ، ويتعاون على رسمها المضمون والشكل »(٦٥) .

ونكتفى بهذا التمثيل لسمة فارقة توسع فيها ابراهيم طوقان وهى طابعه الرومانسى فى خياله وتصويره ، وقد ظهرت هذه النزعة الرومانسية عند ابراهيم فى بداياته الشعرية مثل قصيدة « **ملائكة الرحمة** »(٦٦) ، وفى كثير من قصائده الأخرى مثل « **لمن الربيع** »(٦٧) وقصيدة « **معين الجمال** »(٦٨) .

الأغراض والآفاق الشعرية :

لعبد الرحيم محمود عدد من القصائد والمقطوعات تدين الظلم الاجتماعى والاستغلال الطبقى وتنتصر للعمال الكادحين ، وقد تفوق عبد الرحيم فى هذا النوع من الشعر على أستاذه « حين خاطب الطبقات الدنيا فى المجتمع كالعمال والحمالين وغيرهم ، فنفخ فيهم من روحه الثائرة ، وحيا فيهم صمودهم وصبرهم وكفاحهم . ولعل السبب فى ذلك انما يعود الى أن عبد الرحيم كان أكثر التصاقا بهذه الطبقات الفقيرة من أستاذه الذى كان على علاقة اجتماعية ما بطبقات المجتمع المخملى »(٦٩) .

فابراهيم طوقان من أسرة غنية ميسورة الحال بعكس عبد الرحيم الذى عاش فى ضيق من الرزق ولم يكن له من الدخل الا القليل الذى يأتيه من وظيفته بدليل ان آل طوقان كانوا يمدون له يد العون . ويظهر أن ذلك كان بصورة منتظمة لا تنقطع . والباعث الذى كان يدفع عبد الرحيم لمثل هذا الشعر لم يكن متوافرا عند ابراهيم طوقان .

---

(٦٥) د. غنيمى هلال : دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر نقده ٧٩ .

(٦٦) ديوان ابراهيم ١٤٢ .

(٦٧) السابق ٨٧ .

(٦٨) السابق ١٠٠ .

(٦٩) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٣٧٥ .

ويتفوق عبد الرحيم كذلك على أستاذه فى « الاسلاميات » أو شعر المناسبات الاسلامية . وقد رأينا له فى هذا المجال أربع قصائد من أطول ما نظم من الشعر . أما ابراهيم طوقان فليس له فى هذا المجال ما يستحق التوقف .

وينفرد عبد الرحيم بما يمكن أن نسميه بشعر الأحاجى ، وله فى هذا اللون قصيدة تزيد على السبعين بيتا .

ولكن اذا نظرنا نظرة شمولية رأينا أن الآفاق التى حلق فيها ابراهيم طوقان أوسع مدى ، وخصوصا فى الغرض الرئيسى الذى اشتهر به كل منهما وهو الشعر الوطنى الفلسطينى أو شعر « **المعاناة الفلسطينية** » وهو الشعر الذى يواكب الأحداث ، ويصور نضال الشعب الفلسطينى فى مواجهة الانجليز واليهود بما فيه من بطولات وتضحيات . كان ما نظمه عبد الرحيم فى هذا الغرض يدل حقا على طبيعة الأحداث ، وملامح هذه الفترة من تاريخ فلسطين ، ولكنه لا يعطينا الخطوط الكاملة لخريطة هذه المرحلة ، وان تدفق ما نظم بحرارة العاطفة ونبل الشعور ، فهناك فجوات زمنية طويلة بين هذه القصائد .

أما ابراهيم طوقان فكان شعره فى هذا الغرض سجلا حافلا منتظما لنبض الأحداث والرجال والمواقف ، وهو سجل اتسع لكل الأنماط حتى المتناقض منها : فحديثه عن الخيانات والتفريط وسماسرة الأرض والزعماء الجوف والمهادنين فى حق الوطن لا يقل عما نظمه فى مواقف البطولة والجلال والتضحية والفداء ، فعبد الرحيم محمود — كما قال عمر فروخ(٧٠) « يأتى فى المرتبة الثانية بعد ابراهيم طوقان فى هذا الباب من القول ، ولكنه فوق جميع الذين قالوا ، لأنه كان من المجاهدين الشهداء » .

الحنين الى الوطن :

ولعبد الرحيم محمود قصيدتان فى الحنين الى الوطن . وحنين الشاعر الى وطنه أمر طبيعى ، وهو موضوع له مكانه الأصيل فى الشعر العربى

(٧٠) شاعران معاصران ، هامش ١٠٤ .

قـديمه وحـديثه ، سواء اكان ذلك فى قصـائد مستقلة ، أو أبيـات فى تضاعيف قصيدة .

وقـد يلفت النظر أن ابراهيم طوقان ليس له قصيدة واحـدة فى هـذا الغرض على الرغم من انه فارق وطنه الى لبنان ومصر والعراق لفترات من الزمن يمتد مجموعها الى عـدة سنوات وقـد يرجع ذلك الى أن خروجه من الوطن كان « سفرا » اختياريا غير مصحوب بتسلط أو اكراه كالحال بالنسبة لعبد الرحيم محمود الذى فارق وطنه تحت ضغط مطاردة المستعمر للوطنيين والمجاهـدين ، وشتان ما الدافعان والباعثان .

على أن حياة ابراهيم طوقان فى بيروت بخاصة كانت ولا شك أكثر وداعة وهـدوءا واستقرارا وسلاما من حياة عبد الرحيم فى العراق ، وهى حيـاة كانت مشحونة بالعمل الشاق ، والنضال المسلح ضـد الانجليز . بل كانت سنوات الطلب فى بيروت أهنأ سنوات حياة ابراهيم حيث ظلله « أفق ادبى واسع لا عهد له بمثله فى فلسطين . هنالك الأدباء والشعراء ، وهنالك الدنيا براقة خلوب »(٧١) . وهناك اشتعل قلبه حبا وهياما بفتنة تمثلت فى صورة فتاة فلسطينية طالبة بالجامعة الأمريكية(٧٢) .

وبعـد أن عاد الى بيروت معلما فى الجامعة الأمريكية سنة ١٩٣٠ عادت المرأة ، أو بالأحرى عاد الجمال يحرك قلب ابراهيم ، وكان هـذه المرة فى شكل فتـاة أسبانية تعرف اليها فى بيروت(٧٣) . فبعـد ابراهيم عن وطنـه اذن لم يكن مصحوبا بمرارة الاغتراب ، وحرقة الحرمان « اذ كانت بيروت عنده بمنزلة الوطن الثانى له ، يرى فى أهلها أهله ، وفى عشيرتها عشيرته »(٧٤) أو كما قال هـو :

أول عهـدى بفنـون الهـوى بيروت أنعم بالهوى الأول(٧٥)

---

(٧١) فـدوى طـوقان : أخى ابراهيم ١٦ .

(٧٢) السـابق .

(٧٣) السـابق ٢٥ .

(٧٤) السـابق ٢٤ .

(٧٥) ديوان ابراهيم ١٢٨ .

ومن حقنا بعـــد ذلك أن نقول أن ابراهيم طوقان انصرف عن الحنين الى الوطن .. الى قصـــة حب عاتية فى سنوات الطلب ، والى عشق الجمال فى فتاة أسبانية أشبيلية فى سنوات العمل فلم يشتعل قلبه لهفة وتطلعـــا وشوقا الى العودة الى الوطن(٧٦) .

أما عبد الرحيم محمود فكانت سنوات الغربة مختلفة ـــ كما رأينا ـــ فى دوافعها وصورتها ، ومن ثم كان عجبنا من يكون له فى « الحنين الى وطنه » قصيدة أو قصيدتان فحسب .

المرأة والغزل :

فالحنين الى الوطن غرض تفوق فيه عبد الرحيم على ابراهيم طوقان ، وان شئت فقـــل : انفرد به دونه . وهـــذا الحـــديث يجرنا الى ملمح فارق آخر يتعلق بحياة الشاعرين وفنهما ، وأعنى به : **مكان المرأة** فى حيـــاة كل منهما من ناحية ، **وطبيعة شعر الغزل** فى ديوان كل منهما من ناحية أخرى .

لقـــد كان للمرأة وجودها القاهر الحاد فى حياة ابراهيم ، فعاش قصة حب جارف فى بيروت سنة ١٩٣٦ ، وكان لهـــذا الحب أثره الكبير فى نفسه وشعره « فصار قوى الملاحظة ، حاضر العاطفة ، متوفز الأعصاب ، كثير المطالعة ، صيادا للمعانى ، بسيط العبارات ، وشغل ابراهيم بالغزل سماعا وقراءة ونظما »(٧٧) ونظم فى حبيبته قصيدة أثارت كلاما كثيرا وهى قصيدة « **فى المكتبة** »(٧٨) وتوالت قصائده بعـــد ذلك تحكى قصة حبه الذى شاء القدر

---

(٧٦) انظر قصة حبه لغادة كفركنة (م٠ص) أو مارى صافورى من ص ١١٩ الى ص ١٣٤ من كتاب « ابراهيم طوقان فى وطنياته ووجـدانياته » للبدوى الملثم ٠ ومن ص ٣٠ الى ص ٥٢ من كاتب « الغوانى فى شـعر ابراهيم طوقان » للكاتب نفسه ٠ وأنظر قصة غرامه فى بيروت بالراقصـــة الأسبانية الأشبيلية من ص ١٥٦ الى ص ١٦٦ فى الكتاب الأول ٠ ومن ص ٨٠ الى ص ٩٤ من الكتاب الثانى ٠ وقـد كان حبه الأول أعمق أثرا وأبعـد مدى بكثير من حبـه الثانى ٠

(٧٧) فـتوى طـوقان : السـابق ٢٠ ٠

(٧٨) ديوان ابراهيم ٩٨ ٠

أن ينتهى بمأساة . وتجـــدد هـــذا الحب ، وان لم يكن بنفس القدر والحدة فى بيروت ، وكانت الحبيبة هـــذه المرة هى الأسبانية الحسناء .

أما عبد الرحيم محمود الذى كان النضال المسلح هـــو همه الأول فلم يكن للمراة فى حياته هـــذا الحضور القوى القهار ، فلم تشغل حياته ـــ من وجهة نظرى ـــ قصة حب من هـــذا اللون الحاد . وهـــذا لا يعنى أن قلبه لم يتحرك بحب « سلمى » أو غيرها ، ولكنى أعنى انه لم يكن عميق الأبعاد ضارب الأطناب مستغرقا للنفس كما رأينا عند ابراهيم طوقان . وهـــذا يقودنا الى ملاحظة فارقين مهمين فى الغزل عند كل منهما : الفارق الأول : يتعلق **بالطبيعة الفنية** لهـــذا الغزل . والفارق الثانى يتعلق **بصورة المحبوبة** .

فغزل ابراهيم طوقان يتسم بصدق الاحساس وتدفق الشعور وحرارة الوجـــدان . ورهافه حسه تشعرك بأنك أمام شـــاعر محب حقيقى « حاضر العاطفة ، متوفز الأعصاب » وحضور عاطفته جعلته دقيق الملاحظة يعطى من دقائق المحبوبة فى الحركة والملامح ما قـــد يغيب أو يغفل عنه غير الشاعر المحب الذى يعيش حبه ومحبوبه . وهى سمة فنية تسترفد مصدرين : عمق الشعور ودقة الملاحظة ، كما نرى فى قصيدته « **فى المكتبة** »(٧٩) . وهى أول قصيدة نظمها فى الفتاة الفلسطينية طالبة الجامعة الأمريكية التى علقها قلبه ، وفيها يصور هيئة صاحبته وهى تقرأ وتقلب صفحات الكتاب :

يا ليت حظ كتابهـــــا لضـــلوعى المتعـــذبه
حضنته تقرأ ما حـــوى وحنت عليـــه وما انتبـــه
فاذا انتهى وجـــــه ونا ل نكاؤها ما اســـتوعبه
سمحت لأنملهـــا الجمي ـــل بريقهـــا كى تقلبـــه

وفى هـــذه الأبيات وغيرها تمتزج وتتعانق بساطة التعبير والتصـــوير مع عمق الشعور بلا تصيد أو تكلف . وكل ذلك هـــو جوهر الصدق الفنى . ولننظر بعض أبياته ، وهـــو يعطى ملمحا **صوتيا** لحبيبته بعـــد أن عرض لهـــا ملمحا **حركيـــا** :

---

(٧٩) ديوان ابراهيم ٩٨ .

وسمعت وهى تفمـــــ ـــفم الكلمات نجوى مطربه
ورأيت فى الفم بدعـــــة خـــــلابة مســـتعذبه
احـــدى الثنـــايا النيـــــ ـــرات بدت وليس لهـــا شبه
مثلـــوبة من طرفها .. لا تحسبنها مثلبـــــه
هى لو علمت من المحـــا ســـن عنـــد ارفـــع مرتبـــه
هى مصـــدر الســـــينا ت تكسبها صدى ما أعذبه

وتطرد هـــذه العاطفة الأصيلة بصدقها الفنى فى اغلب قصائده الغزلية مثل « **عند ثباكى** »(٨٠) و « **معين الجمـــال** »(٨١) و « **حملتنى نحـــو الحى اشجانى** »(٨٢) . ولكن ابراهيم له عـــدد من القصائد الغزلية ذات الطـــابع الحسى الصارخ مثل قصيدته « **فى دير قديس** »(٨٣) ، وقصيدة « **اشربى** »(٨٤) . ولم تخل بعض قصائده الغزلية من اسراف ومبالغات يعوزها نبض الشعور وصـــدق الاحساس مثل قصيدته « **هـــواك جبار** »(٨٥) .

ولعل ما نراه من حسية وتهتك فى بعض غزليات ابراهيم كان صـــدى لليالى بيروت الصاخبة ، ممـــا يدخـــل فى باب « **الغزل اللاهى** » . ولكن ذلك يعـــد قليلا اذا قيس بقصائد غزله الصادق الأصيل .

أما أغلب غزليات عبد الرحيم فما أراها الا من قبيل **المجـــاراة الفنيـــة لشعراء العصر الذين ليس فيهم الا ومن عنده للغزل نصيب يستوى فيهم من أحب ومن لم يحب** . لذلك جاء كثير منه باردا لا يهز النفس ، ولا يحرك الاحساس . بل نحس فى أغلب غزلياته ـــ وقـــد قلنا ذلك فى الفصل الثانى من هـــذه الدراسة ـــ بلهجة « **الآمر الناهى** » أو « **الثائر الرافض** » ، وهى النبرة العالية الغالبة على هـــذه الغزليات .

---

(٨٠) الســـابق ٩٦ .
(٨١) الســـابق ١٠٠ .
(٨٢) الســـابق ١٠٢ .
(٨٣) الســـابق ١٠٨ .
(٨٤) الســـابق ١٢٠ .
(٨٥) الســـابق ١١٥ .

طبيعـــة المحبـــوبة :

وابراهيم طوقان محب متسق مع نفسه الرقيقة ، ومحبوبته شخصية سوية ، وهـــو ـــ غالبا ـــ المحـــب المستعطف ، ومحبـــوبته هى المطـــلوبة المستعطفة التى يطلب منها الصفح والعفو والمغفرة والحنان والوصال . وتلك هى طبيعة المحبين ، فهو يظل على الوفاء ، ويستبد به الحنين بعـــــد أن هجرته حبيبته وفقـــد بذلك « **فؤاده والأمانى والهـــدى** » ، وأبقت له لوعـــة « **الهـــوى والسقم والحنين المؤبد** »(٨٦) . ومن هنا كانت نظرته للمرأة نظرة سوية لأنها نظرة **المحب العاشق** الى نموذج المرأة المعشوقة ... نموذج الانثى السوية التى تحب وتحب ، وتجفـــو وتهجـــر لتترك فى قلب الحبيب الشاعر المـــا عبقريا يفيض شعرا وأدبا .

واذا استثنينا القليل الأقل من **غزليات** عبد الرحيم وجـــدنا أنشـــاه شـــخصية « **سيكيوبانية الهـــوى** » أو شـــخصية « **سادية الطبيعة** » غادرة لا تعرف الوفاء ، ولا تصون للحب عهدا ، كأنما قـــد غـــذيت بالغـــدر ، وتربت عليه ، وهو فى مواجهتها يقف موقف التجهم والرفض والاستعلاء :

بنيت وأعليت الأمانى ضـــلة ... فهدمت لى بالغدر شامخ أحلامى(٨٧)
غدرت وجئت الآن تستغفرينني ... لنقضك عهد الحب من بعد ابرام(٨٨)
وقلبك هـــذا يا لقلبك غادرا ... سأسحقه ثأرا لقلبى بأقـــدامى(٨٩)
اذا تلاقينـــــا فـــــلا تنظرى ... أرى وميكى الغدر فى ناظريك(٩٠)
قالت أتنسى ؟ قلت لم لا وقـــد ... نسيت ميثاقى وخنت العهـــود(٩١)

ففى هـــذه الأبيات **الغزلية** ـــ وغيرها كثير ـــ تطل علينا معانى الغدر والخيانة ونكث العهـــود ونقض الوعود وتخريب الآمال ... الخ ، وتلك هى

---

(٨٦) أنظر قصيدة « خطرة فى الهـوى » ديوان ابراهيم ١٠٩ .
(٨٧) ديوان عبد الرحيم ١٨٥ .
(٨٨) السابق : نفس الصفحة .
(٨٩) السابق : نفس الصفحة .
(٩٠) الســـابق ١٧٥ .
(٩١) الســـابق ١٧٦ .

صـــورة **الحبيبة** ، ويقف الشاعر **المفجوع** موقف الرافض المتحدى ، وهـــو شاكى السلاح كأنه فى ساحة من ساحات الوغى .

روح الميدان والقتال :

ومن السمات الفارقة بين الشاعرين ســـمة تتلخص فى أن شـــــعر عبد الرحيم فى مجموعة **شـــعر جـــاد** تحس فيه صلابة الفرسان ، وجهـــامة المعاناة قبل أن تحس فيه برقة الشاعر ، ورفاهة الفنـــان .... انه شـــعر يعكس **طبيعة الميدان** الذى رفـــع فيه السلاح مناضلا مقـــاتلا ، وهـــذه السمة لازمته حتى فى أغلب غزلياته كما رأينا .

وهـــذه الجهامة ، وتلك الجـــدية الحادة حتى فى الأغراض التى تحتاج الى الرقة والتدفق العاطفى لا نجـــد منها أثارة فى شعر ابراهيم طـــوقان الذى يتدفق شعره فى كثير من قصائده بالرشاقة وخفة الروح والفكاهة ، حتى فى مواقف الشدة والكرب « وانك لتتصفح ما خلفه من مآثره الأدبية فتراه قـــد عرض فيها مرارا عـــديدة لذكر مرضه وسقمه ، ولكنه عرض مرح مبتسم لا روح للتشاؤم فيه ، ولا أثر لشكوى الزمان اذ كان المرح والابتسام خلقه فى ابراهيم ، فلم يكن لينظر الى الدنيا الا من وجهها الضاحك المشرق »(٩٢) .

ومن أمثلة ذلك ما قاله فى ابان مرضه فى قصيدته « **الدم الخفيف** »(٩٣) :

وطبيب رأى صـــحيفة وجهى ... شاحبا لونها وعـــودى نحيفا
قال لابد من دم لك نعطيـــ ... ـــه نقيا ملء العروق عنيفـــا
لك ما شئت يا طبيب ولـــكن ... أعطنى من دم يكون خفيفـــا

وهـــذه الابتسامة الفكهة تتحول الى سلاح ماض من أسلحة النقـــد الاجتماعى والسياسى فى شكل سخرية مرة من الأحزاب المتطاحنة ، والزعماء الجـــوف المشغولين بأنفسهم عن الأمة وعن الكفاح العملى من أجلها ، فهم

---

(٩٢) فـدوى طـوقان : أخى ابراهيم ٢٧ .

(٩٣) ديوان ابراهيم ١٤٥ . وانظر كذلك قصيدته « الشاعر المعلم » ١٤٨ .

أبطال ؟ !! تقف بطولتهم عند **الاحتجاجات والمظاهرات والهتافات**(٩٤) . كما يسخر بالانجليز و « **عـــدالتهم** » وصداقتهم ، ولطفهم وأفضالهم(٩٥) !!!

القصص الرمزى :

ويكاد ابراهيم طوقان ينفرد بغرض شعرى لمسه عبد الرحيم لمسا خفيفا وان لم يضرب فيه بسهم واف واعنى به **القصص الرمزى** ، فلابراهيم فى هـــذا الغرض آيات رائعات مثل « **الحبشى الذبيح** »(٩٦) التى نشرت فى جريدة « البرق » سنة ١٩٣١ ، والتى قـــدم لهـــا شارحا الرمز فيها بقوله :

« **هـــذه الديكة الحبشية أو الديكة الهندية التى يذبحونها على رنين الأجراس ، وافراح المعيدين لتكون (عروس المـــائدة) تعمل فيها المـــدى تقطيعا وتشذيبا لتمتلىء بها البطون مروية بكئوس الخمر من بيضاء وحمراء . كذلك هى الأمم المغلوبة على امرها كانت وما برحت « عروس الموائد » شان « الحبشى الذبيح » . أما ريشه فتحشى به الوسائد ، وأما لحمه فتحشى به البطـــون** » .

واذا كانت قصيدة « **الحبشى الذبيح** » تمثل لقطة قصصية واضـــحة الرمز ، فان رائعته الطويلة « **مصرع بلبل** »(٩٧) — وهى قرابة ثمانين بيتا — تعتبر فنا جـــديدا فى القصة الشعرية نلمس فيها تأثر ابراهيم بالأدب الغربى دون أن يفقد مميزات خياله الخاص ، وتعبيراته الشعرية الخاصة(٩٨) وهى ذات مغزى اجتماعى أخلاقى رفيع اذ تصور واقعـــا يتكرر دائما بلا انقطاع فالشاب الريفى ابن القرية الصغيرة يهبط المدينة الكبرى لأول مرة فيلقى بنفسه مبهورا فى أحضان مفاتنها ومنازل التهتك فيها ، فيخسر المـــال والصحة والمستقبل ، وتدور القصة على محاور ثلاثة مشخصة هى **البلبل** وهـــو رمز

---

(٩٤) انظر ديوان ابراهيم ٧٩ . مع ملاحظة ان عبد الرحيم عالج بعض هـذه الأفكار معالجة فيها سخرية وفكاهة ولكنها لا تعـد شيئا ـ كما وكيفا ـ اذا قيست بما ماضت به روح ابراهيم الساخرة المتهمكة الفكهة .

(٩٥) انظر السابق ٨٢ .

(٩٦) ديوان ابراهيم ١٤٦ .

(٩٧) ديوان ابراهيم ١٨٤ .

(٩٨) فـدوى طـوقان : أخى ابراهيم ٢٨ .

للشاب المبهور المخـــدوع ، **والوردة** وهى رمز لبائعة الهوى والعبث والمتعة . أما **الروض** فهو رمز الحانة أو المنهى ، وبتعبير أكثر سماحة هـــو رمز المجتمع البـــاهر الجـــديد .

وتمضى الطـــوابع القصصية الدرامية مع طوقان بعيدة عن الجفـــاف التقريرى ، فهو فى الأحـــداث التى يسوقها فى الحوار بنوعيه : الخارجى والداخلى نحس معه بتدفق الشعور ، وتوهج العاطفة ، ونبض الموســـيقا النفسية الأسرة ، ولكن يعيبه أنه فى ثنايا قصته الرمزية يصرح ببعض العناصر الرمزية مما يفقد الرمز قيمته بهـــذا التصريح كتصريحه بأنه يعنى بالوردة حـــــواء :

هى حواء ذلك الخلد فاحـــــذر ... لا تكونن أنت (آدم) فيـــه
لا تهب قلبـــك الكريم لئيمـــا ... تحت رجليه عابثا يلقيـــــه(٩٩)

والطابع القصصى يلازم ابراهيم طوقان فى كثير من قصائده كما نرى فى مطولته الدرامية « **الثلاثاء الحمراء** »(١٠٠) ، وتلازمه هـــذه النزعة كذلك فى كثير من قصائده القصصية مثل قصيدة « **فرحتى** »(١٠١) وقصيدة « **هـــواك جبـــار** »(١٠٢) وقصـــيدة « **كـــارثة نابلس** »(١٠٣) ، وقصـــيدة « **صـــاحب عمران** »(١٠٤) . ففى هـــذه القصائد وغيرها انعكستثقافة ابراهيم الأدبية الأجنبية ، فتوفر لهـــا طوابع وعناصر درامية مثل الحوار والتعقيد الفنى والارتداد الى المـــاضى لعلاقة مشابهة بينه وبين الحاضر وغير ذلك .

وقـــد ذكرنا من قبل أن عبد الرحيم قـــد انفرد ـــ دون أستاذه ـــ بما يمكن أن نسميه **بشعر الأحاجى** وقـــد تمثل ذلك فى قصيدة طويلة تزيد على السبعين بيتا ترسم أحاجيها الشخصيات التى تعتبر أطرافا أنضجت مأساة

---

(٩٩) ديوان ابراهيم ١٨٨ .
(١٠٠) الســـابق ٤٢ .
(١٠١) الســـابق ١١٢ .
(١٠٢) الســـابق ١١٥
(١٠٣) الســـابق ١٥٧ .
(١٠٤) الســـابق ١٦١ .

فلسطين ويمـــكن اعتبار هـــذه القصيدة مطـــولة قصصية رمزية ، ولكن عبد الرحيم فى هـــذا الفن مقـــل ولا يرقى لمستوى أستاذه وصديقه ابراهيم .

وقـــد حاول عبد الرحيم فى قصيدته « **نجـــوى المحتضرة** »(١٠٥) أن يضع « قصة حوارية » أو مشهدا دراميا فى هيئة حوار بين ابراهيم طوقان وحبيبته « ليلى الصفورى »(١٠٦) ، ولكنه لم يحرز نجاحا فى هـــذه المحاولة التى جاءت فى ثمانية وثلاثين بيتا على وزن واحـــد وقافية واحـــدة ، فالخيال ضعيف قعيد ، والمعانى سطحية ساذجة ، وفى الحوار ضعف وتزيد وكلمات دارجـــــة .

ولكن عمليه الجليلين « **رثاء حمال** » و « **حجر فى كثبان رمل** » يمكن أن ينظر اليهما من زاوية « الرمزية الموضوعية » ، وهى نظرة يرجحها الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى فلسطين آنذاك . ولن يبعـــد ويسرف من قال ان الأولى ارهاص « بضياع الوطن » وأن الشاعر يرثيه فى شـــخصية هـــذا الحمال ، وينعى على أبناء الوطن تفريطهم وتهاونهم . وربما أراد أن يتخـــذ من الحجر رمزا للانســـان الفلسطينى ، أو لفلسطين نفسها التى انفردت تناضل ، وحولها قفر من الضمائر الخربة ، وعواطف من المؤامرات والغـــدر والخيـــــانات .

الأناشـــــيد :

وأخيرا ينفرد ابراهيم طوقان بباب من الشعر ندر أن يكون نعبد الرحيم منه نصيب وهـــو « الأناشيد »(١٠٧) . وهـــو لم يقتصر فى هـــذا البـــاب على وطنه فلسطين فحسب ، بل كان للبلاد العربية من هـــذا الباب النصيب

---

(١٠٥) ديوان عبد الرحيم ١٨٢ .

(١٠٦) الصحيح أن اسمها « مارى الصفورى » ، وهى الفتاة التى أحبها ابراهيم فى بيروت ، وكان يرمز اليها بالحرفين (م.ص) .

(١٠٧) أنظر ديوان ابراهيم طوقان ١٩٢ – ٢٠٤ .

الوافى مثل « نشيد رثاء غازى » و « أشـــواق الحجـــاز » و « فتية المغرب » و « نشيد بطـــل الريف » ، وبعض هـــذه الأناشيد لحن وغنى .

* * *

الأسلوب والشكل الفنى :

فاذا ما تركنا جانب الأغراض والمضامين الى جانب اللغة والأداء التعبيرى وجـــدنا ابراهيم طـــوقان أوفى لغـــة ، ومعجمـــه الشعرى أغنى وأثرى ، وأسلوبه أسلس وأطـــوع ، كما أنه أكثر حـــداثة وتحررا فى اسلوبه من عبد الرحيم الذى ظـــل الى آخر حياته وفيا للقوالب الكلاسيكية . وهـــذا الفارق نتيجة طبيعية للفارق بين ثقافة الشاعرين كما وكيفا ، فابراهيم طوقان أوسع ثقافة من عبد الرحيم اذ جمع ابراهيم — على نطاق واسع بين القديم والجـــديد ، وثقف الأدبين العربى والانجليزى كما أن الظروف الاجتماعية والأدبية والثقافية فى بيروت كانت تعطيه من الأمداد اللغوية والفكرية ما لم يتوفر لشاعر مقاتل مطارد لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له مقام أو بال .

ونتيجة لهـــذا الفارق الثقافى والاجتماعى والنفسى كان ابراهيم طوقان أكثر تجـــديدا فى شكل القصيدة من عبد الرحيم محمود.صحيح انهما يشتركان من الناحية الشكلية فى أمرين :

الأول : اطراد شكل القصيدة التقليدية ذات الوزن الواحـــد والقافيـــة الواحـــدة فيما نظما .

الثانى : انحصار التجـــديد الشكلى فى نظام المقطوعة .

ولكن عبد الرحيم — على الرغم من اعتماده كثيرا على المقطوعة ذات الروى المخالف — التزم غالبا البحر الواحـــد من أول القصيدة الى آخرها ، على الرغم من اختلاف المقطوعات فى الروى كما ذكرت . وهـــو تجـــديد فى الشكل محـــدود المـــدى ، وقـــل ان نجـــد عنده فى القصيدة الواحـــدة المقطوعات المختلفة وزنا وقافية .

أما ابراهيم طوقان فلم يقف عند حـــدود المغايرة فى روى المقطوعات مقطوعة مقطوعة ، ولكن تجـــديده فى هـــذا النطاق أخـــذ أشكالا متعـــددة ، كمـــا نرى فى قصـــائده « **الثـــلاثاء الحمراء** »(١٠٨) و« **حملتنى نحـــو الحمى اشجانى** »(١٠٩) و « **فرحتى** »(١١٠) و « **هـــواك جبار** » (١١١) و « **مصـــــرع بلبـــــل** »(١١٢) .

* * *

تفـــاوت المستوى الفنى :

ونختم هـــذه الموازنة بوقفة مع ظاهرة « اختلاف المستوى الفنى » فى شعر كل منهما . وهـــذه السمة ليست خصيصة اختص بها الشاعران « فكل شاعر يمر فنه بمراحل ومستويات يتفاوت فيها هـــذا الفن صعودا وهبوطا ، تقـــدما وتأخرا ، اتساعا وانقباضا . وقـــد تنتظم درجات التطور فى تصاعدها النظيم . وقـــد يفتر فن الشاعر فى مرحلة متأخرة من عمره الأدبى . وقـــد تختلف الدواعى النفسية قـــوة وضعفا ، فيتذبذب المستوى الفنى للشـــاعر ، ويكون شعره كساحة الملوك تضم الدر والنوى »(١١٣) .

فاختلاف المستوى الفنى بين قصائد الشاعر الواحـــد أمر طبيعى وحقيقة لا تنكر ، كاختلاف الشعراء بعضهم عن بعض ، واختلاف المستوى عند الشاعر الواحـــد يرتبط بعـــدة عوامل من أهمها « المستوى الوجـــدانى » أثناء عملية الابداع الفنى ، كما يرتبط بالتطور الفكرى والثقافى عند الشاعر ومن ثم لم يكن من اللازم اللازب أن يكون انتـــاج الشاعر أرصن وانضج من انتاجه السابق بدعوى انه فى حاضره أكثر خبرة وأطول معاناة وأنضج ثقافة

---

(١٠٨) ديوان ابراهيم طـوقان ٤٢ .

(١٠٩) الســـابق ١٠٢ .

(١١٠) الســـابق ١١٢ .

(١١١) الســـابق ١١٤ .

(١١٢) الســـابق ١٨٤ .

(١١٣) جابر قميحة : منهج العقاد فى التراجم الأدبية ٤٢٩ .

لأن من يعملون هـذه القاعـدة على اطلاقها يغفلون أو يتغافلون عن عنصر مهم جـدا وهـو مدى تفاعل الشاعر مع موضوعه واستجابته له ، ودرجة التوهج الوجـدانى ساعة الابداع الشعرى .

فتطور شعر الشاعر ـ أى شاعر ـ لا يمثل بالضرورة خطا بيانيا مطرد الارتفاع ، بل قـد يتذبذب هـذا الخط ويتعرج تصويرا وتعبيرا ... ارتفاعا وانخفاضا تبعا للمستوى العاطفى . ونحن بذلك لا نغض من قيمة العناصر السابقة من ثقافة وخبرة وتمكن لغـوى ، فكلها مآصـل أساسية يسترفدها الشاعر ، ولكنها تفقد قـدرتها فى صورتها المثلى ما لم يكن الشاعر متوهج العاطفة صادق الشعور . وتأسيسا على ذلك يجب ألا يأخـذنا العجب اذا ما راينا بعض شعر البدايات الابداعية عند الشـاعر أنضج من بعض شعره اللاحـق ، وهـذا ما لمسناه فعـلا عند شـاعرنا عبد الرحيم محمود : فقصيدته « **نجم السعود** »(١١٤) ، أصـدق عاطفة وامتن نسجا وأسلس أسلوبا من بعض قصائده التى نظمها بعـد ذلك بعـدة سنوات مثل قصيدة « **نجـوى المحتضرة** »(١١٥) .

ويصـدق هـذا أيضا على ابراهيم طوقان ، فقـد كانت أول قصيدة لفتت اليه الأنظار فى لبنان ـ وهـو دون العشرين ـ قصيدته « **ملائـكة الرحمة** »(١١٦) ، وقـد قال عنها الأستاذ فروخ أن ابراهيم أتى فيهـا بكل احسان ، وبلغ ذروة الشاعرية من حيث الأسلوب والموضوع والعبقرية(١١٧) ، أما القصـيدة التى نظمها الشـاعر بعـد ذلك واسمها « **عـارضى نوحى بسجع** »(١١٨) ، فكانت كما قال عنها شقيقه أحمد « سخيفة المعنى ، ركيكة

---

(١١٤) نظمها الشاعر والقاها بحضرة الأمير سعود بن عبد العزيز فى ١٤ـ٨ـ١٩٣٥ .

(١١٥) نشرت سنة ١٩٣٨ فى احـدى المجلات البيروتية .

(١١٦) فـدوى طـوقان : أخى ابراهيم : الديوان ١٧ . وانظر القصيدة فى الديوان ١٤٣ .

(١١٧) عمر فروخ : شاعران معاصران ٧١ . وقـد نظمها ابراهيم سنة ١٩٢٤ . أما أول قصيدة نشرت له فقبل ذلك بعام .

(١١٨) لم تنشر القصيدة بالديوان ، ويظهر أنها من القصائد التى حـنفها ابراهيم بنفسه لأنه هـو الذى أجاز ما ينشر فى الديوان قبل أن يمـوت [انظر تقـديم شقيقة احمـد للديوان ٩ ـ ١٠] .

المبنى .. وكلها تكلف وحـــذلقة . وقال عنها الشيخ سعيد تقى الدين : انها لا شيء بالنسبة الى قصيدة : ملائكة الرحمة »(١١٩) كما أن قصيدة « ملائكة الرحمة » هـــذه تفوق فى خيالها ونسجها قصيدة طويلة لطوقان نظمها بعـــد ذلك باحـــدى عشرة سنة ، وهى قصيدة « **مرابع الخلود** »(١٢٠) .

ومن يقرأ ديوان ابراهيم طوقان لا يستطيع أن ينكر أن هناك تفاوتا فى شعره . ويرى الأستاذ عمر فروخ(١٢١) انه تفاوت كبير جـــدا فى خصائصه اللغوية ، وخصائصه المعنوية ، ويعلل هـــذا التفاوت المعنوى بأن ابراهيم شاعر وجـــدانى فى صف عمر بن ابى ربيعة وبشار وابى نواس وابن الرومى وابى فراس ، والشاعر الوجـــدانى لا يجيد الا اذا انفعلت نفسه انفعالا شديدا ، أما اذا أراد أن ينظم فانه يبطىء فى نظمه كثيرا ، ويتعثر ، ثم لا يرضى بعـــد ذلك كثيرا مما تأتى قريحته ، وكذلك كان ابراهيم . فمن الأمثلة البارزة على شعره الوجـــدانى الرائع قصائده « ملائكة الرحمة » و « والفـــدائى » و « الثلاثاء الحمراء » و « غادة أشبيلية » .

أما شعره الذى لم يرض عنه ـــ وان كان قـــد أجاد فيه ـــ فمنـــــه قصيدته « فى مهرجان المتنبى » مثلا ، ثم قصائد أو أقسام من قصائد لم ير أن يضمها الى ديوانه . وشعره الضعيف ليس من عهده الأول بنظم الشـــعر فحسب ، ولكنه معرق فى جميع حياته الشعرية .

ويرى الأستاذ فروخ كذلك أن التفاوت فى لغـــة ابراهيم كان تابعـــا للتفاوت فى خصائصه المعنوية ، فحيث اتسقت لغته مع وجـــدانه كانت لغة قـــوية ، أما اذا جانب طبعه فى النظم فان لغته كانت ترك أحيانا .

* * *

---

(١١٩) فحوى طوقان : أخى ابراهيم ١٨ .

(١٢٠) ديوان ابراهيم ٢٠٥ .

(١٢١) شاعران معاصران ص ٧١ وما بعدها .

ونحن نتفق مع الأستاذ فروخ فى وجـــود هـــذا التفاوت فى شـــعر ابراهيم . ولكن هـــذا التفاوت لم يكن بالضخامة التى صورها بل لعـــل ابراهيم طوقان يعتبر من أقل الشعراء تفاوتا فى شعره ويرجع ذلك الى شاعريته القـــوية الباكرة من ناحية ، واقبـــاله الدائم على العلم والأدب والثقافة الأجنبية من ناحية أخرى ، أى انه قـــد بلغ درجة كبيرة من النضج وتفتح الشاعرية والثقافة فى بداياته الأدبية ، ومن ثم قـــل التفاوت بين البدايات وما يليها ، وقـــد يضاف الى ذلك عامل آخر وهـــو « قصر عمره » ... فهو لم يعمر طويلا حتى تتسع حياته لعـــدد من المراحل الزمنية الفنية مختلفـــة السمات متفاوتة المستوى .

هـــذا وقـــد يقلل من قـــدر هـــذا التفاوت أن ابراهيم أعرض عن كثير من القصائد التى لم يرض عنها ، ولم يجز نشرها فى ديوانه الذى أشرف بنفسه على ترتيبه واختيار قصائده فى حياته ، وان كان الديوان لم يطبع الا بعـــد موته ، وقـــد ذكرنا أن من القصائد التى لم تطبع فى الديوان قصيدته « عارضى نوحى بسجع » وهى القصيدة الى استهجنها شقيقه أحمد والشيخ ســـعيد تقى الدين .

ونتفق مع الأستاذ فروخ كذلك فى تعليل هـــذا التفاوت معنويا ولغويا ، ولكننا نكرر انه لم يكن من الضخامة التى تنال من شاعريته .

أما عبد الرحيم محمود فالتفاوت بين شعره فادح لا يخطئه النظر ، حتى يخيل لمن يقرأ شعره أنه لأكثر من شاعر للتفاوت الوجـــدانى واللغوى بين كثير من قصائده . ويظهر هذا التفاوت واضحا بين شعر المرحلة الأولى وهو شعر ما قبل ١٩٣٩ وشعر المرحلة الثانية الذى يمتد من سنة ١٩٣٩ الى أن لقى ربه شهيدا . وقـــد ذكرنا فى الفصل الخامس ما يثقل بعض شعره من عيوب فى التصوير والتعبير والأوزان والقوافى ..

* * *

وآمل أن أكون قـــد أبنت فى الصفحات السابقة عما التقى فيه الأستاذ وتلميذه وعما اختلف فيه الصـــديق وصـــديقه ، وكلاهما كان له الكلمـــة الخالدة فى محراب الفن وميدان الكفاح ، وان انفرد عبد الرحيم بأن شـــفع الكلمة بالجهاد ، وأيد القول بالدم .. يرحمهما الله .

الخاتمة

لقـــد عشنا الشاعر الفلسطينى الشهيد .. عبد الرحيم محمود ... على مدى امتد بنا قرابة ثلاثمائة صـــفحة عشناه انسانا ... وعشناه شاعرا ... عشناه فى نضـــاله الدامى ضـــد الاستعمار والصـــهيونية ، وعشناه فى ترقبه .. وحـــذره .. وربما خـــوفه .. وهـــو يتسلل بليـــل عبر الصحارى والجبال الى العراق .. عشناه تلميذا يفتح اذنيه وقلبـــه وعقله لكلمات معلميه فى عنبتا وطـــولكرم ونابلس .. وعشناه معلمـــا يحارب ... وفدائيا يعلم ... وكما قلنا فى مطلع البحث أن تاريخ عبد الرحيم **صنعته نقطتان : نقطة حبر خط بها « الكلمة » ، ونقطة دم سجل بهـــا « التضحية والفـــداء » ، ومن تعانق النقطتين وتلاحمهما الصـــادق كانت الملحمة الحية النابضة « ملحمة الكلمة والدم » .**

وعاش الشاعر حياته متدرعا برجولة شماء ، ونفس عزيزة ابية ، وايمان بالله والوطن والقيم العليا لا يعرف الحـــدود . وجاءت كلماته تنتصر للشمم والعزة والاباء والايمان . وانطلق شعره يعصف بالذلة والاستسلام والخيـــانة والاســـتغلال .

بحرقة بكى قائده وزميل كفاحـــه عبد الرحيم الحاج محمد ... بكاه بقصيدة دامعة دامية ... ولكن قارئها ـــ أو بتعبير أدق ـــ معايشها يشعر أن الدموع دموع « رجـــل » ... رجل محزون فتتت الدمع قلبه ، ولكنه لم يحن هامته .. من هنا كان للقيم العليا مكانها السامق الرفيع فى القصيدة .

وهـــذه الروح التى لا تعرف الانحناء المنكسر ظلت على عهـــدها فى الصلابة والاباء والترفع على كل ما يعيب الرجال .. حتى فى الغزل وهـــو غرض « الدموع والتقرب واهتزاز النفس » كان وراءه . « بطـــل مقـــاتل » لا شاعر متفكك العزيمة والأعضاء .

كان يؤمن أن للشعر رسالة انسانية يجب أن يلتزم بها ، واعتز فى مقـــاله النقـــدى ببيت لشوقى اتخـــذه عقيدة تمثل بها فى مواجهة من هاجم استاذه ابراهيم طـــوقان .

والشعر ان لم يكن ذكرى وموعظة وعبرة فهـــو تقطيع وأوزان

والشعور بهـــذه الرسالة كان نابعا من « واقعه النفسى » وهـــو واقع كان خلاصة لواقع وطنه : أرضا وقيما ... أرضا درج عليها ... وقيما حملتها الأرض فنمت وترعرعت فى رحاب العـــدل الأكبر وظلال الانتصارات الوطنية بأيدى المسلمين والعرب الذين انطلقوا فى هـــذه الأرض ومن هـــذه الأرض يحققون « للانسانية » معجزات ...

لذلك رفضنا ـــ ومعنا الحق ـــ قول من راح ينسبه الى اشتراكية أو يسارية أو غيرها ... كأن ديننا وعروبتنا وحضارة قرون اسلامية وعربية زاهية خلو من قيم العـــدل والانصاف والثورة على الظلم والاستغلال .. وكأن هـــذه القيم لا توجـــد الا فى يسار أو يمين .

* * *

هـــذه صفوة ما يقال عنه انسانا . اما صفوة ما يقال عنه فنـــانا فتذكرنى ببيت قاله حافظ فى رثاء مصطفى كامل :

قد ضاق جسمك عن مداك فلم يطق صبرا عليك وأنت شـــعلة نار

ويعنى حافظ أن مصطفى كامل عاش بروح متوثبة وذكاء خارق ونفس عالية وآمال طامحة ولقب كبير ... فلم يطق جسمه المضعوف أن يتحمل كل هـــذه الآماد الضخمة الثقيلة ..اقول ما قرأت شعر عبد الرحيم الا وتذكرت هـــذا البيت ... ففكر عبـــد الرحيم « اقـــدر » من الفاظـــه ، وأرقى من عبـــاراته ... كان معجمه الشعرى أحيانا يخـــونه .. وكانت قـــوافيه كذلك تغـــدر به .. فيجأر منها بالشكوى ، وربما كان هـــذا هـــو السر

فى لجـــوئه الى قافية الألف اللينة .. ففيها فرج وفيها مخرج من « أزمته » مع القوافى ... ومن النادر أن نجـــد فى الشعراء قـــديما وحـــديثا من لجـــأ الى قافية الحروف اللينة وخصوصا الألف . واقرأ قصيدته فى أبى العلاء . وهى من أرقى شعره وأسماه فكرا وأعمره بالنقـــد الاجتماعى والانسانى .. وستجد قوالبه لم تكن على مستوى مضامينه العظيمة الراقية .

ولكن لعبد الرحيم من القصائد ما يتوازن فيها اللفظ والمعنى ويتناسب فيها القالب والمضمون مثل : رثاء حمال ـــ حجر فى كثبان رمل . وقصـــيدته (موت البطـــل) فى رثاء عبد الرحيم الحاج محمد وهى من أروع القصـــائد ـــ لا أقول فى الشعر الفلسطينى ـــ ولكن أقول فى الشعر العربى كله . ومع ذلك يبقى الحكم صادقا لا ينقضه هـــذا القليل : شاعر موهوب هـــو ... قادر الموهبة بلا شك ، ولكن لغته أضيق من مداه ، وأداءه أقـــل مستوى من فكره ، وتقليده يرجح تجـــديده . ثم أين مكانه فى الرقعة الأدبيـــــة الفلســـطينية ؟

ـــ هـــو شاعر من أهم شعراء فلسطين فى الربع الثانى من القرن العشرين .

ـــ وهـــو شاعر المقاومة الأول فى العقد الخامس من هـــذا القرن . وهـــو شاعرها الثانى فى حياة أستاذه ابراهيم طوقان . ولكنه ـــ كما يقـــول عمر فروخ ـــ فوق جميع الذين قالوا لأنه كان من المناضلين المجاهدين ، وقـــد ســـقط شـــهيدا .

ـــ وهـــو فى الصنعة الفنية يأتى فى المرتبة الثانية بعـــد شاعرى فلسطين ابراهيم طوقان وأبى سلمى عبد الكريم الكرمى .

* * *

وأخيرا : هل بقى ما يمكن أن يقال عن هـــذا الشاعر الشهيد ؟

انه سؤال يقودنا الى عـــدد من الأسئلة طرحنا بعضها من قبـــل ، ونعـــود فنسأل : أين « عراقيات » الشاعر ؟ أيعقل أن يعيش فى العراق قرابة ثلاث سنوات عامرة بالترقب والعمل والاستعداد والتفاعل مع شعراء العراق والاشتراك فى ثورة الكيلانى ولا نقرأ له فى ذلك الا أبياتا قليـــلة فى « تمور البصرة » و « رثاء الملك غازى » ؟

ثم : هـــذا العاشق للأرض والوطن والأهل والشعب أيعقل ألا يكون لـــه فى أثناء سنوات ثلاث الا قصيدتان فى الحنين الى أرض الوطن وعبيره ومرابعـــــه ؟

ثم أين « المعلم العظيم » والصـــديق الحميم فى شعره ؟ ... نعم أين فى شعره طوقان حيا ؟ وأين فى شعره طوقان مريضا نفسا تساقط أنفسا ، وتذوى كما يذوى القضيب من الرند ؟ وأين فى شعره طوقان ذكرى عاطره بعـــد أن غيبته أطباق الثرى ؟ ألم يلهمه أستاذه وحبيبه وصـــديقه قصيدة واحـــدة : تحية أو رثاء ووفاء ؟

ثم أين أوراقه الخاصة ؟ أين رسائله الى طوقان ـــ بصفة خاصة ؟ لقد قرأنا واحـــدة فرأيناها أدبا رفيعا تعبيرا وتصويرا وترسلا . أمن المعقول أن تكون هى الرسالة اليتيمة فى حياته ؟ ..

ثم أين مذكراته التى أشار اليها بعض الكتاب وذكر أنها تتدفق بروح النقـــد والنقمة على قادة ورؤساء لم يرض عنهم ؟

* * *

كل أولئك صفحات سقطت سهوا أو عمدا من كتاب حياته ، أو غابت فى غيبة البحث الدقيق والتنقيب الشاق . وظهورها ولا شك يفتح البـــاب لدراسة ... بل دراسات أوفى وأعمق بكثير مما كتبت أنا ومما كتبه غيرى من قبلى عن الشاعر .

لقـــد ذكر الأستاذ وليد جرار فى كتـــابه عن طـــوقان وعبد الرحيم « شاعران من جبل النار » أنه أعـــد للطبع الديوان الكامل لعبد الرحيم محمود . وأنا على يقين أن شعره سيكون أضعاف ما نشر له فى الطبعات السابقة ، ودليلى على ذلك ـــ وأنا لم ار هـــذا الديوان المخطوط الذى يعده وليد للطبع ـــ أن ما تمثل به وساقه شواهد من مخطوطه أكثر فى كمه ممـــا نشره نافع عبد الله فى الطبعة الثالثة من الديوان . لأنه ليس من المعقول ان يستشهد الدارس بكل ما عنده من شعر الشاعر . كما أنه كان يستعمل حين الاستشهاد حرف الجر « من » الدال على التبعيض . ولكن هل توصل الدارس الى مذكرات عبد الرحيم ورسائله وأنها ستكون ضمن ما ينشر ؟ هـــذا ما لم يذكره صاحب « شاعران من جبل النار » .

ونعود الى السؤال الذى طرحناه آنفـــا : هـــل بقى ما يمكن أن يقال عن شاعرنا الشهيد ؟ نعم .. نعم يمكن أن يقال الكثير والكثير اذا ما ظهر الى حيز الوجود من أعماله كل أو بعض ما اشرت اليه فى شكل تساؤلات ... بل يمكن أن يقلب هـــذا الجـــديد موازين الأحكام التى رصـــدتها ورصـــدها غيرى فى دراساتهم ... وهـــذه هى طبيعة البحث العلمى .. تقال فيـــه كلمات ، وتصـــدر فيه أحكام ... أما الكلمة النهائية فتبقى معلقة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . والحمد لله فى الأول والآخر .

د. جابر قميحة

المراجـــع

اولا : المراجع العربية

١ ــ **آراء فى الآداب والفنون ــ عباس العقاد**

الهيئة العامة للكتاب ــ القاهرة (د.ت) .

٢ ــ **ابراهيم طوقان فى وطنياته ووجــدانياته ــ البدوى الملثم (يعقوب العودات)** ط ١ . المكتبة الأهلية . بيروت ١٩٦٤ .

٣ ــ **أبو نواس : الحسن ابن هانى (دراسة فى التحليل النفسانى والنقــد التاريخى) ــ عباس العقاد** . مكتبة الانجلو . القاهرة . (د.ت) .

٤ ــ **الاتجاهات الأدبية فى فلسطين والاردن ــ د. ناصر الدين الأســـــد** ط ١ معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة . ١٩٥٧ .

٥ ــ **الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى المعاصر ــ د. كامل السوافيرى**

مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة . ١٩٧٣ .

٦ ــ **الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر ــ عمر دقاق**

معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة . ١٩٦١ .

٧ ــ **أحــداث النكبــة ــ محمد نمر الخطيب**

ط ٢ . مكتبة الحياة . بيروت . ١٩٦٧ .

٨ ــ **أخى ابراهيم ــ فدوى طوقان (دراسة بقلمها صدر بها ديوان ابراهيم طـــــوقان)**

مكتبة المحتسب . عمـــان . ١٩٨٤ .

٩ ــ **الأدب العربى المعاصر فى فلسطين (١٨٦٠ ــ ١٩٦٠) ــ د. كامل السوافيرى**

دار المعارف . القاهرة . ١٩٧٩ .

١٠ ــ **الأدب فى ظــل القومية العربية ــ د٠ محمد محمد حسين**
ط ٢ . بيروت . ١٩٦٩ .

١١ ــ **اضواء على الأدب العربى المعاصر ــ انور الجندى**
دار الكاتب العربى . القاهرة . ١٩٦٩ .

١٢ ــ **الأعــلام ــ الزركلى : خير الدين**
ط ٤ . دار العلم للملايين . بيروت . ١٩٧٩ .

١٣ ــ **الأيديولوجية الصهيونية (دراسة حـــالة فى علم اجتماع المعرفة)**
القسم الأول . د٠ عبد الوهاب المسيرى
الكويت . ١٩٨٢ .

١٤ ــ **بشار بن برد : شعره واخباره ــ أحمد حسين القرنى**
مطبعة الشباب . القاهرة . (د.ت) .

١٥ ــ **تاريخ العراق السياسى الحــديث ــ السيد عبد الرازق الحسنى**
مطبعة العرفان . صيدا . لبنان . ١٣٦٧ ــ ١٩٤٨ .

١٦ ــ **تقــديم أحمد امين لديوان الشاعر حافظ ابراهيم .**

١٧ ــ **تقــديم أحمد طوقان لديوان أخيه الشاعر ابراهيم طوقان .**

١٨ ــ **تقــديم ناجى علوش لديوان عبد الرحيم محمود**
(فى طبعته الثانية ١٩٧٤) .

١٩ ــ **جبل النار (ديوان شعر) ــ برهان الدين العبوشى**
الشركة الاسلامية للطباعة والنشر . بغــداد . ١٩٥٦ .

٢٠ ــ **جميل بثينة ــ عباس العقاد**
دار الشعب . القاهرة . (د.ت) .

٢١ ــ **حافظ ابراهيم شاعر النيل ــ د٠ عبد الحميد الجندى**
ط ٣ . دار المعارف . القاهرة . ١٩٨١ .

٢٢ ــ **الحصاد المر (فلسطين بين عامى ١٩١٤ و ١٩٧٩) سامى هداوى . ترجمة د. فخرى حسين يغمور**
ط ١ . مطبعة التوفيق ــ عمان ــ الاردن . ١٩٨٢ .

٢٣ ــ **الحنين الى الأوطان ــ الجاحظ : أبو عثمان بن بحر . تحقيق الشيخ طاهر الجزائرى**
ط ٢ المطبعة السلفية . القاهرة . ١٣٥١ هـ .

٢٤ ــ **الحنين والغربة فى الشعر العربى الحديث ــ د. ماهر حسن فهمى**
معهد الدراسات العربية . القاهرة . ١٩٧٠ .

٢٥ ــ **حياة الأدب الفلسطينى الحديث من اول النهضة حتى النكبة د. عبد الرحمن ياغى**
المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . ١٩٨ .

٢٦ ــ **دائرة المعارف الاسلامية ــ جماعة من المستشرقين**
دار الشعب . القاهرة . (د.ت) .

٢٧ ــ **دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده ــ د. محمد غنيمى هلال**
دار نهضة مصر . القاهرة . (د.ت) .

٢٨ ــ **الدين والأخلاق فى شعر شوقى ــ على النجدى ناصف**
ط ٢ . مكتبة نهضة مصر . القاهرة . ١٩٦٤ .

٢٩ ــ **ديوان ابراهيم طوقان ــ ابراهيم طوقان**
ط ١ . مكتبة المحتسب . عمان . ١٩٨٤ .

٣٠ ــ **ديوان ابراهيم ناجى (الأعمال الكاملة) ــ ابراهيم ناجى**
دار العودة . بيروت . (د.ت) .

٣١ ــ **ديوان ابن الرومى ــ ابن الرومى : أبو الحسن على بن العباس بن جريج . تحقيق د. حسين نصار**
مطبعة دار الكتب . القاهرة . ١٩٧٣ .

٣٢ ــ **ديوان أبى سلمى (الأعمال الكاملة) ــ ابو سلمى . عبد الكريم الكرمى**
ط ١ . دار العودة . بيروت . ١٩٧٨ .

٣٣ ــ **ديوان أبى فراس الحمدانى : أبو فراس : الحارث بن أبى العـــلاء سعيد بن حمدان ــ تحقيق سامى الدهان**
المطبعة الكاثوليكية . بيروت . ١٩٤٥ .

٣٤ ــ **ديوان ايليا أبى ماضى (الأعمال الكاملة) ايليا أبو ماضى**
دار العودة . بيروت . (د.ت) .

٣٥ ــ **ديوان بشار بن برد ــ بشار بن برد**
شرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور . لجنة التاليف والترجمـــة والنشر . القاهرة . ١٩٥٧ .

٣٦ ــ **ديوان جميل شاعر الحب العـــذرى : جميل بنى معمر**
جمع وتحقيق وشرح د. حسين نصار ط ٢ . دار مصر للطباعـــة . القاهرة . ١٩٦٧ .

٣٧ ــ **ديوان الخليل ــ خليل مطران**
ط ٣ . دار الكتاب العربى . بيروت . لبنان ١٩٦٧ .

٣٨ ــ **ديوان صفى الدين الحلى : أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن أبى القاسم التنيسى**
مطبعة خالد . دمشق . ١٢٩٧ هـ .

٣٩ ــ **ديوان عبد الرحيم محمود ــ عبد الرحيم محمود**
جمع اللجنة الثلاثية . عمان . ١٩٥٨ .

٤٠ ــ **ديوان عبد الرحيم محمود ــ عبد الرحيم محمود**
جمـــع القصائد وصـــدره بدراسة عن الشاعر وشـــعره . د. كامل السوافيرى . دار العودة . بيروت . ١٩٧٤ .

٤١ ــ **ديوان عمر أبى ريشة ــ عمر أبو ريشة**
ط ١ . دار العودة . بيروت . ١٩٧١ .

٤٢ ــ **الديوان فى الأدب والنقد ــ عباس محمود العقاد وابراهيم المــازنى**
ط ٣ . دار الشعب . القاهرة . (د.ت) .

٤٣ ــ **الرومانتيكية ــ د. محمد غنيمى هلال**
مكتبة نهضة مصر . القاهرة . (د.ت) .

٤٤ ــ **رياح عز الدين القسام (ديوان شعر) محمد القيسى**
ط ١ . بغــداد . ١٩٧٤ .

٤٥ ــ **السرقات الأدبية ــ د. بدوى طبانة**
مطبعة الرسالة . القاهرة . (د.ت)

٤٦ ــ **سليمان البستانى فى مقــدمة الالياذة ــ جورج غريب**
دار الثقافة . بيروت . (د.ت) .

٤٧ ــ **سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ــ د. حسن صبرى الخولى**
دار المعارف . القاهرة . ١٩٧٣ .

٤٨ ــ **شاعر الغزل عمر بن ابى ربيعة ــ عباس العقاد .**
ط ٥ . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٥ .

٤٩ ــ **شاعران معاصران (ابراهيم طوقان وأبو القاسم الشابى) : عمر فــــروخ**
ط ١ . المكتبة العلمية . بيروت . ١٩٥٤ .

٥٠ ــ **شاعران من جبل النار : (ابراهيم طوقان ــ عبد الرحيم محمود) وليــد ســعيد جرار**
ط ١ . شركة الشرق الأوسط للطباعة . عمان . ١٩٨٥ .

٥١ ــ **الشاعر عبد الرحيم محمود : نافع عبد الله**
ط ١ . مطابع صوت الخليج . الشارقة . ١٩٧٩ .

٥٢ ــ **الشاعر عبد الرحيم محمود . بطل معركة الشجرة ــ رشيد جبر الأسعد**
مطبعة العانى . بغداد . ١٤٠٥ ــ ١٩٨٥ .

٥٣ ــ **شرح القصائد العشر : التبريزى : أبو زكريا يحيى بن على**
ادارة الطباعة المنيرية . القاهرة . ١٣٦٩ .

٥٤ ــ **شرح المعلقات السبع ــ الزوزنى : أبو عبد الله الحسين بن أحمد ابن الحسين**
دار نشر الكتب الاسلامية . لاهور . باكستان . (د.ت) .

٥٥ ــ **شرح ديوان المتنبى ــ عبد الرحيم البرقوقى**
دار الكتاب العربى . بيروت . (د.ت) .

٥٦ ــ **شروح سقط الزند لأبى العلاء المعرى (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب : ١٣٦٦ ــ ١٩٤٧) . باشراف طه حسين وآخرين .**
الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة .

٥٧ ــ **الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٥٥ ــ كامل السوافيرى**
ط ١ . مكتبة نهضة مصر . القاهرة . ١٩٦٤ .

٥٨ ــ **الشعر الفلسطينى الحديث (١٩٤٨ ــ ١٩٧٠) خالد على مصطفى**
دار الحرية للطباعة . بغداد . ١٩٧٨ .

٥٩ ــ **الشعر الفلسطينى فى نكبة فلسطين ــ د. عبد الرحمن الكيالى**
المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . ١٩٧٥ .

٦٠ ــ **الشعر فى اطار العصر الثورى ــ د. عز الدين اسماعيل**
الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة . ١٩٦٦ .

٦١ ــ **الشعر والشعراء ــ ابن قتيبه ــ تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر**
ط ٣ . دار الشعب . القاهرة . ١٩٧٧ .

٦٢ ــ **شوقى : شعره الاسلامى ــ د. ماهر حسن فهمى**
ط ٢ . دار المعارف . القاهرة .

٦٣ ــ **الشوقيات ــ احمد شوقى**
دار الكتاب العربى . بيروت . (د.ت) .

٦٤ ــ **صـــــحيح مسلم ــ الامام مسلم بن الحجــاج بن مسلم القشــيرى النيسابورى بشرح النووى**
دار الشعب . القاهرة . (د.ت) .

٦٥ ــ **الصهيونية بداية ونهاية ــ أبو مازن (عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الفلسطينى . فتح)**
(بدون تاريخ وبلد الطبع) .

٦٦ ــ **الصورة الشعرية ــ سى ــ دى لويس . نرجمة : د. احمد نصــيف الجنــابى وآخرين**
بغــداد . ١٩٨٢ .

٦٧ ــ **الصورة والبناء الشعرى ــ د. محمد حسن عبد الله**
دار المعارف . القاهرة . ١٩٨١ .

٦٨ ــ **العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقــده ــ ابن رشيق القيروانى : ابو على الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى . تحقيق محمـــــد محيى الدين عبد الحميد**
ط ٤ . دار الجيل . بيروت . ١٩٧٢ .

٦٩ ــ **عيار الشعر ــ محمد احمد بن طباطبا العلوى**
ط ١ . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٩٨٢ .

٧٠ ــ **الغوانى فى شعر ابراهيم طوقان : البدوى الملثم (يعقوب العودات)**
دار ريحانى للطباعة والنشر . بيروت . ١٩٥٧ .

٧١ ــ **فى اللغة والأدب ــ د. ابراهيم بيومى مدكور**
دار المعارف . القاهرة . ١٩٧١ .

٧٢ ــ **القاموس السياسى ــ احمد عطية الله**
ط ٤ . دار النهضة العربية . القاهرة . ١٩٨٠ .

٧٣ ــ **القــدس ــ احمد عباس**
مطابع شركة الاعلانات الشرقية . القاهرة . (د.ت) .

٧٤ ــ **قضايا معاصرة فى الأدب والنقــد ــ د٠ محمد غنيمى هلال**
دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة . د.ت .

٧٥ ــ **الكلمة القاتلة فى فلسطين ــ هارون هاشم رشيد**
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٣٩٣ ــ ١٩٧٣ .

٧٦ ــ **ما الأدب : سارتر (جان بول) ترجمة د٠ محمد غنيمى هلال**
مكتبة الانجلو . القاهرة . ١٩٦١ .

٧٧ ــ **مجمع الأمثال : الميدانى : أبو الفضل احمد بن محمد النيسابورى**
مكتبة عبد الرحمن محمد . القاهرة . ١٣٥٢ هـ .

٧٨ ــ **محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ــ د٠ امجــد الطرابلسى .**
معهد الدراسات العربية . القاهرة . ١٩٥٦ .

٧٩ ــ **محاضرات فى الشعر الحــديث فى فلسطين والاردن ــ د٠ ناصر الدين الأســـد**
معهد الدراسات العربية . ١٩٦٠ .

٨٠ ــ **مشاريع الاستيطان اليهودى ــ د٠ أمين عبد الله محمود**
الكويت . ١٩٨٤ .

٨١ ــ **مصر وفلسطين ــ د٠ عواطف عبد الرحمن**
الكويت . ١٩٨٠ .

٨٢ ــ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ــ محمد فؤاد عبد الباقى**
مطابع دار الشعب . القاهرة . ١٣٧٨ .

٨٣ ــ **مقــدمة فى دراسة العراق المعاصر ــ د٠ زكى صالح**
مطبعة الرابطة . بغــداد . ١٩٥٣ .

٨٤ ــ **مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى ــ شكرى فيصل**
مكتبة الخانجى . القاهرة . ١٩٥٣ .

٨٥ ــ **منهج العقاد فى التراجم الأدبية ــ د. جابر قميحة**
مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٨٠ .

٨٦ ــ **موسيقى الشعر ــ د. ابراهيم أنيس**
مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة . ١٩٨١ .

٨٧ ــ **الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء فى عدة أنواع من صناعة الشعر) . المرزبانى : أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ــ تحقيق على محمد البجاوى**
دار نهضة مصر . القاهرة . ١٩٦٥ .

٨٨ ــ **النقد الأدبى : أصوله ومناهجه ــ سيد قطب**
دار الفكر العربى . القاهرة . (د.ت) .

٨٩ ــ **النقد الأدبى الحديث ــ د. محمد غنيمى هلال**
دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة . ١٩٧٣ .

٩٠ ــ **النكبة (الجزء الثالث) عارف العارف**
صيدا . لبنان . ١٩٥٦ .

٩١ ــ **الوثائق الرسمية فى قضية فلسطين**
اصدار الجامعة العربية بالقاهرة . ١٩٥٧ .

ثانيا : مراجـــع بالانجليزية

1. On Poetry and Poets. T. S. Eliot London 1959.

2. The Palestine Diary (Volume Two, 1945-1948). Robert John — Sami Hadawi.

   (Published by Palestine Research Center, Beirut, Lebanon, 1970) .

3. Zionism and Arabism in Palestine and Israel. Elie Kedourie and Sylvia G. Haim. London 1982.

4. Zionism, Imperialism and Racism.
   A.W. Kayyali. London 1979.

ثالثا : الدوريات

١ ـــ الدوحـــة (القطرية) .

٢ ـــ الرائد (الكويتية) .

٣ ـــ شئون فلسطينية تصـــدر عن مركز الأبحـــاث فى منظمة التحرير الفلســـطينية) .

٤ ـــ الشـــعر (المصرية) .

٥ ـــ فلسطين الثورة (المجلة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية) .

٦ ـــ العـــالم (تصور فى لنـــدن بالعربية) .

٧ ـــ المســـلمون (المصرية) .

الفهرس

الاهـــداء
تقـــديم (٥ ــ ٢٢)

كيف عرفت الشاعر ؟ . اللقاء الأول . اللقاء الثانى : معركة ادبية فى الكويت موضوعها شعر المقاومة . أخطاء موضوعية وفنية فى تقييم شـــعر المقاومة الفلسطينى . لقائى الثالث بالشاعر عبد الرحيم . ديوانه فى ثلاث طبعات . وقفة نقـــدية مع الكتب التى ألفت عنه . عرض لخطة الدراسة فى فصولها الستة .

الفصـــل الأول

الشعر وقضية العصر
(٢٣ ــ ٥٨)

قضية فلسطين هى قضية العصر . الاستعمار الصـــهيونى استعمار استيطانى . الاستعمار الصهيونى استعمار عميل . الاستعمار الصهيونى استعمار عقدى . اصالة الوجود العربى فى فلسطين . المرتكزات الدينية النصية للصهاينة لتبرير التهـــام فلســـطين . نقض هـــذه المرتكزات . الاستعمار الصهيونى لفلسطين استعمار مبرمج . جهود عملية فى ســـبيل انشاء الوطن القومى . حكومة الانتداب البريطانى ودورها فى تصـــهين فلسطين . وعـــد بلفـــور من بواكير جرائم حكومة الانتداب . الشعر ووعد بلفـــور . الهجرات اليهودية المكثفة . **صدى الهجرات فى الشعر الفلسطينى** . **الشعر يندد بالسماسرة وباعة الأرض** . العصابات الصهيونية العسكرية . الفلسطينيون فى مواجهة المؤامرة . احزاب سياسية ومؤتمرات واجتماعات ... تطاحن الأحزاب واخفاق الجهود السياسية . **الشعر يندد بالأحزاب**

وخلافات الزعماء • الكفاح المسلح العفوى . حكومة الانتداب تعدم المناضلين الفلسطينيين . ابراهيم طوقان والثلاثاء الحمراء . **الشعر وملحمة الشهادة والشهداء** • ثورة فلسطين الكبرى سنة ١٩٣٦ . عز الدين القسام رائد حركة المقاومة الفلسطينية المنظمة . بداية سرية بتكوينه « اليد السوداء » سنة ١٩٣٠ . ارتكاز نضاله على أساس دينى . اتجاه عملى لا شعارى . اتجاهه الى أصحاب الولاء الحقيقى . استشهاد القسام . **القسام فى الشعر الفلسطينى والعربى** • الخديعة الكبرى : ملوك العرب وتوقف الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٩ الحرب العالمية الثانية وتنديد الشعر الفلسطينى بالانجليز والحلفاء . الشعر واحتفاؤه بالجامعة العربية . الشعر الفلسطينى ينـدد بقرار التقسيم سنة ١٩٤٧ . الشعر الفلسطينى عاش القضية الفلسطينية ... قضية العصر وتفاعل معها .

الفصل الثانى

مسيرة الحياة وأبعاد الشخصية

(٥٩ ــ ١٠٤)

أيام الدراسة • فى عنبتا . فى طولكرم . فى كلية النجاح بنابلس . اللقاء الأول بابراهيم طوقان . براعم شعرية يشجعها طوقان .

فى الشرطة : كيف يقبل العمل تابعا لحكومة الانتداب فى جهاز لقهر الشعب ؟ احتمال أدائه مهمة وطنية سرية . تركه الوظيفة بدافع وطنى .

المعلم : سبيل أستاذه ابراهيم طوقان . التعليم وسيلة لغرس المبادىء والقيم الوطنية .

القسام والثورة : اعتزاز الشعب بالقسام . ايمان عبد الرحيم قولا وعملا بالقسام ومنهجه فى الجهاد . شعره فى هذا المجال . عبد الرحيم يجاهد تحت لواء عبد الرحيم الحاج محمد . استشهاد القائد ورثاء عبد الرحيم فيه .

فى العـــراق : استكمال ثقافته العسكرية . معلم فى العراق . اشتراكه فى ثورة رشيد عالى الكيلانى . تفاعله مع النشاط الأدبى والشعرى هناك . مع الرصافى والزهاوى والجواهرى . حنينه الى الوطن فى قصيدتين . أين العراق فى شعر عبد الرحيم ؟

عـــودة الى فلسطين : معلم فى كلية النجاح من جـــديد . أعمر سنوات عمره بالشعر . تغنيه بالشهادة وتغزله فى الموت . شهيد معركة الشجرة ســـنة ١٩٤٨ .

الشعر والخبر . اهمية الشعر فى رسم ملامح الشخصية . لا غناء عن الأخبار والوقائع لتعرف الشخصية .

الشاعر المؤمن : الأتقياء فى حياته : عز الدين القسام . عبد الرحيم الحاج محمد . الشيخ محمود حنون . تفنيد ما قال به بعضهم من هروب الشاعر الى الخمر .

مفهوم الوطـــن فى نظره : الوطـــن أرض وتراث . ربط النضـــال بأيديولوجية أجنبية وخطورته . نبل الرسالة العربية وانسانيتها .

اللغة العربية واعتزازه بها .

ميدان القتال وساحة العلم . المدرسة معهد اعداد وتفريخ للمجاهدين .

الثائر المتمرد : دعوته للجهاد . حملته على القادة والزعماء الجوف . حملته على المستغلين . مقاومة الظلم همه ورسالته . المجتمع قـــد يكون مسئولا عن جرائم الأفراد . حياة بلا وسطية .

غربة نفسية : شعوره الحاد بالغربة الروحية فى مجتمع الاهتراء . الشعور بهـــذه الغربة ليس انسحابا انعزاليا .

منهج فى النقـــد : النقـــد المباشر والحملة الصريحة على الفســـــاد ومظاهره . أسلوب التعريض والنقـــد غير المباشر . قيمة هـــذا المنهج .

الحب فى حياته : الحب لم يستغرق حياته ، ولم يتعمق وجـــدانه . سمة الثائر الرافض فى غزلياته .

تمرد موروث .. طبيعة أبيه الشيخ محمود تعتمد على القوة والشدة وعمق المواجهة . انعكاس ذلك على طبيعة عبد الرحيم .

ثقافته وأبعادها : الثقافة العربية هى مصدره الاساسى : قديمها وحديثها . معرفته بالانجليزية ذات مدى محدود . هل أفاد الشاعر من التيارات والمذاهب الأدبية الغربية على نطاق واسع ؟ رأينا فى هذه المسألة .

الفصل الثالث

قصة الديوان المظلوم

(١٠٥ ــ ١٣٠)

المحاولات الأولى لجمع ديوانه وطبعه . اخفاق هذه المحاولات ، وأسباب هذا الاخفاق .

الطبعة الأولى من الديوان سنة ١٩٥٨ : جهود اللجنة الثلاثية ومنهجها فى جمع الديوان ، واعتراف اللجنة بأن ما جمعته هو بعض شعر الشاعر لا كله .

عيوب ومآخذ على عمل اللجنة : اغفال ضم بعض الشعر بحجة ضعفه عمل غير علمى . عمل اللجنة تجميع لا تقييم . جناية هذا المنهج على دارسى الشاعر وشعره . اختلاف الأذواق فى تقييم الأثر الأدبى . اغفال اللجنة ذكر مصادر الشعر وتاريخ نشره . خطورة هذا الاغفال . المختار من شعر الشاعر لا ديوان الشاعر .

الطبعة الثانية ١٩٧٤ . ضآلة الفارق بين الطبعتين . نفس عيوب الطبعة السابقة . لامكان « لعراقيات » الشاعر فى هذه الطبعة أيضا . أخطاء فى مادة الدراسة .

الطبعة الثالثة : ١٩٧٩ . شعر عبد الرحيم يمثل قرابة ضعفى شعره فى الطبعة الثانية . الديوان تفادى كثيرا من عيوب الطبعتين السابقتين . قصائد جديدة فى الاجتماعيات والاسلاميات . قيمة الدراسة التى صدر بها الديوان . نشر نثر للشاعر لأول مرة فى دراسة كاملة .

الديوان المخطوط ١٩٨٥ ــ الاعلان عن الديوان فى دراسة « شاعران من جبل النار » غزارة الشعر الذى تمثل به الدارس . قصائد جـــديدة لم تنشر من قبل فى الطبعات السابقة .

الفصـــل الرابع

الآفاق والمجالات الشعرية

(١٣١ ــ ١٨٩)

الشعر الفلسطينى والمناخ الفنى : الربع الثانى من القرن العشرين فى مجال السياسة والأدب . تفاعل الشعر الفلسطينى مع الأحـــداث آنذاك . المناخ الأدبى فى البلاد العربية وهثاره فى الشعر الفلسطينى . ظهور ابراهيم طوقان اهم الأحـــداث الأدبية . مكان الرومانسية فى الشعر الفلسطينى . أبو سلمى وقصيدة « الغزل الوطنى » . أبو سلمى والربط بين الكفـــاح الفلسطينى وحركات النضال العالمية . الخط الكلاسيكى والخط الرومانسى ونصيب كل منهما فى الشعر الفلسطينى .

الأفق الوطنى والقومى : قيمة هـــذا الغرض ومكانه فى شـــــعر عبد الرحيم . أهم موضوعاته ومحاوره . اجترار بعض مفاخر المـــاضى العربى والتذكير بأمجـــاده . التنبؤ بالنكبة وتصوير مقـــدماتها . حـــث الشعب على الجهاد والكفاح المسلح . تمجيد البطولة والأبطال . الحنين الى الوطن . مسئولية الاهـــدار والضياع .

الأفق الاسلامى : أثر البيئة الأسرية والتربية . اهتمامه بابراز القيم الانسانية والاســـلامية فى هـــذا الشـــعر . الربط بين المـــاضى العربى والاسلامى فى عظمته وبين الحاضر المر المتخلف . الدعوة الى التمسك بقيم الاســـلام لتحقيق النصر .

الأفق الانسانى : مفهوم القيم الانسانية سلبا وايجابا أو قيم التحلى وقيم التخلى . عبد الرحيم لم يرتبط فى انسانياته بأيديولوجية معينة . انتصاره للشعوب المظلومة وحملته على الظلم والظالمين . فى مجتمع الظلم

والاستبداد والاستغلال تنمو الجريمة.رثاء حمال والتنديد بالظلم الاجتماعى. دعـــوة للعـــدل والانصاف . أبو العلاء المعرى والمجتمعات الساقطة . النفاق والمظهرية الكاذبة . دعوته الى التفاؤل والتبسم للحياة .

الأفق الاجتماعى : حياة جادة مشحونة بالنضال . أمل الخلاص معقود بالشباب الجاد الطامح الصالح المتحمس . اهتمامه بالعمال وقضاياهم فى مطولات شعرية . ثلاثة محاور يدور عليها شعره فى العمال : تصوير جهدهم وجهادهم وأفضالهم على المجتمع . تصوير مظاهر الظلم الواقع عليهم . تحريضهم على التمرد والثورة . الشاعر لم يكن شيوعيا أو اشتراكيا او يساريا فى اتجاهه هـــذا . لا مكان لقضايا المرأة فى شعره وتعليل ذلك . ندرة المـدح والرثاء فى شعره وتعليل ذلك . شـــــعره الاجتماعى ينتصر للقيم الانسانية مع أنه نظم فى مناسبات معينة .

آفق الغزل والمراة : شعره الباكر فى غزل لاه سنة ١٩٣٠ . حبه لسلمى لم يكن هـــو الحب العميق الشاغل . علبة التقليدية والخشونة على أغلب شعره فى الغزل . الشاعر لم ينظم فى « الغزل الوطنى » أى لم يربط بين الغزل والأرض .

الفصـــل الخامس

السمات والملامح الفنية
(١٩١ ــ ٢٥٦)

وقفة مع نثر الشاعر : رسالة الى ابراهيم طوقان . الرسالة تعكس طبيعة العلاقة بينهما . الرسالة قطعة فنية من الأدب الرفيع فكرا وتصويرا وتعـــبيرا .

مقالة نقـــدية يتصـــدى بها لمن هاجم شعر ابراهيم طوقان . المقالة تثير عـــددا من القضايا النقـــدية . غلبة الحماسة والخطابية عليها .

مرحلتان متميزتان فى حياته الأدبية . اساس تقسيم حياة الأديب الى مراحل . التقسيم لا يعنى الانفصال . تدرج الانتقال من مرحلة الى مرحلة . تعرج المستوى واختلافه أحيانا داخل المرحلة الواحـــدة .

المرحلة الأولى فى حياة عبد الرحيم قبل سنة ١٩٣٩ . شـــعر وطنى وشعر وجـــدانى . انحصار محلى بلا رؤية اجتماعية او سياسية . قصر نفسه فى أغلب القصائد . الخطابية وحـــدة العاطفـــة . كثرة التـــدوير . الطـــوابع التقليدية .

المرحلة الثانية : سنة ١٩٣٩ وما بعـــدها . عام فاصـــل فى حيـــاة فلسطين ومسيرة الشاعر . اتساع دائرته الشعرية موضوعيا : شـــعر الحنين ـــ شعر القومية العربية ـــ الانصراف عن الغزليات . نمـــو معجمه اللغوى . طول النفس . بصمات وطوابع تجـــديدية .

بصمات التأثر والتقليد : القرآن الكريم . الأدب القـــــديم . الشعر الحـــديث .

الصورة الشعرية : مفهوم الصورة الشـــعرية . خصائص الصورة الآسرة . أبعاد الصورة الشعرية عند عبد الرحيم وأهم ملامحها : خيـــال عفـــوى ـــ خيال تقليدى . دائرة المحسوسات . التجسيم والتشخيص . المزج بين النفس والطبيعة . المفارقة التصويرية . التصوير القصصى .

اللغة والأداء التعبيرى : الكلمة فى الشعر تؤدى مهمتهما الايحـــائية زيادة على مهمتها الوضعية . تفاوت صارخ فى شعر عبد الرحيم وأســـبابه . حرصه على اللفظ العربى الأصيل . مراعاة جرس الكلمة فى السياق . الاكثار من الأساليب الانشائية وخصوصا الطلبية . الاكثار من اساليب التضاد . الحـــوار فى شـــعره .

مآخـــذ على لغة الشاعر : الضعف والتهافت والابتذال . أخطاء لغوية ونحـــــوية .

موسيقى الشعر : الأوزان والقوافى فى نظر القـــدماء . عناصر أخرى فى العمل الشعرى . هل هناك علاقة بين طبيعة البحر وطبيعة الغرض الشعرى ؟ نقض هـــذه المقولة . قيمة القافية فى الشعر . هـــل هناك علاقة بين طبيعة حرف الروى وطبيعة الغرض الشعرى ؟ . نقض هـــذه المقولة . حرص عبد الرحيم على الشكل التقليدى للقصيدة ـــ تجـــديده الشكلى فى نطاق المقطوعة ـــ استخدامه قافية الألف اللينة فى قصيدتين . مراعاته الجهارة

والهمس أحيانا تبعا للغرض والفكرة . غلبة الجهارة والنبرة العالية على شعره ، وتعليل ذلك . نقـــد ذاتى : اعترافه بضعفه أمام القوافى وتعصيها عليـــــه .

عيوب تتعلق بالقافية فى شعره : كلمات مجلوبة للقافية . الاقواء . الســـــناد .

الفصـــل السادس

بين الشاعرين عبد الرحيم وابراهيم طوقان
(٢٥٧ ــ ٢٩٣)

وجـــوه شبه والتقاء : بيئة البيت وطبيعة التربية . الشاعران وقضية العصر . الزعماء الجـــوف ومسئولية الضياع . البطولة والأبطال . العربية الفصـــــحى .

ملامح الاختلاف : الاستعداد الجسدى . الثقافة : مصادرها ومداها . الخيال والرومانسية . الأغراض والآفاق الشعرية . الحنين الى الوطن . المرأة والغزل . طبيعة المحبوبة . روح الميدان والقتـــــال . القصص الرمزى . الأناشيد . الأسلوب والشكل الفنى . تفاوت المستوى الفنى .

الخاتمـــــة
(٢٩٥ ــ ٢٩٩)

عبد الرحيم الانسان . ايمان ورجولة وبطولة مقـــاتلة . ايمانه بأن الشعر رسالة . الايمان بهـــذه الرسالة نابع من واقعه النفسى .

عبد الرحيم الفنان . فكره أجـــل من أسلوبه ومضمونه أرقى من أدائه . شاعر المقاومة الأول .

هل بقى ما يقال عن الشاعر ؟ . صفحات ساقطة من فنه وغائبة من حياته . شعر جـــديد لعبد الرحيم فى ديوان يزمع طبعه . الكلمة النهـــائية وطبيعة البحث العلمى .

المراجـــع
(٣٠١ ــ ٣١٠)

كتب للمؤلف

١ ــ **منهج العقاد فى التراجم الادبية**

دار النهضة المصرية . القاهرة .

٢ ــ **المدخل الى القيم الاسلامية**

دار الكتاب المصرى ــ اللبنانى . القاهرة . بيروت

٣ ــ **ادب الخلفـــاء الراشـــدين**

دار الكتاب المصرى ــ اللبنانى . القاهرة . بيروت .

٤ ــ **فى صـــحبة المصطفى**

دار الكتاب المصرى ــ اللبنانى . القاهرة . بيروت .

٥ ــ **التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى**

توزيع دار المعارف . القاهرة .

٦ ــ **أدب الرسائل فى صـــدر الاسلام**

توزيع دار المعارف . القاهرة .

رقم الايداع بدار الكتب القومية
٨٦/٤٥٧٩

طبع على مطابع
شركة دار الاشعاع للطباعة
١٤ ش عبد الحميد ــ جنينة قاميش السيدة زينب ــ القاهرة
تليفون ٣٦٣٠٤٦٩